t.me/qurssan

وادي الدوم
(رواية)

علاء فرغلي

الطبعة الأولى / ١٤٤٠هـ، ٢٠١٩م
حقوق الطبع محفوظة

دار العين للنشر
٤ ممر بهلر – قصر النيل – القاهرة
تليفون: ٢٣٩٦٢٤٧٥ ، فاكس: ٢٣٩٦٢٤٧٦
E–mail: elainpublishing@gmail . com

الهيئة الاستشارية للدار
أ.د. أحمد شوقي
أ. خالد فهمي
أ.د. فتح الله الشيخ
أ.د. فيصل يونس
أ.د. مصطفى إبراهيم فهمي
المدير العام
د. فاطمة البودي

الغلاف: عبد الرحمن الصواف

رقم الإيداع بدار الكتب المصرية: ٩٧٣٢ /٢٠١٩
I.S.B.N 978 – 977 – 490 – 548 – 3

t.me/qurssan

وادي الدوم

روايــة

علاء فرغلي

دار العين للنشر

t.me/qurssan

دار الكتب والوثائق القومية

بطاقة فهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد إدارة الشئون الفنية

فرغلي، علاء

وادي الدوم: رواية/ علاء فرغلي.

الإسكندرية: دار العين للنشر، ٢٠١٩

ص؛ سم.

تدمك: ٣ ٥٤٨ ٤٩٠ ٩٧٧ ٩٧٨

١– القصص العربية

أ– العنوان

٨١٣

رقم الإيداع / ٩٧٣٢ / ٢٠١٩

t.me/qurssan

إلى..

سيدة إسماعيل خزبك،

أمل الشربيني،

ليان علاء،

إليكن.. نبعي ونهري ونوارتي.

علاء

t.me/qurssan

t.me/qurssan

تنبيه:

فيما عدا الوقائع التاريخية الثابتة وأخبار الحروب، لم نستطع تأكيد وقوع كافة أحداث الرواية وتوثيقها، فقد استندنا في الكتابة إلى دفتر "الصَّاير" الذي يدوِّن فيه "الأشياخُ" أخبار "الدَّوْمَة". وقد كان الدفتر في حوزة الشيخ **بوسنة**، ومن بعده الشيخ **المأمون**، عقودًا عديدة، وكان كل منهما مزاجيًّا في تدوين الأحداث، ومِنْ ثَمَّ حاولنا استكمال القصص وتتبُّع الأخبار من شُّوَّاب "الدومة" الأحياء. وحين كانت الشهاداتُ تتضارب، وتخون الذاكرةُ أصحابها، ويتعذر علينا الوصول إلى غايتنا، كنّا نلجأ إلى الخيال!

t.me/qurssan

t.me/qurssan

دنيا قـديمة، ما تدوم لوالي
يا طول ما هَدَّتْ من قصــور عوالي
دنيا قديمة ما تــدوم لوالي
تَخرِب العامر، وتَبْنيَ الخالي

(من تراث الدومة)

t.me/qurssan

t.me/qurssan

1

متـل النخيلة مجدّرة في الرمل

دوّت البازوكة في بطن الجرف، فاحترقت السقيفةُ الكبيرة، وسقطتْ أدمغةُ التماثيل وتهشّـم ما بقي من أطرافها. لكن أحدًا لم يفزع من أجلها، هي مناحيت قديمة حَجَرُها جيري أكلته الشمسُ ونحتته الريح، ولا أحد يتذكّر لها أصلًا، وما عبرها سـيدي الشـيخُ **حرب** يعرِج على مشط قدمه اليسرى مبتور الأصابع، إلّا تفل إلى يسـاره ثلاثًا وأسرع واستعاذ، وردّد في أسى:

– **ربي يلعن بطن أمّك يا ميجور محل ما تكون!**

فلولا سـاعة الأورينت التي أهداها إليه الميجور **هوتسبير**، الذي نطقَ "الدوايمةُ" اسمَه **زُبير**، كي يكون له معنى ولا يثير ضحكهم. لما أقسم له

t.me/qurssan

وهو يهديه الساعة قبل نحو أربعين عامًا، ألّا يحطّم هذه التماثيل تحطيمًا.

لم يكن لها قيمةٌ بحال، جوّالون أجانب جلبوها من كهف السباحين في "وادي صورة" منذ عقود، وتركوا السباحين "مساخيط" محفورة بالصُّبغ الأسود على جدران الكهف، تشهد أن هذه المفازة كانت قديمًا بحرًا حلوًا يسمونه "بير طرفاوي". نضب وخلّف بعد نضوبه عيونًا وأبيار جفّتْ أو شارفتْ على الجفاف، وغرود رملية حملتها الرياح لتطمس معالم الأرض والبشر!

مَنْ إذنْ يفزع لتماثيل من الحجر الجيري الأبيض تهشّمت إثر سقوط البازوكة فوق سماوة الدومة، ربما كانت -كما يقول **حرب**- هي ذاتُها مصدرَ النحس الذي يجلبُ الخراب من حين إلى حين، جنبًا إلى جنب مع قلايات النصارى وديرهم الذي يعتلي جبل الخشب مانعًا مرور الملائكة من جهة الغرب إلى الدومة.

كلّما نجت التماثيل من طواعين الحروب وغزوات المغاوير، أقسم **حرب** أنها "*ملبوسة بأرواح خبيثة تحرُسُها*"، وحين سقطت رؤوسها بعد انفجار البازوكة، قال *الحمد لله غادرتها الأرواح!* وخالجت نفسه سعادةُ الوفاء بالوعد للميجور **زُبير**، والتخلُّص من ذنب الوفاء بهذا الوعد في ذات الوقت.

ركض حرب -بعد سماعه صوت الانفجار- خارجًا من الميضأة، بينما

t.me/qurssan

كانت مآذنُ المسـجد الكبير تسـتقبل موضع سقوطها على مهل. رأى أباه الشيخَ **مأمون** وعشيره سيدي **تخلو**، وهما يقتربان من باحة المسجد الأمامية، كل منهـما يتعكّزُ على الآخر، ويتقدّم عليه خطوةً ليسـبق إلى الله بالفضل، وليضع له الشيخ **حرب** حصاةً جديدةً في جرّته الفخارية، لكي تمتلئ قبل جرّة عشيره فيعلو عليه درجة. هكذا اقترح عليهما سيدي **حرب** منذ زمن، لكي يتساجلا في الخير لا في أفاعيل العيال.

لكن قرقعة الانفجار حالتْ -هذه المرة- دون أن يحرز أيُّهما فضلًا، فما أن اشتعلتْ السقيفةُ حتى تسمّرتْ قدمُ سيدي **المأمون** كوتد الخيمة، وتلفّتَ يمينًا ويسارًا يبحث عن عشيره الشيخ **تخلو**، فلم تتبين عيناه الواهنتان أثرًا له. اختفى كأشباح الزراعات إثر نباح الكلاب. هرول **تخلو** دون أن يلفظ كلمةً أو يأتي إشـارة. انتحى باتجاه الجرف القبلي ليحتمي بمواكر الضباع المهجورة، تاركًا الشيخ **المأمون** خلف عكازته، لا يعرف كيف يشقّ طريقًا إلى هنـاك. لولا أن أسـعفه "الملك جورج" يتهـادى بقلادته الملكية وتاج الهدهد في رقبته، فلحق به وتساند على ظهره حتى بلغ الجرف.

***

همَّ الشيخ **حرب** يلحق بالمأمون وتخلو إلى الجرف القبلي. عَبَرَ مجراة المياه في قفزة خفيفة أعجبته. قفزها رغم زكّته على قدمه اليسرى التي اخترقتها

t.me/qurssan

شظية طلياني منذ سنين، ومزّقت مشط قدمه، وبقرت بطن مَطيّته. أعجبته قفزته، حتى أنه أعاد النظر إلى حيث قفز مدهوشًا كأنه سيجد لها بقية أو أثر.

ركض مثل نفسِه قبلَ خمسين، ستينَ سنة دون الطاقية، ولا المداس، ولا خاتم الفضة الذي يزدان به خنصره حتى بعد أن اتسع وصار يكفي لأصبعين معًا. تركه فوق رَفّة الخشب قبل شروعه بالوضوء. فقط، بقيت ساعة الأورينت الثقيلة تسوّر معصمه، وتصدر تكاتها بانتظام منذ أهداها له **الميجور زُبير**، قبل أن يمضي إلى بلاده راكبًا طائرة بجناحين ومروحة أمامية عظيمة تدور فتثير عواصفَ كفِساء العفاريت.

الساعةُ التي يقول سيدي **المأمون** إنها ستكبُّ ولده **حرب** يوم القيامة على وجهه في قعر جهنم، بعدما أفسدتْ وضوءه ففسدت صلاته. ولا يقنع بما يؤكّده له إمامُ الجامع حامل كتاب الله الشيخ **عبد الله السنوسي**، عن جواز ارتداء الساعات أثناء الوضوء، طالما غمرت المياه موضعها، بل يقول **المأمون** بعزم وإصرار:

- أنت يا سنوسي تردُّ عن حرب نسيبك وتفتري على الله!

ويدافع **عبد الله السنوسي** عن نفسه. يقول إنّه أجاز للشيخ **حرب** ارتداء الساعة خلال الوضوء قبل أن يأخذ ولدُه ابنةَ حرب ويكون نسبًا. بينما يضمرها سيدي حرب في سريرته لأبيه **المأمون**، حتى إذا أمّهم الأخير في صلاة جماعة أَخَذَ **حرب** يردّه في كل آية ليصحّح له لفظها. يخرج الشيخ

t.me/qurssan

المأمــون عن طــوره، ويواصل تلاوته بصوت غاضــب دون تصحيح، أو يقطع الصلاة ليسبَّ له ولأبيه ويعود لاستكمالها. ولا يجرؤ أيٌّ من المصلين أن ينتــصر لأحدهما، فلا يتذكر أغلبهم أيهما الأبُ وأيهما الابن، إلا إنْ بدأ أحدهما بالسباب. حين يقول الشيخ حرب: ***يا مأمون يابو الكلب!*** يعرفون أن حرب هو الابن، وأنه ما شتم إلا نفسه! بينما لا يشتمه **المأمونُ** أو يشتم غيره من الكبار أو الصغار إلا جعل لعشيره سيدي **تخلو** نصيبًا منها، حتى في سبابه لأيٍّ من أنساله، يقول:

- **انت يا ابن الكلب متل تخلو!**

علّةٌ أخرى يتكئ عليها سيدي حرب، كي لا ينزع ساعة الميجور **زبير** عــن معصمه خلال الوضــوء، إذ دائمًا ما يقول إن الشــيخ **مهود** صاحب المقام –عليه السلام– طالما لم يزُر الشيخ **تخلو** في منامه –مثلما يفعل في كل قضايا الدومة الكبرى منذ عشرات الســنين– وطالمــا لم يفتِ له بحرمانية ارتــداء الســاعة في الوضوء، فلن ينزعها عن معصمــه، وكثيرًا ما حرص الشيخ **المأمون** أن يسأل **تخلو** في دُبر كل صلاة:

- **هل زارك سيدي مهود شأن ساعة حرب؟**

يجيبه **تخلو** نافيًا بهزة من رأسه وابتسامة خبيثة تنفرج بها شفتاه انفراجة ضيّقة ولا تنظر عيناه إلى من يحدّثه، فيقول **المأمون** غاضبًا:

- **وكيــف يزورك أوليــاء الله وأنت لا تكفُّ عن الضَرْط، ولا تنام على**

t.me/qurssan

وضوء.. تذكُر كَمْ كان يأتي لسيدك المرحوم شاهين؟

***

خرج الشيخ **حرب** من المسجد بعد سماعه دوي البازوكة. يعضُّ على ذيل جلبابه بلثة خالية إلا من ضرسين بُنّيّينِ متآكلين بقيا ينحتان في أعواد البوص.

يجرُّ "مشدّ" السروال المتدلي بين قدميه. يختلسُ كل عدة خطوات نظرةً عجلى خَلْفه، دون أن ينسى في عَدوه مع العادين نحو الجروف، أن يسُبَّ الشيخ **المأمون** وشورته السوداء، يوم أصرّ على بناء المآذن أربعًا في أركان المسجد الأربعة، وهو يؤكّد أن الدومة صارت في مأمنٍ من المتسللين واللصوص منذ ضرب جمال عبد الناصر مدقات الجِمَال بالطائرات النفاثة، ليغلق المسارب على حدود الغرب والجنوب، ويمنع طارقيها من برابرة وتِبُو وطَليان وجُرْعان، وأرسل هيئة التعمير لتحفر الآبار وتزرع الحبوب والقصب.

(أقسم **المأمون** حينها برأس **"الملك جورج"** وتاجِ الهدهد الذي تزدان به رقبته، أن يعيدوا بناء المآذن لتصير شـبيهة لتلك المَنقوشـة على سجادة الصـلاة الملوّنة التي أعطاها له **دليل النبي** مَهـرًا لابنتهم المبروكة **صبرنا**، ست الدومة ودرة تاجها، يوم زار دليلُ النبي الدومةَ بعد أن صارت واديًا ذا زرع وعيون).

t.me/qurssan

وفي سـبيل بناء المآذن الأربع جزّوا سـيقان النخيل والسنط المصفوفة بامتداد الجرف البحري حتى عين **باجة**، وتركوا بيوت الجرف عارية دون مصدّات للريح والتراب، وعكفوا على بناء المآذن لأسابيع. تهدّمتْ وبنوها وتهدمت وبنوها، حتى لم يعودوا يحصون مرات الهدم والبناء. كأنّ ملائكة السماء ما كانت لتنتبه إلى عِبَادٍ يؤدون فريضة الصلاة تحت هذه السَماوة إلا بمئذنة عالية تلفت أنظارها فتشرع في تسجيل الأعمال. لكن ها هي تنهدم فوق أدمغتهم، إثر سقوط البازوكة، بعد نيف وثلاثين عامًا.

يتوعّد الشـيخُ **حربُ** أباه الشـيخَ **المأمونَ**: *والله رافعِ القباب بلا عمد وباسط الأرض على الماءِ الجَمَد، لإن أنجاهما الله معًا من هذه القيامة لينزعن قلادة الذهب وتاج الهُدهد عن رقبة الملك جورج ويلقي بهما في قاع البئر الحامضة. بل ربما أمسـك بتلابيب **المأمون** نفسـه، فلا يخلّصه من يدِه نبيٌّ ولا شـفيع، ولا تلك البذرة التي سـكبها **المأمون** في فـرج أمّه فأنبتته قبل سبعين سنة أو يزيد.*

تمسِك النارُ طرفَ "المشدّ" الذي يتدلّى من لباسه بين فخذيه الرفيعين. تتشظّى سعفةٌ مشتعلة من حوله، فتنثر هالةَ شررٍ سَرعان ما تخمد. ينادي اللهَ اللطيفَ:

- **يا الله يا لطيف!**

ينطفئ طرفُ "المشدّ" فجأة كما اشتعل فجأة. ينذعِر **حرب** كأنّ النار لم تحرق الدومة من قبل، يوم ضَرَبَها الدراويش المهدية والإخوان السنوسية،

t.me/qurssan

ولم تحرِق قدمه وتقتل أصحابه أبناء سيدي **مفلح** أكبر أحياء الدومة وأول من دُفِنَ "خلاص" ولادته في ترابها، يوم قصفها الطليان والإنجليز.

أنْسَتْه سنواتُ السكينة رصاصَ الطوارق ومهربي الحريم والحشيش، واعتادت مسامعه سقسقة طيور الشحيم، وهديل الحمام، وحفيف الجريد، وخرير القناية في مصب البحيرة، فهاله سقوط منارات المسجد واشتعال السقيفة.

وحين بعُد بذلك القدر الذي يسمح له برؤية الجامعِ والسقيفة وبقيةِ الدُّور القبلية كأشباحٍ باهتةٍ، واقترب من بطن الجرف، ليحتمي بين إخوانه تحت المظلة الصخريةِ. تذكّرَ دفتر "الصاير" وخبيئته المدثرة في "مَشْيَلِ"(*) المسجد، بما تحويه من خوذات قديمة وعمائم وبقايا أسنان عملاقة، فتحوّل ذعرُه انتباهًا، ووهنُه جسارة، وانكسارُه عَزْمًا. هرول قفزًا، ليعبر بوابة الجامع إلى داخله، متخطيًا سنوات عمره المديد. تجاوز رخامة البوابة المرمرية التي تحملُ اسم مشيّده:

"إمام الشرق، أسد الرمل، الشيخ محمد بن الفضل علي، قائد أدوار السنوسية القادرية العلية".

تشغله النار عن قراءة فاتحة سريعة لروح صاحب الاسم المرحوم، الذي لا يتذكر عن صاحبه سوى ما ردّده جدّه سيدي **شاهينُ** -طيب الله ذكره

(*) المشيل: خزانة خشبية غالبًا ما تكون تحت المنبر.

t.me/qurssan

وأعلى شأنه وأسكنه دومة في الجنة خيرًا من دومتهم- أنه قائد ظافر، وإمام مجبول على الطاعة، مكشوف له الحجب، نشر الدين في عموم الصحراء وتخوم الواحات، وعلّمهم من علم الآخرة ما يغني عن علم الدنيا.

دلف حرب إلى صحن الجامع، يغالب ألسنة اللهب كأم رؤوم تبحث عن وليدها تحت أنقاض، يتجاهل الأصوات التي صارت تتصايح حوله، أصوات **الطيب والشيخ مفلح وعبد رب النبي وجابر الوكيل والسنوسي**، تحثّه أن يبتعد:

- **عُدْ يا حرب، عد يا سِيْدي حرب... ارجع يا سِيدي... النار يا عم! النااار.**

لكنه يعدو صبيًّا جسورًا يطوي سبعين حولًا في غضونه متقافزًا على رمل لاهب وحصى ناقب. يغيب بين سحب الدخان، ثم يعود سريعًا من قلب النار خيالًا باهتًا يقفُ في بوابة الجامع، يظلّلُ بكفِّه الأيمن عينيه الدقيقتين، كأنّ شمسًا خفيةً تترصّد جبهته، يتطلّع إلى بعيد. تحت ذراعه اليُسرى دثار كان أبيض ناصعًا ذات يوم. يخفي تحته خوذات معدنية وعمائم ثقيلة، ودفترًا ورقيًّا عتيقًا.

يسارع **الطيب**، أكبر أنسال الشيخ **تخلو**، برجليه الطويلتين وخطوته المديدة، لنجدته. يأخذ بيده اليمنى ويخرج به بعيدًا عن منافث النار، دون أن يتخلّى عن راديو الترانزيستور الصغير الذي يتعلّق بمعصمه بسير جلدي عريض،

t.me/qurssan

مثل نتوء زائد في يسراه. لا يُرى الطيب إلا بجهازه الصغير مشـدودًا على الدوام إلى أذنه اليسرى. لا يفارقه إلا في صلوات الجماعة، حين يتركه قريبًا من موضع سجوده. يتسمّع ما تجود به الإشارة المتقطعة من حين إلى آخر: تواشـيح دينية، غنّاوة قديمة، تمثيلية ذات عظة، ما تيسّر من آيات القرآن. وفي الأيام الأخيرة صارت إشارة الراديو تنقل إحصاءً لعدد الميداليات التي يحرزهـا المصريون في "الدورة الإفريقيـة" على أرضهم أولًا بأول، وإعادة بث غنّاوة ذات موسيقى صاخبة لشاب يصيح "إفريقيا".

يأخذ **الطيب** بيد الشـيخ **حرب**، فيشير الأخير إلى اللفافة التي عاد بها من جوف النار ويقول:

- **نسيتها تحت المشيل!**

يتطلع إلى بعيد حانقًا، يضيف:

- **ازعط أبو الكلب ذاهو!**

ينظر **الطيب** إلى حيث يشير **حرب** باحثًا عمن خايله وأثار حنقه وهو في قلـب الدخان. ينتبه أنه قال أبو الكلب وليس ابنه، فيعي أنه يقصد أباه سيدي الشيخ **مأمون**.

بينما يجلـس **المأمون** بعيدًا بين بقية الأشـياخ، **المفلح وتخلو وعبد رب النبي وبيومي الوكيل والسنوسي**، تحت مظلة صخرية في حضيض الجرف، كانت موكرة للضواري قبل أن تصير "الدومة" واديًا ذا زرْعٍ وعيون وناس.

t.me/qurssan

يغرسُ دِبلةَ عكازته في الرمل ويدها المعقوصة تحت ذقنه. يراقب ما يدور بملامح هادئة لا تشي سوى بانزعاج محايد.

لا يقف الطيب عند شتيمة **حرب** لأباه **المأمون**، ولا تبدُر عنه موافقةٌ أو اعتراض. لا يجرؤ، وإلا شين بالخزي ووصم بالعار من الشاتم والمشتوم.

يخرج **الطيب** بالشيخ حرب بعيدًا عن منافث الدخان، يحثّه على الإسراع. يبصران سيدي **بكر الفريج**، قادمًا من ناحية "الملقة"، يضع كفّ يده اليمنى في فتحة الصديري كعادته حين يمضي لأمرٍ جلل. يتبعه **المدين** ابن ستّي **صبرنا**، ويسير خلفه حاملًا "ربطة" ثقيلة فوق كاهليه.

تبادلوا كلمات قصيرة سأل خلالها الشيخ **حرب** عمن يضربون الدومة، ولم ينلْ ردًّا شافيًا من سيدي **بكر الفريج**، فمضوا تباعًا إلى حضيض الجروف.

يفكِر **الطيب** لو يحمل الشيخ **حرب** ويعدو به إلى الجرف، فينجو به وبنفسه قبل أن تلتهمهما النار، أو تطال أيًّا منهما خرطوشة تصفّي دمه، لكنه لا يجد الموت حرقًا أو قنصًا سببًا كافيًا لتحمُّله المخاطرة. لو تبدّدت سحابة هذه المعركة وركدت الهوجة وحطت الموازين، لن يغفر له **حرب** إن تجرّأ وحمله كالصغار والعجزة وسار به أمام نواظر الجميع.

كبُر الطيب ابن سيد **تخلو**، مثلما كبر عيال الدومة، لكن صورة الشيخ حرب الأولى مطبوعة في أذهانهم على حالها لم تتبدّل، فلا يأتي ذكره على

t.me/qurssan

لسان أحدهم إلّا تمثّله يمسك بمشرطه المشرشف ليثقب بنصله الحاد كيس البيوض بين قدمي حصان أو خروف أو تيس مقرّن، لينزع بيضتيه بسحبة واحدة، ويكوي موضعهما بعصارة كاوية، فيخصيه ولا ينط على الإناث مرة أخرى حتى يُذبح أو يموت. سيظل مشرط الشيخ حرب مرهوبًا يرونه كالسيف البتّار تخيف به النساءُ أولادهن ليطيعوهن. يموت **حرب** مأكولًا بالنار ولا يحمله **الطيب** حفيد **تخلو**، الذي كانت مخرأةُ أبيه **السيد** بين يديه. حتى وإن صار السيد نفسه أحد مشايخ الطريقة المهودية يلتفُّ حوله المريدون والأتباع.

لن يجلس **حرب** تحت السقيفة الكبيرة بين أشياخ الدومة مجعوصًا فيدسُّها أحدهم في ثنايا الحديث كأنها عارضة. **تخلو** -بعر العنز- بالذات، بعينه ودون غيره ولا أحد سواه. سيتلقّفها ويردّدها مُضغة في فمه عندما يحتدم الحديث في شأن من شؤون الدومة وما أكثرها، زيجة متعثرة، بعثة مسافرة، ضيافة جديدة، بئر يختلف مُلّاكها في تحديد أميلاتها(*)، إرث بين متخاصمين، عنزة حبلت واختلفوا أي جدي ركبها فعشّرها، شؤون لم يحصِها دفتر "الصاير" فكفّ **المأمون** عن تسجيلها منذ سنين وحفظ الدفتر في "مشيل" المسجد. لكن **تخلو** يعرف كيف ينُط من أي من هذه الشؤون ليقول بخبث كلب يتظاهر بالإعياء:

- ذاك اليوم يا شيخ حرب ساعة حملك ولدنا الطيب وجرى بك إلى الجرف!

(*) الأميلة: هي وحدة تقسيم مياه البئر، وغالبًا ما ينقسم البئر إلى 24 أميلة.

t.me/qurssan

لن يترك الشيخ حرب أحدًا يلمسه. نخز الطيبَ ودفعه أمامه، كأنه قرأ الفكرة تلمع في تماوج صوته وهو يحثه على الإسراع، قال له دون مناسبة:

– تعرف يا الطيب، سيدك تخلو هذا عبد هارب، وأنت وأبوك السيد مثله أولاد كلب!

– يا سيدي أسرع، ستطالنا النار!

– سيدك تخلو أنجب أباك في فنطاس مَي!!

– ورحمة سيدك شاهين تسرع يا سيدي!

– ورحمة شاهين، سيدك تخلو كان عبدًا هاربًا!

– ...

– ستك توتة كانت جارية، ناكحها تخلو في قعر الفنطاس.

يبتعدان عن حريق السقيفة، ينفض حرب عن إزاره رمادًا، وعن جلده سخامًا، يدعك أجفانه الغائرة في محجريها، عيناه منطفئتان لا تعكسان ألسنة اللهب ولا تبصران أبعد من ذراع. يجسّ لفافته فتلسعه سخونتُها. يطالع وجه الطيب، كأنما خشي لو رآه جافلًا، والطيب يأكله الفضول، يجس بدوره الخوذة بأطراف أنامله فتحرقها. يخفى دهشته، ويجرّ حرب حتى يصلا إلى راكية الجرف حيث يتجمعون. هنالك يستقبلهما **تخلو** بابتسامة واسعة فوق

t.me/qurssan

شفاه متخدّدة حفظوا سمتها، يقول:

- تعود للنار لأجل قرعة عسل يا شيخ حرب؟

- لا، هذي طيز أبوك نسيتها في "المَشْيَل"!

- وربي لو كانت تبرًا ما أعود لأجلها.

- هذا دفتر "الصاير" وهذي عطيّة الشاهين.

- تحرق روحك لأجل عطية الشاهين؟

- أحرقها لأجل شيء من رائحته.

يتداخل **المأمون**، وقد هاله عودة ابنه الشيخ **حرب** على هذه الهيئة. يميل بجذعه المنحني، ويقبض على حفنة رملٍ خشن من تحت قدميه، ينثرها أمام وجوههم، يقول بلسان اليقين:

- هذي الترابة من رائحة الشاهين، ذاك الجبل من رائحته، سَمِّ شيئًا في "وادي الدوم" كله يا حرب، ما فيه من رائحته!

t.me/qurssan

2

الصقر في الجو قوّة وله همّات
يصوم عن الزاد
ما ينزلشي على رمّات

الشاهين عربي مُتأصّل. رجل على كيفك. لا غربي بربري، ولا جنوبي زنجي، ولا من رُحّل الشمال الذين لا يعرفون لأصلابهم جذرًا، ولا هو من أولئك الهجّانة الأَكريين الذين تركتهم حروب الصحراء بأسلحتهم بقايا حية لأيام كالحة كوجوههم التي لم يمسّها الماءُ بقصد وعمد، بل هو شرقي يعرف نسبه حتى نوح. له هيبة كالخديوي عباس الذي صار العمدة **المرجوشي** يعلّق صورته في دار العمودية.

الشاهين يأخذك من يدك ويجلس بك على مصطبة "سُباتِه" ويعد لك

t.me/qurssan

شايًا زرديًّا أسـود مُسَكَّرا ويقـول لـك ابن مـن هـو. تـفـرغُ من حُقّ شايك ولا يفرغ من تتّبع نسبه، ثروته ورأس ماله. يقـول لك ألَّا تغرنّك وحدته وانقطـاع صلته، فأصوله هناك في نجد تملأ الوديان كرمل الكثبان، ولولا حمأته وعزة نفسـه ما هجر "تنيدة" بعدما صـارت مقصدًا لعائلات كبيرة ممتـدة لا تعرف أصلـه ولا تقدّره، عائلات لا يسـير أربابها على أقدامهم كالرجال، بل يركبون الكواريـس التي تجرها البغال ولا يرفعون أياديهم للناس بالسلام.

كلما زحَفَتِ الأقـدام باتجاهه وصارت أطراف البلدة جزءًا من قلبها، انسـحب إلى بعيـد، وضرب في الصحراء إلى موضع مـاء أو كـلأ. يحمل البدايد على ظهر حماره والأقراز على ظهر جمله. يسير دون أن يترك وراءه الشيخ **مهود** والشيخ **بوسنة** وسِتَّه **باجة**. الثلاثة الذين كبُر بينهم بعد موت أبيه عطشًـا في الصحراء البيضاء، أو مأكـولًا بين فكوك الضباع، أو غرقًا في بحر النيل.

ما إن ينشد الانتقال ويشرعُ يحزم المتـاع حتى يعلق سيدي الشيخُ **مهود** في ذيـل جمله مثل قعـود الناقة الرضيع، يقـول كمن يخبرُ بأمر مقضي لا شك في وقوعه:

- **قدمي بقدمك يا شاهين!**

ويتبعه سيدي "**بوسنة**" صاحب الشيخ **مهود** وعشيره، وزوج أرملته، فيقول مثله، كما اعتاد أن يفعل دومًا كصدى يرتدّ بين جدران كهف لكل ما يلفظ **مهود** أو يفعل:

t.me/qurssan

- **لا تخلوني وحدي لباجة!**

تضحك ستّي **باجة** بفمٍ مكرمش، كفَمِ كيسها المربوط بفتيلة صوفٍ تطويه تحت ردائها، وتجمع خلجاتها وأسورتي زواجيها بمهود وأبوسنة وتسير بينهما، خلف **الشاهين**.

يبعث الشيخ **المرجوشي** عمدة "تنيدة" مرسالًا يسأل الشيخين **مهود** وبوسنة ألا يسيرا وراء المخلول **شاهين** فيهلكا ويموتا بعيدًا عن مدفنيهما. يذكّرهما بفضلهما على هذه البلدة وأهلها يوم تتبّعا بربر الغرب اللصوص وقطعا عليهم طريق الإغارة إلى غير رجعة. يمنيهما -إن بقيا- بميتة هادئة، وغُسْلٍ معتبر، وكفن نظيف، وصلاة حاشدة، فيقول **مهود**:

- **ما أريد ميتة هادئة، سأموت ويعملون لي مقامًا!**

يغادرون ويقيم **الشاهين** تبطينةً من الحجر فوق رابية مرتفعة، بدلًا من "سباتة" الخوص القديمة، قرب تعريجة على درب الغباري. يراقب الحجّاج والتجّار والمسافرين ويجمع مؤنًا وعتادًا لرحلة بعيدة تراود مخياله يبحث فيها عن الواحةِ التي نقل الشيخ **مهّود** آثارها إلى أذهانهم، فسكنتْ قلوبَهم وخلبت ألبابَهم كما خلبت ألباب كلٍّ من خبر الصحراء من غرب النيل إلى شرق الكُفرة، عرب وخواجات وبرابرة.

"زرزورة" التي لا تنقطع ثمارها، ولا تنضب عيونها. فيؤها جلاب للطير. دوابُّها زراف وغزلان وحمير برية. أبقارها مُلْحِمة حلّابة. مراعيها

t.me/qurssan

ريّانة، وشمســها محبة هادئة. لا أحد يجهلهــا. يوقنون أنها هنا في مكان ما بين ربوتين ربما، أو في سفح جبل، أو أعلى سطح هضبة. تُضِلُّ من يبحث عنها وتهتدي إلى التائهين. تعطيهم من تبرها ولآلئها، وتضلهم إن حاولوا العودة.

الذين قرأوا كتب الأقدمين كـ"اللآلئ المخفية" للنابلسي، والذي سيحتفظ الحاج **أرنولد** الخواجة -بعد نحو تسعين عامًا من سفر **الشاهين**- بنسخة فرنسية منه، سيدركون هذه الحقيقة. الكتاب الذي يصف موضعها وهيئتها ومحتواها. لونها الأبيض بلون الحمام، وبوابتها المنحوتة كرأس طائر يخفي منقارُه مفتاحَها. كلما همّ رحّالة بالبحث في رجى الصحراء وعثر على واحة مأهولة ظنّها هي، زرزورة، لكن سرعان ما علم أن أهلها مثله يبحثون.

تلقّف **الشــاهين** حكاياتها من فم **مهود** وبوســنة وغيرهما من شُــوّاب الواحة ووكلاء القوافل العابرة وأدلائها، فلم تبرح مخيلته. رآها في مناماته تحت شجرة الجازورين التي تحرس داره، وفي يقظته خلف غنماته في مراعي الجبال والوديان وجلسات السامر، وفي دولاب حفر بئر **المرجوشي** الذي شارك أحد عشر رجلًا آخرين في حفره مقابل نصف ريال فضي.

لم يشــغلْه عنها حزن أو فرح، بل شــغلته عن كل حال. تحدّث لأقرانه عنها بما لم يحدثــه أحد، وحاك قصصًا تليق بالواحة الفردوســية، فظنّوها جذبته كما جذبت غــيره فضربوا في الصحاري واختفت آثارهم كأنهم ما وُجدوا قط.

t.me/qurssan

كلما اعتملت صورتُها في صدره، حمل قرابَ الماء على سنم جمله، وملأ الأخراج بالتمر والخبز الجاف والمنين، وجعل الشمس في ظهره وسار إلى مجاهل الصحراء. يغيب حتى تألف النفوس غيابه ولا ينتظره سوى الأشياخ الثلاثة. يتندّر الناس خروجَه للهلاك حرقًا بلهيب الشمس، أو مسخوطًا من العفريتة "دوزا" التي تسخط بعيونها الرجال والأشجار حجارةً حين تعثر عليهم تائهين في نقوب الصحراء. يعدونه ميتًا لا يُذكر إلا مشفوعًا بوجل الحزن وجلال الموت. بينما يضحك الشيخ **مهّود** ويصفهم بالخبل، ويحلف لهم اليمين واليمين أن **الشاهين** حيًّا، لن يموت قبل أن يصير عمدةً مثل عمدتهم في "تنيدة"، فلا يرون فيما يقوله المهود سوى ما رأى إخوة يوسف في يعقوب حين أكل الذئب ولده، رغم ما حظي به في نفوسهم من مكانة جليلة منذ خرج في صحبة **بوسنة** خلف جماعة "البربر" ليتّتبع أثرهم ويعرِفُ طريق مجيئهم للإغارة عليهم، قاطعين مئات الأميال في صحراء الرمل. ذاك اليوم حين قطع لهم **مهود** يمينًا مُغلَّظةً أن البربر الزُرقَ لن يعاودوا غاراتهم وهو حي يرزق، وأنه سيجعل الصحراء مهلكهم.

ولم يعُد الزرق كما أقسم، لكنه أيضًا لم يعد. عاد صاحبه **بوسنة** وحده يقول إنهما عثرا على فخاريات ممتلئة بالمياه في حضيض جبل يتزوّد بها اللصوص في طريق عودتهم بغنائمهم فأهرقا مياهها وهشّماها، وغدا **مهود** وحده وراء الزُرق، وأمره أن يرجع إلى "تنيدة" وأن يتزوج بباجة زوجته بعد حوْل من غيابه، وحين انقضى حول وثانٍ وثالث قالوا: **مات وشبع**

t.me/qurssan

موتًا. صارت **باجة** أرملةً وتزوجت بأبوسنة الذي يصغرها بتسع سنوات كاملة وفاء بالوصية. **ثمّ عاد مهود** شبحًا هاربًا من جبانة قديمة لا يتحدث إلا بكلمات مقتضبة وهمهمات غير مفهومة، وحين يسأله أحدهم عن غيابه كل هذه السنوات يقول:

- **علمها عند ربي!**

وحين يعود **الشاهين** بعد كل غيبة بجملٍ مُتعَب وشارب كثٍّ ولحية ملبّدة وعظام ناتئة تحت جلد أسود خشن وعيونٍ يقظة منتبهة واثقة كعيون أبناء سيهات الواحة العائدين من بلاد فاس، يجمع الرعاة وأنفار المزارع وأبناء السيهات التراكوة في ليالي السـامر. يحكي لهم عن ليالي السفر في الوديان والحفوف. عن ضبٍّ طلع بين رجليه وقال له اطعَمْني، فكسر رقبته وسلخ جلده وزَنَدَ النار في حَجَرٍ وشـواه. حجر أحمر اشتعلت النار فيه بلا زيت ولا وقش لثلاث ليالٍ لا ينطفئ ولا يبلى، خفيف لا رائحة له ولا وزن. لم يرَ له مثيلًا ولا يعرف كيف قدح فيه النار، ولم تخبُ شعلته إلا بعدما أهال عليه الرمل ومضى. وعن جملين تائهين محملين بالحرير والتوابل، عثر عليهما فاريْن من قافلة ضربتها رياح الهبوب السـودانية التي هبّتْ في غير أوانها فصبغت الأرض بلون نحاسي دامٍ وقطعت النظر أيامًا متتالية.

يصف واديًا في "تلّ الشياطين" -تلك الهضبة العظمى التي سيسميها الأمير "أحمد حسين" بعد نحو ثلاثين عامًا من زيارة **الشاهين** هذه بـ"الجلف

t.me/qurssan

الكبير"، حين يسد الطريق أمام صاحب السمو السلطاني، كجلف أحمق يضطرهم إلى الالتفاف حول جسده البدين أيامًا وليالي – صخوره نارية تحمل نقوشًا لرؤوس عفاريت وحيوانات مخيفة، يهمس لرواده بسرٍّ خلقه. هنا كانت غزلان وزراف وفيلة وغابات ريّانة في عصور فيض وغوث قبل أن يجف ضرع السماء فتكفّ عن ري أجواف الأرض. يحكي فيجلس تحت قدميه مَنْ ينصتون بأفواه فاغرة وعيون ذاهلة تداعبهم نداءات التجوال والمغامرة.

***

ترسل حكومة "السراي" بعثةً من الخواجات ذوي القبعات في سيارات كبيرةٍ تحمل علامات غصن زيتون لامعة وحرّاس أجلاف من الهجّانة، يصلون إلى "تنيدة" فيقيم لهم عمدتها المرجوشي مقامًا. يبحثون عن دليل يصحبهم في رحلة إلى الكُفرة الليبية مرورًا بتل الشياطين، لاكتشاف الطرق المهجورة وبؤر الحياة القديمة. يزكّي العمدةُ **الشاهين** لدلالتهم، يقول:

"مخلول لكنه عفريت أزرق يفرق بين ذات الحافر والظلف بنظرة واحدة. يعرف وزن الدابة من أثر حافرها. يقرأ علامات الريح والظل والنجوم، تمامًا كما كان يقرؤها الشيخ المهود قبل أن تنطفئ عيونه وتتخوّخ عظامه".

أقلق الخواجات صغرُ سنّه وضآلةُ تجربته والقصص التي نُقلت عنه مزدانة بأوهام من تناقلوها. اختبروه فأعطاهم أمارات من قضى الحياة

t.me/qurssan

على سنم جمل. ردّد واحيون أن الخواجات يبحثون عن كنوز **زرزورة** بخرائط قديمة سرقوها من مقابر فرعون، وقال آخرون: "**مال زرزورة ومال فرعون، هذه أرض ربانية حفرتها كن فيكون!**".

***

سبعة حراس ببنادقهم، وأربعة خواجات بينهم امرأة ملونة بعيون **بسّة قُططية**. ستتعلق برقبة **الشاهين** وتضمه إلى صدرها وتمنحه قبلةً حارة أمام ربعها بلا خجل، فتفتح سماءً جديدة لحكاياته. ستَجُب حكايات الصحراء والريح والرمل تحت سقيفة "الدومة" فيما بعد.

جاءوا بثمانية عشر جملًا تحملهم، وتحمل الطحين والزيت والجبن والكشك وأطعمة مُعلّبة مختومة بالقصدير لا يتلفها الحرّ، وزمازم معدنية ذات أفواه ضيقة مبطنة بجلد سميك يعزل السخونة. انطلقوا قبل بزوغ الشمس إلى الجنوب وانطلق **الشاهين** أمامهم لقاء خمسة ريالات فضية وُعد بها بعد انقضاء الرحلة. لم يكن بحاجة إلى وعدهم بالريالات بعد أن جاءته سفرةٌ ادخر من أجل مثلها المالَ والهمّةَ وطول الصبر، ليبحث عن "زرزورة". جاءته السفرة محروسة ببنادق الهجانة وفيض الطعام والماء والدواب، وريالات مجيدية وأوراق نقد مصرية، وامرأة أجنبية مبهجة تبدل رداءها أمام الجميع، وينكشف نصف جسدها بلا خجل، ودون

t.me/qurssan

أن تحرّك في سراويل هؤلاء الرجال ساكنًا، بل تنام إلى جوارهم تحت ظُلة الخيمة حين ينصبون المبيت ولا يفتك بها أحدهم.

رئيسهم ينادونه "الكولونيل"، رجل وافر الجسم، صدغاه يأكلان وجهه ويحصران عينيه الرماديتين في نقطتين صغيرتين في صفحة وجهه المسطّحة. مخيف. كلما أجهده المسير، ارتشف من زجاجة سوداء ومسح بأطراف أكمامه شاربه ما بدا أنها خمر، وكلما داعب أحدهم تحسّس وجنته وأمسك ذقنه بين إصبعيه. ظنّ **الشاهين** اسمه "الكولونيل" فأخبروه أنها رتبته. اسمه "أسناو"، وعندما ستصير بذرة الدوم التي سيغرسها **شاهين** في طرف الجرف القبلي نخلة ولّادة لجيلين أو ثلاثة، سيعود **أسناو** على رأس جيش إنجليزي كبير حاكمًا لكل هذه القارّة، وسيتذكر **الشاهين** ورحلته القديمة ويضحك مجلجلًا ويوصي به مرؤوسيه.

كان أصغرهم شابًّا زائغ العينين ينادونه **رويل**. سيتقرب إلى **الشاهين** ويبادله الحديث عن حياة الصحراء وسكانها وبناتها اللواتي يرمحن خلف المطايا بأقدام حافية وشفاه باسمة، يجمعن الوقش(*) ويحلبن الأضراع ويُلَيّسْنَ المصاطب وحوائط البيوت، فيقرأ **الشاهين** في عينيه ولعًا بنساء البوادي، لكنه لن يعلم أن هذا الولع سيكون مدعاةً لحرب طاحنة بعد نحو عشرين عامًا من هذي الرحلة، حينما يصير **رويل** قائدًا لقوات الإنجليز في مطروح ويسقط في غرام بدوية يختطفها ليتزوجها، ولم يعرف **الشاهين**

(*) الوقش: صغار الحطب.

t.me/qurssan

كيف يلفظ اسـم رابعهم، ولم يكن بحاجة ليعرفـه، فقد بدا الرجل أبكم لا يعنيه سـوى تدوين قراءات أجهزة "التيودوليـت" و"البارومتر" التي ينصبهـا كلما توقّفوا ليقيس ارتفاع الأرض والحـرارة دون أن يتكبّد عناء مشاركتهم جدًّا أو هزرًا.

***

ساروا ناحية الغرب بميل خفيف إلى اليسار. أربع نوبات مسير تخللتها استراحات قصيرة للنوم والطعام واستعادة الهمّم الخائرة. بلغوا واديًا متسعًا تتباعد فيه كتلٌ حجرية سوداء تشبه حيوانات رابضة بانتظار الفرائس، أو زعانف لأسماك عملاقة متراصّة فوق أرض مستوية، اقترحوا إطلاق اسم أحدهم عليها ولم يفعلوا، لكنّ رَحّالٌ جديد سـيدخل البقعة من ليبيا مع قافلة عارمة وعشرين جملًا عفيًا، سـيفعل بعد زمن بعيد، ويسـميه وادي الأسود!

خَلّفوا الـوادي وراءهم واجتازوا نصف نهـار بمحاذاة هضبة جيرية مرتفعة، حتى انبسطت الأرض ولاحت لهم غرود رملية هلالية. قضوا في اجتيازها ثلاث نوبات مسير. هنالك قال **الشاهين** إن هذه الغرود قريبة من طريق القوافل الذي يمتد كقوس عملاق يلتف حول كثبان وتلال. عبروا بين نواصب صخرية متناثرة وأرض يكسوها الحصيم الخشن، استراحوا تحت أحدها.

t.me/qurssan

خايلَ **الشـاهين** ظلٌّ طائرٍ يمرُق بين قدميه. رفع عينيه إلى السمـاء فلم يرَ سـوى أشعة شمس تفور فتلسع الجبين وتزغلل الأعين. ظنّ أن خياله التهب فرسم لعينيه طيرًا يلقي بظلٍّ مثلما يرسم لهم السرابُ غزلانًا وحملانًا وبحيرات فـرات في الأرض الوعرة القاحلة. يوقـن أن ليس هناك طائر ممسـوس مثله يعشـق التيه والعطش في موطئ كهذا. جناحاه لن يسعفاه للهرب من هبوة غبار عمياء، ولن يقاوما دوّامةَ هواء تصل الأرض بالسماء، وحوصلته الصغيرة لن تدّخر أكثر من "عزيمة" يومين. حمامة واحدة في سماء هذه الأرض ليست إلا جنّية ضجّت بموات الكهوف القديمة والخلاءات الساكنة فقررت أن تطير.

نصبـوا مبيتهم عند أقدام ناصبة صخريـة وزند الحراسُ النارَ في عرق خشب، فتسلّل **الشاهين** من بينهم يتتبّع مسار الطائر الجنيّة أو الجنيّة الطائرة، منسـاقًا خلف رغبة جامحة في الاكتشـاف. لم يعثر لها على أثر. عاد متأسّيًا يتناول منابه من الطعام والشاي الهندي. عاوده الظلّ فقرّر أن يتتبعه.

كانت ومضةً لامعة تبرق بين السـحب، تتبدّى وتختفي كذكرى بعيدة غير مكتملة، تتبّعها وتبيّن ملامحها، "شحيمة" رمادية برأس دقيق يكسوها الزغب والريش. سار إلى حيث اختفت، فبلغ أقدام غُرد هلالي لم يكن سوى درَج من الرمل يكسو جرفًا صخريًّا من جهة الشرق. صعد **الشاهين** الغرد حتى ذؤابته، وشاهد إطلالته على الجانب الآخر. سكنتْ حواسُّه، واتسعتْ حدقتاه، وصار يقلب ناظريه بين الأرض والسـماء ربما تستعيد الشحيمةُ

t.me/qurssan

هيئتها وينفك سحرُها فتحدثُه بأخبار ما يجهل في هذه القارة. تجمّدت في عروقه دماءُ الدهشـة والتمعت عيناه بوميض عاكس لأحاجي ملغزة. في أسـفل الجرف آثارٌ حيّة لعينٍ فيّاضة بمياه رائقة وأحراج من نخيل الدوم مورِقة تكتنفُ الصخور، بل وادٍ للدوم والظل وطيور الشـحيم وأشجار أرجان(*) تنثر حباتها حول جذوعها. هذا مرأى لا يكتمل إلا في هلاوس الحُمّى وتخاريف المرض، وأضغاث الأحلام.

***

مالتِ الشمسُ إلى المغيب، صعد إلى جوارها قمر، تدانت منهما نجوم، هدأت حركة الريح وبردتِ حرارة الهواء. هبطَ **شاهين** الجرفَ، وتدحرجت في إثره حجارة، صار قريبًا من عين الماء. لم تكُ سرابًا، أو سبخة ملح جافة، أو مياه بِركة راكدة التأمتْ أسفل مخرات سيول، بل عين ماء انشقت عنها الأرض ذات يـوم، فروتْ ثـمار دومٍ ألقتها يدُ الله ذات يوم، فأنبتت واديًا للدوم صار موطنًا لطيور مهاجرة، وسيصير موطنًا له ذات يوم.

ارتشـف من ماء العين، حلو لا نكهة فيه ولا رائحة، نخيل دوم مثمر بحبات ناضجة عارمة اللحم والبذور. بينما أشجار الأرجان ذات ثمار صلبة مثل حبات زيتون خضراء سقطت عن أغصانها قبل أن تنضج. جمع شيئًا

(*) أرجان: أشجار نادرة توجد في مناطق قليلة للغاية، وتنتشر في المغرب العربي، ويستخرج من بذورها زيت الأرجان.

t.me/qurssan

منها ودسّه في سيالته. التقط حبة دوم وقضمها فاستشعر لذتها، ردّدَ:

- سبحان الله!

*"وحينما ستلتئم جلسة الأشياخ تحت السقيفة الكبيرة بعد نحو خمسين عامًا في ذات المكان، سيسألهم **الشاهين** بروح غائبة:*

- تدرون ما كانت أول كلمة تُلفظ في هذا الوادي.. كانت سبحان الله! *فتتعالى التسبيحات والتكبيرات إجلالًا للبركة".*

جاس **الشاهين** حول العين باحثًا عن أثر لحيٍّ، لكنها كانت بكرًا لم تُطأ من قبل. عاد يتسلّق الجرف، يبحث عن رفاق رحلته، استقبلوه بوجوه قلقة، فازدرد الكلمات قبل انفلاتها، ولمّا سأله الكولونيل عن اختفائه، قال:

- خايلني ظل فتتبعته فما كان شيئًا!

أطال الكولونيل النظر إليه، فقال:

- أنت تخيفني يا خواجة بوجهك هذا!

قهقه الرجل حتى رجّ ما بين الأرض والسماء، ربّت كتف **شاهين** بيد ثقيلة يسيء تقدير وزنها فوق أجساد الخلائق، ولولا غيمةٌ عبرت صفحة القمر البازغ فحجبت ضوءه الشحيح، لرأوا في ملامح **شاهين** كذبًا بيّنًا وعرفوا أن وراء غيابه سرًّا أثقل من ذراع الكولونيل ونكاته. أعطوه منابه من الطعام، وبسطوا على الرمل خريطة جلد كبيرة وتحدثوا بينهم بلغتهم.

t.me/qurssan

سـألوه عن الوجهة التالية، فكان غائب الروح قـرب نخيل الدوم، يُردّد في سريرته:

- نخيـل دوم مثمر طيب الحَبِّ والنوى، وشـجر أرجان فاسـد عقيم وأوانهما واحد!

يتحسّـس حبّات الأرجان في سيالته ليتوثّق من وجودها، يتمدّد فوق الرمل، يتوسّـد نعليه، يفتح عينيه للسـماء يبحـث في كبدها عن يد مغرفة تشـير إلى نجم الشـمال يهتدي به الخلائق إلى جهات الأرض، فيعثر عليه برّاقا يلمع يبرُقُ كعين فهد في كهف مظلم. في الليل تنتزعه الأجنبية الملونة من خيالاته، تسـير إليه خفيفة مثل نسمة باردة في نهار قائظ طويل، تمنحه ابتسامتها، تقول:

- أنت اليوم غير يا شاهين!

يفهم. يرد ابتسامتها بابتسامة بلهاء. يشير لها أن لا شيء والله، بينما يدُه تتحسّس حبات الأرجان تتوثّق من وجودها، وفي سريرته يردد:

- وادي دوم بين أقدام الصخر وعين مياه حلوة مثلك يا شهيّة!

تقرأ حيرته. تربّت فوق أصابعه التي تمسك إحدى ركبتيه فيجفل. هذه المـرأة تكمل صـورة الحلم في دواخله! عين ماء مسـكرة، وأحراج نخيل وطيور وامرأة ملونة ملمسـها كزغب العصافير، وحبات في سـيالته من شجر الأرجان أو "الفياش" كما يسمونه في عموم البوادي. مفردات حلم

t.me/qurssan

طويل سيكشف الضوء عن نهايته لا محالة!

لكن ضياء الصبح لم يكشف غير الذي ستره الظلام، فحبات الأرجان في جيبه ومذاق ماء العين في فمه وملمس الأجنبية فوق كفّه. بدا أنه نام مستغرقًا فلم يشعر بالقافلة الصغيرة استيقظت تتهيأُ لاستئناف الرحلة.

الكولونيل أول من حشر قدميه في حذاء يحبسُ قصبتي رجليه فلا يسمح للرمل بالتسلل. اعتلى سنمَ جمله حليق الذقن معطرًا برائحة نفاذة تثير ضحك **شاهين** كلما داعبت منخاريه. أيقظوه عندما شرعوا في التحرّك، فلم يشأ أن يترك القافلة ليعود إلى ما عثر عليه بالأمس ليعاينه تحت وهج النهار كي لا يثير ريبتهم، ريبة الكولونيل بالأخص. رجل يتشكك في دابته، ويتحسّس مسدسه كلما عبرتْ ذبابة مجال رؤيته.

استأنفت القافلة مسيرها نحو الغرب تهتدي بالظل لا بالدليل. كان الدليل غائبًا تحت ذاك الجرف يبني واحته حول عين الماء، يرعى حلاله في كلئها وينثر أشجار الفاكهة في تربتها، وحين يلتقطه صوتُ الكولونيل من جُبّ هيامه، يقرّر أن يضع خلفه شواهد حجرية كي لا يضلّ طريق العودة إلى "الدومة"، واحته الجديدة.

جعلوا مبيتهم التالي في زور وادٍ ضيق كثير التعاريج، وأهدته "الأجنبية" جوربًا يقيه لدغات حشرة ناموسية طائرة تملأ الوادي وتقتات على عشبه، لا يفزعها صوت ولا تهرب من مضارب القش، تصدر أزيزًا متصلًا وتعكس ضوء النجوم والقمر. أسموا الوادي باسم أصغرهم **رويل**، وتركوا قصاصة

t.me/qurssan

ورقية بالاسم الجديد داخل زجاجة "كينا" فارغة جلبوها لأغراض صحية، ووضعوا الزجاجة بعد إغلاقها بسدّادة فلينية فوق حجر بارز في مدخل الوادي ليستدلّ بها أحدهم ذات يوم. لكن أحدًا لن يعثر عليها، وسيُعرف الوادي بعد نحو أربعة عقود من تسميتهم تلك باسم جديد يطلقه عليه مخلول آخر من مخاليل الصحراء العاشقين، زهد في عرش المحروسة من أجل صحاريها، صاحب السمو السلطاني الأمير "كمال الدين حسين" الذي خلّد اسمَه رملُ الصحراء لا بهو العرش، وأطلق على الوادي "وادي حُمرة".

أهدته الأجنبية الجوربين، واشتمّت أرتالًا من الطين في أظافر قدميه وبين أصابعهما. تفرّستهما وتحسّست جلدهما المحرشف الذي أماتَه ملمسُ الحصى وحرارةُ الأرض، واحتفظت في قرارتها بدهشتها ليكون **الشاهين** حكايةً قصيرة في حكاياتٍ ستقصُّها على مسامع حفيدتها التي ستعمل بعد نحو سبعين عامًا كاملةً، باحثة آثار بجامعة أجنبية عريقة، وتعيد ارتياد الجبال وبحر الرمال وواحات الصحراء بعربات دفع كبيرة وأجهزة معقّدة، لا تشبه تلك التي حملتها جدتُها الأجنبية الشقراء ذات يوم بصحبة **شاهين**، وستكتب مؤلفًا كبيرًا عن الصحراء، ألف صفحة ربما، سيعثر عليه كاتب روايات مغمور، فيقتبس حكايتها وينسبها إلى خياله الخصيب!

كان ملمسها أولَ ملمس امرأة يجلو عنه غفوة الاشتهاء، ويوقِظ حاسّة لم تكن بين حواسه، فلم يشعر إلا وسبابته تمخُر كتلة الهواء الساخنة بينهما، لتلمس لحم ذراعها فتغوص كأنها من أرياش إوزّة داجنة، وعندما ستسوق إليه إحدى زوجاته دلالها بعد سنوات بعيدة، سيسمّم بدنها، يقول:

t.me/qurssan

- **كانت حُرْمَة أينما تغرس رمحَك منها يصيب مقتلًا!**

أدركتْ مقصده، فمنحته ابتسامةً أسكنت قلبه المتقافزَ بين ضلوعه. هي الصحراء التي لم يكتشفها بعد، والسهل الخصيب الذي لم يرِد في حكايات "موط" و"تنيدة" و"بلاط" و"الأربعين" و"الغباري"(*) على ألسنة الشوّاب والأدلاء والرُحّل. لصوتها رنّةٌ تتسرّب تحت الجلد وتخالط الدم فتغشى الحواس. "**أكلُّ النساءِ مثلك؟**" لكن مثلك لن تغويها بشرةٌ لفحتْها شمس الصحراء، ولن يستميلها رجل يملأ العفنُ ما بين أصابع قدميه ويحشو أظافره، وأينما حكّ جلده تساقط فتيتُ الطين. في معيتكِ ثلاثة أنفار بشوارب قنافذ بريّة لا بد أنكِ تخُصّين أحدهم أو ربما جميعهم.

بلغوا واديًا يُدعَى "ماشي"، وأطلق أحد عساكر الهجانة خرطوشة فَتَقَتْ ستار سكونه، ليحذّر قطيعًا من الذئاب ظنّه يتربص بهم. نهره **شاهين**، وحذّر بقيتهم أن يأتوا بما يكشف عن وجودهم الذي لم تكشفه روائحهم. يقول **الشاهين**:

"من يقتله الجوع لن يخيفه قتل الرصاص. قتل الرصاص هيّن؛ ينثقب الجسدُ فيفسح للروح منفذًا لتفارق، لكن قتل الجوع يمزق الحشى، ويحرق الجوف، ويُذهب العقل ويذل النفس".

(*) موط، تنيدة، بلاط: قرى في الواحات الداخلة.
الأربعين: طريق صحراوى قديم بين الفاشر غرب السودان وأسيوط.
الغباري: طريق صحراوى قديم بين واحة الخارجة والداخلة.

t.me/qurssan

أصرّ أن يواصلوا المسير بعد أن قرأ آثار المخالب الخمسة حديثةً فوق الرمل. ساروا حتى انجلى الليل الأعمى عن نهار بصير. أربعة في الصحراء لا يخشى **الشاهين** مثلهم، الريح والعقرب والذئب والغريب الخائف. أمّا الريح فيتجنّب الأدلاء أوقاتها ويتفادونها بقراءة علامات حضورها، عدا تلك التي تأتي كعثرة الدابة لا مقدمات تسبقها ولا ذيول تخلفها وراءها، إنما تنولد فجأة أسطوانةً عملاقة تدور فتبتلع ما يصادفها، أو موجة تكسو الحياة بلون النحاس فلا يرى المرءُ كفَّ يده. تتسلل ذراتُ الرمال إلى الرئات حتى مع شماغ(*) صوفي ثقيل يغلق فتحات الوجه، فلا تمنحه برهة لالتقاط نفس واحد من هواء نقي. بينما العقرب أعمى نجس يؤذي بلا غرض، والترياق الذي يحملونه والعزيمة التي يحفظونها لا تكسر السم على الدوام. أمّا الذئاب فوحوش كاسرة بلا نخوة أو مروءة، خبيثة قاسية، أنيابها خناجر مسمومة وقواطعها سيوف باترة وأفكَاكها كمطارق الحديد. إن تمكّنت من فريستها لا تأكلها من مقتل كي تحافظ على خيط الحياة موصولًا في شريانها، بينما هي تتلمّظُ بطعمها الطازج، لا تحب الدماء الباردة دماء الأموات، لكنها لا تمتنع عن التهامها إن تعذر اللحم الساخن.

أمّا الغريب الخائف حين تقسو عليه الصحراء وتخايله عفاريتها، يصير عبدًا لخوفه لا يرى في الأحياء إلا خطرًا محتملًا فيتّقيه بالغدر والخيانة.

***

(*) الشماغ: لثام من الصوف.

t.me/qurssan

- الدوم نفَسُه طويل، ثلاثون عامًا يمد جذوره إلى جوف الأرض حتى ينهل من معينها الذي لا ينضب، أمّا الفيّاش خفيف، جذوره ضعيفة لينة، إن لم يجد ريته في أوانها سقطت حباته ميتة حول السيقان!

هكذا فسّر الشيخ **مهود** للشاهين طرح أشجار الدوم وعطب الفيّاش، حين عاد وقص عليه ما رأى. قال إنّ عين الماء روّاحة، ماؤها لا يدوم إنما يفيض وينقطع، وحين يفيض يسير في قناية ربّانية متمعّجة ليصل إلى جذور الدوم ويسقيها فتورق وتخضوضر، وعندما يحين أوان الفياش تكون العين قد أجدبت وانقطع ماؤها فتموت الثمار في رحم الأغصان لا ترى الضوء ولا الهواء.

***

سارت القافلة غربًا، التفّت حول "تل الشياطين"، مرّت بأودية جافّة، وجبال ملونة. قضوا ثلاثة أيام في وادي صورة، يرسمون هيئات السبّاحين، ورؤوس الشياطين والمسوخ من جدران الكهوف إلى أوراقهم المقواة. حاولوا قطع عينات من الأحجار الشجرية السوداء، ففزع **شاهين** محاولا إبعادهم. قرأ المعوذتين ولعن أسلافهم واليوم الذي صحبهم فيه إلى هنا. تعوّذ من فِعال العفريتة "دوزا" التي تَسْخط الأحياء -شجرًا وبشرًا- حجارة صماء حين يطؤون أرضها ويقلقون نومة أبنائها. يقسم ألا يعود إلى هذي البقعة إن نجا وانكتب له عمرٌ جديد. يدعو الله بقلب واجف ألا يأخذه

t.me/qurssan

بذنب أولاد الكلب هؤلاء ولا بنت الصرماية تلك. ولم يكن أمامهم إلا الانصياع لتوسلاته.

تسللوا خارج الوادي، ونصبوا خيامهم عند أطلال طاحونة قديمة لم يتبيّنوا أصلها. أسرَّ لهم **الشاهين** بما علمه عن العفريتة "دوزا" التي اختطفت أبناء واحته ممن خرجوا بحثًا عن "زرورة" في أزمان مختلفة. عفريتة من مردة الجن والأبالسة لها شعر ثعابين وجسد امرأة لعوب. عارية الصدر لا يسترها خجل.

لم تمهله الأجنبية الملونةُ ليكمل سرْد معارفه. أخرجت كتابا من حقيبتها، وعبثت في صفحاته، وأشرعت إحداها أمام عينيه. تقول:

- تقصد دوزا هذه يا شاهين؟

وشاهين لم يرها إلا في حكايات الشوّاب والشيوخ، وفي أدعية الغضب على ألسنة النسوة لأبنائهن. تعجبه صورتها الرخامية البيضاء ولا يرى في ملامحها ما يخيف. تقول الأجنبية الشقراء:

- شاهين يقصد "ميدوزا"(*) يا رفاق.. كيف وصلت الربّةُ اليونانية إلى هنا؟!

***

(*) ميدوزا: ربَّة الحكمة والثعابين الأمازيجية بحسب الميثولوجيا الإغريقية، قادرة على تحويل الرجال والأشجار إلى حجارة بمجرد النظر.

t.me/qurssan

في واحـة "الكُفْرة" نزلوا لدى أحد بطـون "زوي"، القبيلة التي طالما سمع **الشاهين** بقطعهم للطرق وسلبهم للقوافل وجعلهم "الكفرة" -بعد انتزاعها من قبائل التبو السود- مركزًا للسطو والإغارة. لكنّ سمت الناس والبلاد لم يكن كما سـمع وظنّ. إذ أُعلن فيهم سيدي "**مُحمد المهدي**" ابن السـنوسي الكبير مهديًّا منتظرًا، وخليفة لآخر الزمان. وافق سـنُّ بلوغِه غـرّة محرم لألف وثلاث مئة هجرية. أبوه محمّد وأمه فاطمة. أقنى الأنف أجلى الجبهة.

تحدّد موعدُ لقائهم بالمهدي، لينقلوا إليه رسـالة من المعتمد البريطاني في القاهرة، وطلب **شاهين** أن يرافقهم ليراه، ويملأ عينيه بوجهه الوضّاء، ويقرأ في ملامحه نور الإيمان والرضا وفتحًا على طريق الحق. وحين انتهى اللقاء، وخلدوا إلى فُرُشهم، تجرّع الكولونيل ما تبقى من زجاجته. قال:

- **المهدي سيغزو بلادكم يا شاهين!**

ظنّ **الشـاهين** أن الخمر ذهبت بعقله، فقال بنبرة سـاخرة، لا تخلو من رجاء:

- **إن شاء الله يغزو بلادكم أنتم، ونأخذ نساءكم جواري!**

أطلقـت الأجنبية ضحكة خليعة، نعس **الشـاهين** على أصدائها يحلم يوم يصير قائدًا في جيش المهـدي ويفتح بلاد الخواجات فتصير الأجنبية الملونة سبيّةً في غنائمه، وحين استيقظ فرك المَنِيّ المتيبس في إزاره واستحم في عين ماء يدعونها "**المُرّة**".

***

t.me/qurssan

تزوّدوا بالماء والمؤن وسقوا جمالهم وعلفوها، واستقبلوا الشمال ليدخلوا مصر جهة سيوة. لكن حربًا قبلية اندلعت هناك، فعادوا أدراجهم ناحية الشرق ليتخذوا نفس المسالك التي جلبتهم إلى الكُفرة، ويصير بيد **الشاهين** أن يعاين اكتشافه مرة أخرى قبل عودته إلى الغباري.

في طريق العودة كانوا متشابهين، لونهم واحد وملمسهم واحد وأعمارهم واحدة. أسناو ورويل وثالثهم الذي لم يعرف **الشاهين** كيف ينطق اسمه. الأجنبية الملونة لم تعد ملونة. الأجانب ذوو البرانيط وشاهين المصري والهجانة السودانية والجمال الجيزاوية. انطبعتْ سُمرة الشمس في الجباه واصطبغت الأصابع بصُفرة الرمل. نحلت الأعواد، ووهنت الأجساد، وبرزت عروق الأزناد، وغارت الأعين، وانطفأت شهوة الاكتشاف، ولم يعد مرأى جبل ملوّن أو ربوة في شكل طائر بالشيء المثير، بعدما تشبّعت الرئات بهواء المفازة، وصار الفوز الأعظم هو النجاة من بلايا الضواري والسبخات وزواحف التراب، وضربات البرد التي صارت تتدفق بين الحين والحين استعدادًا لموسم صقيع تنهزم فيه الشمس وتتوارى.

تجاوزت القافلة صحراء الرمال. قطعت المسافة إلى بقعة متسعة تتوسّطها ربوة عالية، تتناثر حولها بقايا فخاريات مهشمة. سيصير اسمها منذ تلك اللحظة "أبوبلاص"، بعد أن يقف **الشاهين** بين يدي الكولونيل "أسناو" يقسم عليه برأس جده أن يدوّن هذا الاسم في سجلاتهم كما لفظه "أبو بلاص". يدعو أن يحرق الله وجهه إن أبدلوه بأحد أسمائهم المضحكة.

t.me/qurssan

قصّ عليهم **الشـاهين** ما خبره من الشيخ **مهود** عن هذا الجبيل، فما إن بلغوا الربوةَ وناخت الجمال قريبًا من كسْر الفخاريات حتى اصطبغت ملامح **شاهين** بأمارات الذهول. أدرك أنه لم ينتبه إلى تلك المواعين والمزاير المحطمة حين مروا بها عند ذهابهم إلى ليبيا قبل نحو سبعين يومًا، ولم يسمع ما قالوا في محاولات تفسـير اكتشافهم. وعى **شاهين** أنه ذات الطريق الذي سلكه البرابرة وحكى عنه سيده **مهود**، وأن تلك هي آثار ما فعل. صاح:

- **صدقت يا سيد، آثار أياديكم فوق الشقاف!**

هي إحدى قصص الصحراء التي خلبت عقله وألقت به في هذه الأرجاء. يوم بليت قرى الداخلة بطوارق الغرب، يقطعون الصحراء مهللين مكبرين. يسرقون الحلال(*) والأموال، ويخطفون النساء والأطفال، ويعودون بالغنائم يُسبحون بحمد الله راضين بالرزق أسوده وأبيضه، مخلفين وراءهم عزاءات الثكالى وأنصاب القبور والشـواهد. كانت غاراتهم قدرَ الله النافذ وبلاءه واختباره للصابرين والمحتسـبين، بل كان الواحيون يدعون على ظالميهم وخصومهم بغارة من هؤلاء تمحو آثارهم وتقطع نسلهم.

تتبّعهم **مهود** وصاحبه **بوسنة**، بعد إحدى غاراتهم، وكان -إذ ذاك- عفيًّا لم تتكلّس مفاصله وتتغضن ملامحه، وكان بوسـنة يصغره بخمسـة عشر عامًا. أبصرا الفخاريات تحت سـفح جبيل، وأدركا أن المغيرين يتركونها في هذه البقعة ممتلئة بالمياه، محكمة الإغلاق، حتى إذا عادوا في غارة جديدة

(*) الحلال: الغنم والإبل في الثقافة الصحراوية.

t.me/qurssan

تزوّدوا بمياهها واستأنفوا مسيرهم إلى ربوعهم. هشّماها وأهرقا مياهها، فقتل العطش الأغوار، وابتلعتهم الرمال.

ضحك **شاهين** عاليًا حتى دمعت عيناه، وتفحّص بقايا الشقاف الأحمر، يبحث عن آثار أصابع يعرفها. يدعو الجبيل والصحراء المحيطة "أبو بلاص". *"سلام الله عليك يا سيدي **مهود**، بوركت ليوم الدين!"*. يدس شقافة بين حبات الأرجان في سيالته. تقول الأجنبية الملونة إنه لم يأخذ من حجر الزُّجاج في جبل السيلكا، ولا من آثار وادي صورة وكهف السباحين، بينما هم قضموا ظهور الجمال بما اقتطعوا من قطع الآجر وأدوات الظران، وتماثيل جيرية بيضاء خفيفة الوزن. مكتملة الأجزاء. لا تشبه نظيرتها في معابد الفراعين، ولو كان بمقدورهم نزع الرسومات عن الجدران لفعلوا. فماذا يستهويه في قطع فخارية ليست بالقديمة؟ وحين يقصّ حكاية الشيخ **مهود**، تغنيهم حكايته عن شهور من البحث والتقصي.

حاول أن يبلغوا موضع العين قبيل المغيب. لكن أحد الجمال أعاق المحاولة. كان يرغي بزبدٍ أصفر. يبرك خائرًا بين الحين والحين. خفّفوا حمولته، لكنه عاود البروك. تفحّصه **الشاهين**، باعد بين فكّيه وجذب هدبه فغشيته رائحة فمه الكريهة، ورأى تشقّقات مشافره وانتفاخات متقرّحة أسفل الهُدْب فعلم أن الجمل مصاب بـ"السِّلاج". علّةٌ لا شفاء منها سوى الكيّ بالنار تحت اللسان لنصف شهر كامل. عدوى انتقلت إليه بمخالطة إبل الغربيين في "الكفرة" وسينقل عدواه إلى بقية جمالهم لا محالة، فيغدون في هذا البحر المائج بلا سفين. اقترح الكولونيل أن يخترعوا اسمًا إنجليزيًا

t.me/qurssan

للمرض في تقاريرهم، وأن يطلقوا اسـم أحدهم عليه كاكتشاف، ورأت الأجنبية الملونة أن يتركوا الجمل وحده يبحث عن مأواه. قال **الشاهين**:

- ننحره رحمة بروحه الطيبة.

همّ الكولونيل يبقر بطنه بخنجر مغمود في رقبة حذائه. استمهله **شاهين** حتـى يُغشي أعين بقية الجمال ويتأخر عنها بالجمل المصاب وينيخه بعيدًا. أطبق فكّيه وربط عليهما بخطامه. أشار للكولونيل بموضع النحر الذي لن يصدر الجمل بعده رغاءً يسـتدر حنين رفاقه ويثبط قواهم. لم يطل خنجر الكولونيل المنحر، فقط أصاب مدلاته فنزت خيط دماء ثقيل. دفس **شاهين** رقبة الجمل تحت ركبته، وحرّر روحه بجذبة واحدة.

حفر له قبرًا يليق بدرويش تقي، ووارى جسده بالرمال، جاعلًا رأسه تجاه القبلة، ودعا له بالرحمة. سأله الكولونيل:

- أين سيذهب صديقك بعد موته يا شاهين.. الجنة أم النار؟

- لا هذا ولا ذاك يا خواجة، الحيوان يكون ترابًا، وأنت ستقول ساعتها يا ليتني كنتُ ترابًا مثله بوجهك هذا!

يضحك الكولونيل ويرتشف من قنينة الخمر، يناولها زملاءه حتى تصل إلى يد الأجنبية، تتناول رشفة طويلة يجزع منها **شاهين**. يتابع زجاجة الخمر تنتقل مـن يد إلى أخرى، وعندما تصل إلى حـوزة الكولونيل من جديد، يقول بلسان ثقيل:

t.me/qurssan

- أنا سأروح الجنة يا شاهين لأنني أعمل الخير.

- أنت كافر يا خواجة، كيف تروح الجنة وحنك جارورة القطران هذي لا ينشف، حين يفتح المهدي بلادكم سيسلخك؟

تمسك الأجنبية الملونة بكف يده وتقول:

- وأنا يا شاهين أين أذهب؟

حاصرته العيون القططية وقيّدت الكلمات على لسانه، أراد أن يقول لو شُفّعتُ لشفَعْتُ لكِ وأدخلتكِ جنتي! لكن الكولونيل عاجله يقطع أفكاره:

- يا ولد أنا أجول في البراري لأكتشف طرقًا جديدة ليحج الناس ويسافروا، وأنت تعطيني للمهدي؟

تحدث ثالثهم، للمرة الأولى يتشارك حديثم، يقول بنبرة ساخرة أثارت ارتياب **شاهين** وخوفه:

- نجول في البراري لنرسم طرقًا يسلكها جيش المملكة ويتقاتل الناس.

بدا أن أحدًا لم يسمع ما قال ولم يكترث، وبدا **الشاهين** لم يفهم. قال:

- تبحثون عن زرزورة، تريدون الكنز، هل أنا حمار مبردع تضحكون عليه؟

t.me/qurssan

- نعم أنت حمار يا شـاهين، لكني لا أعرف كلمة مبردع، أقسـم أنني سأدخل الجنة، وأصدقائي هؤلاء سيدخلون معي، وأنت يا حمار ستروح النار، وسآمر الحراس أن يأتوا بك لتشاهدني مع نساء الجنة، ماذا تسمونهن؟

يقول **شاهين** متحديًا:

- لـو دخلـتَ الجنـةَ سـيجلبون لـكَ ولدان مخلـدون لا حـور عيـن يا خواجة!

تنفجـر عاصفة الضحك من جديد، لكن سرعـان ما تكتنفهم موجة حزن عالية حين يشرعون في وداع التماثيل التي جلبوها من وادي صورة، ليعيدوا توزيع الحمول على إبلهم الحيّة المتبقية. تأخذ الأجنبية الملونة على **الشاهين** عهدًا أن يعود لأجل هذه التماثيل، وأن يحفظها كأبناءٍ بررة، حتى يجمعهما لقاء تسـترد فيه كنزها الكبير. التماثيل التي سينصبها **الشاهين** في منزلة الدومة تقاوم الغزاة والمغاوير، حتى تتهشـم رؤوسـها بعد مئة عام إثر انفجار الدانات في بطن الجرف!

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

3

عرجون بلح مدلّي..
ينزل في الواطي ويعلي

اشتعل حريقُ السقيفة، فسقطت عريشة البوص والجريد، وجناح الطائرة الذي وضعه سيدي المرحوم **شاهين** دعامة بين عروق السقيفة، ولم يسمح حفيدُه سيدي حرب للحاج **أرنولد** -مبعوث الحكومة والخواجات- بإنزاله لفحصه وتصويره وإرسال صوره إلى ربعِه هناك في بلاد الإنجليز، طالما ظلّ الخواجة على إنكاره لكرامة سيدي **مهود** صاحب المقام وفضله في إسقاط الطائرة وإحراق قائدها، حتى بعدما اهتدى ودخل الملّة وصام وصلى.

وَعَـدَه **حرب** حينها أن يمنحه الجناحَ هديـة إيمانه، لكنّه أرجأها حتى

t.me/qurssan

يحفظ الخواجة سورة البقرة كاملة، ثم جعلها سورة الكهف وياسين، وأخذ يخففها حتى صارت المعوذتين والفاتحة، كي تعينه على فروض الصلاة. وها هــو الجناح يتهاوى فيحدث دويًّا هائلًا صاخبًا ويصير في متناول يده قبل أن يفــي بما عليه، ويحفظ آيــة قرآنية واحدة يقابل بها وجه ربّه، ولن يفرّطَ الخواجــة بفرصته حــين يعود من وادي "بين الجبلين" في ســيّارة **مرتاض الشريف**. سينكبُّ على الجناح كجائع سقط على وليمة. وربما نسج حوله تاريخًــا وحكاية غير ما يعرفون، وصبّها في أذني ســيدي حرب، حين يمرّ الأخير بـ"خُصّتِه" غرب الدومة، وتوسوس له نفسه بمجالسته. سيجتلب ما يقوله الخواجة سعادة الشيخ حرب وشفقته، فيستدعي **عسلة**، الصبية ذات الثلاثة عشر عامًا، حين تعبر المنزلة بقطيع عنزاتها، كي يعيد الخواجة على مسامعها الحكاية. فتطيل **عسلة** النظر في عيني الرجل، تنطق البسملة والسبحنة، تستجلي فيهما الخبل.

لن يصدّق **حرب** ادعاءه، مثلما لم يصدق ما يقوله دومًا، بأن وادي الدوم كاملًا كان بحرًا حلوًا تحفه الغابات السامقة ذات الأحياء، وأن "الدومة" كانت "عميق" في قاع البحر المنبسط، مُبطّن بحجر الألباستر والجير الأبيض قبل أن يحيطه كثيب الرمل وجروف الصخر منذ ملايين السنين. بل يقول إن شعفتي الجبلين المتقابلين، جبل الخشب والجبل الأسود، كانتا جزيرتين تغمرهمــا المياه من كل حــدب، لكن أحدًا لا يصدقه! لا حرب ولا غيره. منْ يصدق أصلع خرفان مثل الخواجة أرنولد، لا تستبين لجلده لونًا صيفًا

t.me/qurssan

ولا شتاءً. ترك بلاده الخضراء ذات الشمس الباردة وجاء يسكن "دومة" نائية في قلب الصحراء، يبحث عن مقبض سيف، أو نصل رمح، أو سترة جندي من جيشٍ بائد حاصرته العواصف فانهزم قبل المعركة واندفن تحت سفيف الرمل منذ دهور، هكذا يقول أيضًا!

أنضجتِ الشمسُ بشرتَه فصارتْ ملفوحةً كثمرة دوم جاوزها أوانُ القطاف، يقضي نهارًا كاملًا يصعد جبل الخشب، ليبحث في قلايات النصارى العتيقة عن نقوش بائدة، ويعود منتشيًا كمن صدّ غارة أو فتح مملكةً. تعبره السنوات بانتظار أن يلتقطه بعضُ السيّارة في مرورهم إلى الجنوب، أو ترسل إليه الحكومة ما يعينه على رحلته إلى هناك. حيث الجبال الحمراء، والجِلف الكبير، وتلّ البلّور، وواحة زرزورة. الواحة التي عبثت بألبابهم ولم ترها أعينهم. في جنوب بعيد لم يعبره سوى سيدي المرحوم **شاهين**، وقليلين استرشدوا بالنجوم ومواقيت الريح. أغلبُهم مات وبليت عظامه ولم يحاول الأحياءُ منهم تكرار التجربة.

سقط جناح الطائرة عن عريشة السقيفة، بما يعتليه من جريد وخوص وصاج حديدي من بدن سيارة قديمة عثر عليها **شروفة الفريج** وجلبها إلى الدومة، قبل موته أو اختفائه. وصار بمقدور الخواجة -حين يعود من رحلته برفقة مرتاض الشريف أن يتفحّصه مليًّا، ويقرأ ما حُفر عليه من نقوش. ولربما شاهد ما خطّه **المدينُ** في حواف الجناح، منذ كان ابن سبع سنوات يتسلّق كتفي الشيخ **حرب** ليصعد فوقه، ممسكًا بمقود وهمي كأنه

t.me/qurssan

يوجّه طائرة تحلق فوق الدومة. ظلّ **المدين** على لعبته، حتى بعد أن شبّ وصار صيّادًا للضباع، وجفيرا يتقفّى الأثر.

كان **حرب** يعينه كي يتسلّق السقفية ويقرفص فوق جناح الطائرة، كحارس في برج مراقبة. يتطلع إلى البراح من فوق عريشتها، بينما يتحلّق أشياخ الدومة وشوابها حول "سماور" الشاي تحتها يتسامرون. كلما تساقطت عواميد العفار من بين تفاريج السقيفة تعالى صياحهم يزجرونه ليكفّ كي لا تصيب أحدهم بأذى.

لم يكف **المدين** عن هذه العادة، لا يعبأ بزجرهم مطمئنًا إلى أن الشيخ **حرب** سيدفع عنه ملامتهم. لم ينتهِ عن عادته إلا بعد زواجه **بشامة** ابنة المرحوم **شروفة**، فلم يعد يُرى فوق جناح الطائرة، أو جهة السقيفة والملقة الكبيرة، إلا فيما ندر. بل طالت غياباته في التباب والبراري، أو داخل سياج المسطاح الذي أورثه إياه **شروفة** قريبًا من منزلة الدومة. مسطاح وسيع يلاصق بيت **شروفة** شرق المنزلة. يحبس داخله **المدينُ** فرائسه من ضباع الجبال وذئابها. ويقضي فيه النهارات القاسية وحده يلوك همّه ووحشته، بعيدًا عن العيون المتربّصة والأسئلة الحائرة في عيون الدوايمة!

لا يفتح طاروقه إلا لاستقبال زوجته **شامة** حين تأتيه بطعامه، أو لاستقبال الشيخين **حرب** و**بكر الفريج** عم **شروفة**، حين يأتيانه يحمل أحدهما "الخلجة" ويفرغها من الحصى في ظلّ جدار، ويحفر تربيعة "سيجا"، يعدانها ليقضيا الساعات يتساجلان، حتى يأكل أحدهما "حصى" خصيمه.

t.me/qurssan

يجعلان المدين شــاهدًا بينهما وحكمًا، فيشــهد ويحكم. يحاول أن يمرّر همّه في انشــغالات سريعة. ينهمك في لعبتهما. يدرك أنهما ما قطعا المســافة من السقيفة الكبيرة إلى مسطاحه شرق المنزلة سوى لينازعاه وحدته، ويكسّرا أصفاد صمته، فلا أقل من محاولة الانسجام بينهما.

***

حين دوّت البازوكة واشــتعلت النيران في سقيفة الجامع ووقع جناح الطائرة. كان **المدينُ** راقدًا بين محابس الضباع. يتطلع إلى الفرائس المكبولة داخل أقفاصها بنظرة ساهمة وجبين متغضّن.

انتبه إلى الصوت، وسارع إلى داره. عبر حجرة أمّه **صبرنا**، وصعد إلى طرمة(*) الدار ليستطلع مصدر الضرب. لكنه لم يرَ شيئًا. هرول إلى الطابق السفلي، وأزاح مضرب الأرز ومطارح العجين من فوق حائط طيني قصير بين الطابونة وقاعة المزاير. هــدم الحائطَ، وأخرج من بين أحجاره اللبنية ربطةً كبيرة من كرانيف النخيل. وقبل خروجه سأل **صبرنا** أمّه أن تدعو له بالخير، وأوصى زوجته **شامة ابنة شروفة** أن تختبئ مع نساء الدومة، ومضى إلى سيدي **بكر الفريج**، في مراح الجمال.

لم يكن **بكر الفريج** قد فتح طاروق(**) مراحه لتخرج عبره الجِمال حين

(*) الطرمة: السطح.
(**) الطاروق: البوابة الكبيرة "كلمة محلية".

t.me/qurssan

سـمع الانفجار وأزيز الخراطيش يدوّي في بطن الجرف. بل استيقظ بغتةً كمن يخلع روحه من كابوس مخيف، يصيح "**الإنجليز!**"، ولمّا استعاد بأسه، وضع جلابيته، ودسّ كفَّه اليمنى في فتحة صدريتها، واتخذ هيئته. خرج إلى مسرب الجامع الكبير في طريقه إلى الجرف القبلي حيث يجتمع الشوّابُ بعيدًا عمّا يمكن أن يسقط فوق رؤوسهم. بخطوات واسعة وقامة رَّبْعَة مستقيمة لم تتقوس عظامها، أو تتآكل كبقية العواجيز الذين انكمشـت أجسادهم كـما تنكمش الجبال بنحت الريح والهواء عـبر تعاقب الفصول. فتهدلت عليهم الأردية. التقاه **المدين** قريبًا من الملقة فتبعه حتى باحة الجامع. حيث كان سيدي **حرب** و**الطيب** حفيد **تخلو**، يحاولان الهرب بعيدًا عن السقفية المشتعلة والمئذنة المنهارة. صاح عليه **حرب** حين أبصره:

- من هؤلاء الذين يضربوننا يالفريج؟

- ما رفعتَ أذانَ الفجر بعد يا حرب؟

- يا أخي من هؤلاء يضربون علينا؟

- اسـأل رفيقـك عفريـت الخـوذة التـي تخفيها تحـت باطـك، أنا ما أعرف!

قـال المديـن محـاولًا إجابة الشـيخ حرب، لـيرد معاندة سـيدي بكر الفريج:

- لعلهم التشادوة عادوا يا سيدي.

t.me/qurssan

- **لا.. ماهم حال عندنا، هؤلاء عصابة.**

- **نردهم ونقطع خبرهم.**

- **وما تحمل فوق ظهرك يا مدين؟**

- **هذا "جتاد" لأجل علف الإبل..**

ومضى **بكر الفريج والمدين** يسـبقان حرب والطيب إلى الجروف، بينما اتكأ **حرب** على ذراع الطيب. يقول:

- **جتاد للإبل؟ تفتكرونني خبلان يا طيب يا واد تخلو؟**

- **حشا يا سيدي..**

- **تفتكرونني ما أعرف ما تخبئون؟**

- **أنت تعرف الجدرة والبدرة يا شيخ!**

***

لم يكن **حرب** حين دوّت الدانة قد رفع أذانَ الفجر كما يرفعه منذ عقود. بصوتٍ حاد صاخب، ثم غليظ مكابر، ثم هادئ وقور، إلى أن صار متقطّعًا، واهنًا، مبتور النهايات، يُثير هجاء الشيخ **المأمون** وهزء سيدي **تخلو** وشفقة

t.me/qurssan

الفريج، تمامًا كحياة بني آدم على هذه الأرض حين تكتمل دورتها.

بالكاد سمع **حرب** الدويَّ فاستعاذ بالله من غارات الطوارق والبربر وأبناء الأفاعي، ولم يخطر بباله أن يكون التشادوة عاودوا مجيئهم كما فعلوا قبل ثلاث سنوات ليضربوا الدومة بالمدافع والخراطيش بطريق الخطأ.

خرج من محلِّ الوضوء مبهوتًا يغسل الماءُ ذنوبَه ويسفحُها إلى مجرى قناية تروّي غابة من الشجر، شجر لا أحد يذكر متى انزرع ومتى نما هكذا كعواميد العُفار في أمشير، لا يأكل من طرْحه أطفالُ الدومة حتى لا يركب أيًّا منهم شيطانٌ من شياطينه. أشجارٌ وارفة ممدودة الظل، تحت أغصانها يسري الهواء باردًا كسطح الجرانيت الأملس في صباحات الشتاء.

الذين أكلوا من ثمره، قالوا: حلوٌ شهيٌّ كتفاح الجنة، لكنهم سرعان ما استتابهم أشياخ الدومة مسلمها وكافرها، **المأمون والسنوسي وتخلو وجابر الوكيل وأبونا الشيخ بشندي ومتّى المسكين ومتاؤس**، وجاء لهم الشيخ **حرب** بأوراق "السَّغْبر" المغلية في الماء وزيت الفيّاش، يغسِل بطونهم ويُفرِغ محتواها حول جذوع الشجر ليردّوا ما أكلوه إلى منبعه.

يوسف ابن إبراهيم الجريجي، وطالِب حفيد المرحوم صالح أخي **المأمون**، وعبد الرسول حفيد الشيخ عبد رب النبي، وآخرون، أفرغوا مَعْيهم وغسلوا بطونهم، ورغم ذلك عزا الدوايمة كل فعل طائش أتاه أحدهم إلى جوفه الملوث.

t.me/qurssan

حتى حين صار الشبّانُ يتطلّعون إلى الرحيل لمعمور الواحات ومديريات الصعيد، كانوا يرون هذه الرغبة مسّا خبيثًا جرّاء أكلهم من هذا الشجر، بل إنهم سقوا **الطيب**، قبل أن يبلغ عمره السابعة، شربةَ "السغْبر" فكاد يقيء أحشاءه، رغم بكائه وقسمه برأس جده **تخلو** أنه لم يذق من الثمر شيئًا. لكنهم لم يروا فيما فعله إلا نزغًا شيطانيًّا أفسد على الشوّاب صلاتهم، فقد دخل الطيب في صلاة عشاء حاشدة يلعب بينهم، يتسلل خلف الصفّ الأخير حيث يقف الأكبر سنًّا والأوهن عظمًا، وخلفهم مقاعد الخوص التي يستريحون فوقها في الركوع والسجود ويقفون عند التلاوة. تسلل خلف ظهورهم وباعد بين المقاعد ومؤخراتهم، فإذا انتهت قراءة الإمام وكبر تكبيرة الركوع، وشرعوا في الجلوس، سقطوا جميعًا فوق ظهورهم، وساد الهرج بين المصلين، وتعالى لعانهم وسبابهم للطيب وأبيه السيد وجده **تخلو**.

لم يستطع أي من المصلين الآخرين كتمان قهقهاتهم، فاستسلموا لنوبة هزر شيطانية أفسدت عليهم صلاة الجماعة.

ظلّت الواقعة حاضرة في أذهان المفلح والمأمون وعبد رب النبي وغيرهم من أشياخ الدومة الذين حرصوا تاليًا على تلّمس مقاعدهم عند الوقوف حين يتناهى إلى أسماعهم صوت صغير يتخطّى عتبة المسجد. لم تلقَ فكرة جزّ أشجار المسجد التي اقترحها **بكر الفريج** رواجًا كافيًا بينهم، بل أفزعت الشيخ **المأمون**، فقد كان قتلُ شجرة مثمرة أعظم إثمًا لديه من قتل نفس حيّة

t.me/qurssan

بغير حق، حتى وإن كان الشـجر شيطانيًّا زرعه إبليس ورواه بالماء المشبّع بذنوب المتوضئين ليغوي آكليه ويَحِل رَهطُه في أرواحهم بلا عناء. ورغم الخِلّة المتينة بين **بكر الفريج** والشيخ **حرب**، لم يعاضد الأخير رأيه ذاك بقطع الشجر، بل اعتبرها تأليبًا للأبالسة الساكنين يؤدون أعمالهم في سلام.

لم تمُت جذور الشجر بعدما ضُربت صهاريج الجاز التي نقلوها إلى باحة المسجد إبان حرب الطليان، وتسرّب وقودها إلى ترابته وارتوى من سمومه، بل حرّر أوراقه الذابلة، وعاود طرح ثمره بدأب وإصرار. تغادر المياه أزناد المتوضئين وقد حُمِّلَتْ بسيئات النفوس وخفايا السرائر. تتسرّبُ من مسام الرمل إلى منابت الشجر، تروّي الجذور وتصّاعد إلى جذوع ريانة وسيقان ممتلئة محمّلة بثمرٍ حرام، لا يطعمه سوى من لا يعرفون أصله.

هكذا قال الشيخ **مهود** -صاحب المقام- حين أتى في منام الشيخ **تخلو**، وأجاز أن تحمله "مَزْغوفات" الدومة في زياراتهن إلى الجبانة، حين يصعدن بالملابس السوداء وأطعِمةِ الرحمة، إلى ذويهن المقبورين، يدعين لهم بالمغفرة وعلى قاتليهم بالحسرة والخسران المبين. أو يحملون الثمر إلى عابري السبيل على طرق السفر للبيع أو المقايضة أو هبةً لوجه الله بلا مقابل.

أوكل **الشـاهين** هذه المهمة إلى **شروفة الفريج** ابـن أخي بكر الفريج، ليشـبع في نفسه توقها إلى الارتحال والجوس في البراري، وأرفق معه فردًا في كل سـفرة ليتـشّرب مهاراته في الدلالة والتقفّـي والتجارة، بل ويحث **شروفة** ألا يجنح إلى بعيد!

t.me/qurssan

حرب أكثـر من رافق **شروفة الفريج**. كان شـابًا ضئيلًا فاتح البشرة. دقيق الملامح. لم تكن لمعة شـعره قد انطفأت، وتآكلت أسنانه، وابيضت شعيرات حاجبيه، وأهدابه، مثلما صارت في شيبته. خرج يحمل سلال الثمر، وقراب المياه المنكّهة، مرافقًا لشروفة في سفراته إلى النواصي البعيدة، التي لم يكف عن خوضها منذ جاء الدومة وقرّ في بيت عمه **بكر الفريج**. لكن **حرب** لم يتذوق من الثمر الشـيطاني، ولم يصدّق أقاويل **شروفة** الذي عَدَّ اعتقادَهـم ذاك خراريف عقول وضحكًا على الذقون، ولم يتردّد في التهام ما يشتهي من ذاك أو هذا.

وحين أنجبت **صبرنا** ولدها **المدين**، أخذه **شروفة** برفقته صاحبًا صغيرًا يتعلّم على يديه الصيد واقتفـاء الآثار. أطعمه من الثمر، فأكل واهتضم، وحين أكلت الضباع **شروفة**، وصعد **المدين** وحده إلى مواكر الجبال، صبيا لم يتم العاشرة، ليصيد الضبعة التي أكلته بيدين عاريتين، وعاد يحملها مكبولة فوق كتفيه، عزا الدوايمة هذه المقدرة إلى ما أكل من ثمر إبليس.

***

بلغ **المدين وبكر الفريج** الجروف القبلية، فاستقبل الشيخ **مفلح** الأخير بأسارير منفرجة وسعادة غامرة يقول:

- تَرى كيف أفسّرُ المنامات يالفريج؟

t.me/qurssan

يصيح بكر الفريج ساخرا:

- **اشهدوا يا أهل الله، مفلح ابن سيدي مهود فسّر مناما وتحقق!**

احتالتْ ضحكة الشيخ **مفلح** غضبًا مكظومًا، وأقسم أنها ليست المرة الأولى التي يفسّر فيها منامات تتحقق، وليتذكروا ما قاله سيدي المرحوم **شاهين** يوم فسّر له منامًا رأى فيه أسراب الطاووس الصحراوي تحطّ على ضفاف البحيرة التي تنصرف فيها مياه الري الزراعي. يومها قال **للشاهين** أن حربًا ستقع وسينال الدومة منها قذائف تطلقها طائرات الجيش، ولم يكتمل أسبوع واحد حتى ضرب الإنجليز قافلة وقود طليانية على درب "أبومنقار" أيام الحرب العظمى الثانية، بعث الطليان على إثرها طائرات "الإستوكا" تضرب الحي والجُماد في وادي الدوم، فشهد **الشاهين** لمفلح بالاطلاع والبصيرة وأوصى الدوايمة أن يقصدوه لتفسير مناماتهم.

ذكّره **بكر الفريج** بيوم فسّر للشاهين حلمًا يرى فيه أنه يغرق في عين باجة، قائلًا أنه سيعيش طويلًا حتى يضعَ بذرة دوم وتصير شجرة طرّاحة، فمات **الشاهين** قبل أن يغيب هلال الشهر.

ورغم ذلك لم يكُف **بكرُ الفريج** نفسه عن البوح بمناماته إلى الشيخ **مفلح**، مثلما اعتاد الجميع ممّن أرّقتهم أحلامهم وقضّت مضاجعهم. يلجأون إليه دون أن يفلح مرة واحدة في تفسير أي منها تفسيرًا ناجعًا تبرهن عليه الأيام وتشهد ببصيرة صاحبه.

t.me/qurssan

فلم تمتلئ دار **جود** ابنة السوايسة، زوجة عتيق، بالعيال والصبايا، بعد أن حلمت بقطيع حملان بيضاء يشرب من كفيها.

ولا اغتنى **مرتاض الشريف** صاحب سيارة الفورد، بعدما حلم بأكياس الفضّة في مزاير الماء يغرف منها ويشرب.

ولا عاد المرحوم **شروفة الفريج** حيًّا يرزق، بعدما حلمتْ **جلّا**، زوجته، بإنجاب ولدٍ بشارب ولحية يكسو الشعرُ ذراعيه ويخرج من أردانه. وما زالت **جلا** تحشو كل نهارين زوج حمام بالفريكة المتبولة وتطجنهما مُحمّرتين من أجله يومًا ويوم. تنتظره كل صباح لدى عتبتها ليتقوّت بهما حين يعود. ثم تُرسلُ بهما في اليوم التالي إلى **المدين** زوج ابنتها قبل أن يتخمّما(*)، فيأكل إحداهما إكرامًا لها ولاسم زوجها ويترك الثانية لزوجته "**شامة**" ابنة **جلا وشروفة**. أو تخرج بهما **جلا** إلى جبانة الجبل، حين تجد مَن ترافقها مِن مزغوفات الدومة، فيَطْعَمهما جائعٌ أو عابر سبيل، أو ترسل بهما في صينية "رضوة" إلى مقام الشيخ **مهود** ليأكلهما جنّيٌ سلّطته عليها إحداهن ليقطع ما بينها وبين زوجها الغائب موتًا أو تيهًا أو هجرانًا. لعلّها **صبرنا** أم المدين ذاتها. ربما هي مَن فعلتْ لتربط على قلبِ **شروفة** بعمل مخبوء في بطن جبل، كي لا يرى سواها ولا يسمع، ويظلّ قلبه متقدًا بحبها وبحب ولدها **المدين** حتى بعد أن تزوّجها وأنجبت له ابنته **شامة**. حتى إذا آيس من هجر **صبرنا** وتمنُّعها، هجّ في أرض الله الواسعة، لكنه لم يمُت كما يقولون

(*) يتخمم: يفسد.

t.me/qurssan

ولم تأكله الضباع. أي ضباع تأكل **شروفة** سيد الرجال! سيعود، لابد يعود كما قال **المفلح** بصير المنامات. ابن الشيخ **مهود**. العارف. الشهيد. الطاهر. صاحب المقام.

هكذا تقول **جلا** لصاحبتها **جود** زوجة عتيق، حين تذهب إلى برجايتها لتجلب الحمام وتطجن غدوة **شروفة**. تخبرها أن لا أحد يعرف **صبرنا** أم المدين كما تعرفها هي. استطاعت أن تفتن الناس وتخدعهم بمعسول لسانها، وجمال طلتها، وطراوة صوتها. لكنها لن تنخدع بسمتها الطيب كما انخدعوا. تمصمص **جود** شفاهها، وتدعو لها براحة البال ونيل المراد، وأن يهدي الله الجميع.

ذكّر الفريجُ الشيخَ **مفلح** بإخفاقاته في تفسير أحلام هؤلاء. لكنه تحاشى أن يأتي على ذكر أحلامه التي بصرها سيدي **مفلح** كي لا ينبش تراب مدفنها فتفوح روائحها المستكينة، وتنهض أوجاعه من مراقدها، بالأخص ذلك الحلم الذي رأى فيه ابنَ أخيه **شروفة** جمّالًا يسوق قطيعًا عارمًا في أرض معشوشبة بـ"شوكة الحنش". دامي القدمين. تتفلّت منه الجمال في كل اتجاه فلا يستطيع كبحها، وكلما صاح عليها انحبس صوته. فسّر مفلح الحلم على خلاف ما فسّر به حلم **جلا**. قال بعيون دامعة حزينة: "**والله متّ يا شروفة حتى شرب الرمل لحمك!**" فصرخ الفريج في وجهه:

- **كيف تبصر عودته لجلّا وتبصر لي موته؟**

***

t.me/qurssan

قطع صوتُ ارتطام المآذن حديثهم، وقد ظنّ المفلح أنه ردّ قول الفريج وأعاد اليقينَ في نفوس مَن تشكّكوا في قدرته على تأويل الأحلام وتفسيرها. التفتوا جميعًا ناحية صوت الارتطام يدعون الله بالستر وكشف الغُمّة. ألقى المدينُ "ربطة" الكرانيف الكبيرة عن كتفيه تحت قدمي بكر الفريج، وبقي واقفًا إلى جوار الطيب. صاح الشيخ **عبد رب النبي**:

- **وقعت المنارة يا إخواننا!**

يلتفت **عبد رب النبي** يمينًا ويسارًا يتطلع في وجوههم واحدًا واحدًا، فلا يرى اكتراثًا كأنّهم ما سمعوا. يسأل الواقف إلى يمينه:

- **لما لا تُصدق يا مَدْين يا بني؟**

تنفلت ابتسامةُ المدين رغمًا عنه، يقول مستسلمًا:

- **نعم يا سيدي.. وقعت المنارة واحترقت السقيفة.**

يعرف المدينُ -كما يعرف الجميع- عادة الشيخ **عبد رب النبي** التي لم يحاول الفكاك منها. دائمًا ما يعيد تكرار عبارة ذكرها أحدهم أو ينقل حدثًا يدور أمام أعينهم دون أن يضيف جديدًا أو يعطي تفسيرًا. منتظرًا أن يبدي أحدهم اهتمامًا بما يقول، وحين لا ينال مراده يسأل أقربهم إليه:

- *لِمَ لا تصدقني يا فلان؟* فإذا لم يتلقَ إجابته، يعيد ما ذكره مشفوعًا بقسم غليظ إنه لصادق. كأنّ ما يقوله غيب أو استنتاج أو نبأ جديد. لا حقيقة تقع أمام أعينهم يراها الجميع.

t.me/qurssan

حفظوه وصار لكل منهم طريقته في الإجابة. حين يسأل **المأمون**:

- **لما لا تصدقني يا شيخ مأمون؟** يجيبه نافد الصبر:

- **أنا ما كذّبتك يا بهيم!** فإذا سدّد سؤاله إلى **تخلو** أجابه متحديًا:

- **يا أخي أنا ابن كلب لا أصدق أحدًا!**

وتصير إجابة سيدي **تخلو** حافزًا للشيخ **جابر الوكيل** لكي يبدي اهتمامًا زائفًا بما يقوله **عبد رب النبي**، نكاية في سيدي **تخلو**، وبرهانًا على القطيعة المتّقدة بينهما منذ سنين لم يفلح أحد في إخمادها. القطيعة التي نشبت بعدما نجح أبناء سيدي **تخلو** في إزاحة أبناء **جابر الوكيل** عن خدمة مقام سيدي الشيخ **مهود** فقطع عنهم النذور والهبات.

أمّا **بكر الفريج** فيتصنّع الدهشة حين يوجّه **عبد رب النبي** دفّة الحديث باتجاهه، ويجيب ساخرًا:

- **لا والله... يا شيخ قل كلامًا آخر!**

وحده الشيخ **مفلح** ابن الشيخ **مهود** -بَصيرُ المنامات ومفسّر الرؤى- يبدي دهشًا صادقًا لعبد رب النبي. يعطيه حواسه، وينصت إليه مرهفًا، وينحو بالحديث في مسارب شتى. بعيدًا عما أثاره **عبد رب النبي** في البداية.

***

t.me/qurssan

دوّت الدانات فوق سماوة الدومة، فارتجت حوائط الدور، وسقطت رفوف الدكاكين، وانهارت المشايل واصطكت الأبواب والنوافذ، وفزع النائمون من مراقدهم.

"الطنابرة"(*) دون غيرهم، هم أوّل من فزعوا؛ شعروا بالفرقعة بعدما تأرجحت بيوتهم في ضرب(**) "السنيورة" كأفرع شجر التوت يهزُّها الصبيةُ لإسقاط ثمارها.

أسرع رجال الضرب بإغلاق طواريق المسارب والحارات بعروق الخشب والحديد. تسلّل بعض الشبان إلى الملقة، للانضمام إلى بقية شبان الدومة، ولجأ الأطفال والنساء إلى الاحتماء بمخابئ تحت البيوت القديمة. بيوت ذات طابقين وضع لبنتها السيد **حسن طنبور** أيام الحرب العظمى الأولى، وما زالت قائمةً صامدة يتوارثها الطنابرة نسلًا بعد نسل. كلما تصدّع أحد جدرانها أو تداعت أسيجتها، أعادوا ترميمها ودعموا زواياها بعواميد الطوب والرمل الأحمر.

لم يفكّر أي من الطنابرة في بناء بيت جديد خارج الضرب، حين تكدست البيوت فضاقت على ساكنيها، بل لجئوا إلى تدعيم الأسقف وتعضيد الجدران وبناء طوابق تالية وإعدادها لسكن أبنائهم المقبلين على الزواج، كي يظلّ

(*) الطنابرة: نسبة إلى عائلة السيد حسن طنبور.
(**) الضرب: مجموعة من البيوت المتلاصقة تسكنها عائلة كبيرة أو عشيرة، وكان لكل ضرب بوابة خاصة.

t.me/qurssan

الضربُ على ما تركه السيد **حسن طنبور**، ويظل نسل الطنابرة في محلّه لا يضطر أحدهم إلى المغادرة. حتى النساء القليلات اللواتي تزوّجن من عائلات أخرى من أصول مختلفة من خارج الطنابرة، كن يشترطن على أزواجهن السُكنى في بيوت الضرب.

وحين فتح **إبراهيم الجريجي**، صهر السيد حسن طنبور، دكان الحلاقة، ابتناه في حاصل الحبوب في منزل ابنته **السنيورة** زوجة السيد حسن، ليكون قريبًا من الملقة الكبيرة التي تلتئم مداخل بقية الضروب حولها، وحتى لا يضطر أصحاب اللحى والرؤوس المشعرة للخوض في مسارب ضرب السنيورة الضيقة حين يقصدون دكانه.

توالت أيام الدومة، وتبدّلت كثير من معالمها، وبقي ضرب السنيورة على سيرته الأولى، صفّان متقابلان من البيوت العالية، تتخللها مسارب ضيقة، يتاخمه ضرب المهداوية من الجهة القبلية، وحدائق البرتقال والزيتون -التي حل محلها ضرب السوايسة- من الجهة البحرية، يتصل بملقة الدومة الكبيرة بطاروق من السنط مشغول بالزخارف والحليات الخشبية، لا يمتاز عن بقية الضروب سوى بطابقه الثاني ونوافذه المزدانة بالزخارف الخشبية والحليات المشغولة، جلبها الطنابرة في سنوات سُكناهم الأولى حين كانوا موسورين يطعمون خيولهم قوالب السُّكّر وثمار الجزر، وحتى بعدما ضاق حالهم وتطبّعوا بطبائع الدوايمة في معايشهم، وناسبوا من عائلات أخرى غير "الطنابرة"، بَقِيَ ضربُهم على تفرّده مزدانًا بالقناديل والزخارف، مساربه

t.me/qurssan

مُبلّطة بالحجر وحوائطه مُليّسة بالرمل الأحمر، وأبواب منازله تحمل أسماء أصحابها محفورة في عوارض الخشب بخطّ الثلث. جعل له المرحوم **حسن طنبور** سقيفة كبيرة تظلّل الباحة الأمامية من بيته وبيت حميه إبراهيم الجريجي. زوّدها بشلتات وثيرة، وأكلمة مزركشة تتوسّطها أطباق البذر المملح واللوز السوداني والمحمصات، ومراوح من الريش، وساعة كبيرة ذات دقات موسيقية رنانة معلّقة على الجدار الرئيسي، ساعة ببندول معدني جلبها السيد حسن طنبور في قدومه إلى الدومة برفقة أخويه **نعيم طنبور** و**جلال طنبور** وحميه **إبراهيم الجريجي** وزوجاتهم وأبنائهم، ساعة جعلت للدومة توقيتًا يسبق توقيت عموم البلاد بساعتين كاملتين، أصدرت أول دقّاتها في أرجاء الدومة تشير إلى الثانية ظهرًا، بينما لم تكن الشمس قد تعامدت فوق رؤوسهم، وظل الدوايمة على توقيتاتها تلك، حتى جاء ضبّاط تبّة الإنجليز بساعات ذات توقيتات أكثر انضباطًا، فأعاد السيد حسن طنبور ضبط ساعته وفقًا لها، ومع ذلك -وعلى الرغم ممّا بذله السيد حسن طنبور وأخوه نعيم ليجعلا سقيفتهم مجذبًا لأشياخ الدومة ورجالها بدلًا من السقيفة الكبيرة لدى بيت **الشاهين**- ظلّت الأخيرة مقصد الدوايمة، والدوحة التي يهفو إلى فيئها الجميع، بل بقي السيد طنبور نفسه أول الحاضرين حين كان يصله استدعاء **الشاهين** لجلساتها.

لكن السقيفة الكبيرة سقطت إثر انفجار الدانة وخلّفتْ دويًّا مرعبًا،

t.me/qurssan

وسقطت في إثرها مآذن الجامع، ولم يزعم أحدٌ هذه المرة أن سقوطها كان بسبب تلاصق جدران البيوت والضروب التي يتداعى بعضها لبعض بالتصدع والانهيار، فالجامع وبيت **الشاهين** والسقفية قائمة وحدها عند مجراة عين "باجة" تستظل بالسنط ونخيل الدوم وشجر الأكاشيا، ولا تجاور بيتًا أو ضربًا. هناك شيّدَ سيدي **شاهين** الجامع قبل تسعين عامًا ليبرّ بقسم **المهّود**، حين حلف الأخير -قبل أن ينتقل إلى البرزخ ويصير صاحب مقام وعمامة- أن يهجرهم فيطيح وحده في هذه البراري لا يعثرون له على نسيرة إن لم يبنِ **شاهين** المسجد قريبًا من المجراة وعين الماء، ليتمكن من صلاة فروضه دون أن يضطر إلى مغادرة مكانه المفضل وسط أحراج النخيل، فصار المسجدُ يحتمي بالجرف القبلي بعيدًا عن بقية الدور التي تعطيه صدورها بانشراح. الجرف الذي غافل **الشاهين** قافلة الأجانب وصعده وحده من جهة الغرد الرملي ليكتشف في أسفله عين مياه فياضة ومجراة متمعّجة وأحراج شجر وارفة، فبنى حولها الدومة من الرمل والحجر وعرّشها بجريد النخيل وفروع السنط.

***

t.me/qurssan

4

طارت "شحيمة" يَمّتي وحطت على شجرة

دقّ حـرّاس القافلة أوتادَ خيمة وزندوا النار في أعواد الحطب وتناول الجميع الشاي الأخضر وأصابع المنون الجافة المطبوخة بالسمن والطحين. وكمش **الشـاهين** رداءه بين فخذيه، وانتحى بعيدًا خلف ناصبة صخرية. بـدا أنه ذهب ليبول بعيدًا عن أعينهم. لكنه تسـلّل إلى الغرد الرملي، وقد زحف بفعل الريح على ظهر الجرف.

اجتاز الجرف، وصار قريبًا من موضع العين. لكنه لم يرَ أثرًا لقطرة ماء أو ظلًّا لطائر. كان شجر الأرجان يابسًا لا حياة فيه، بينما نخيل الدوم على

t.me/qurssan

حاله منذ رآه قبل سبعين يومًا، يانعًا أخضر ذا ثمر ريّان. تحسّس **الشاهين** موضـع العين، كانت غائرة جافة ذات بقع بيضـاء مالحة. ركبه الغمُّ، ولم يسعفه ما خبره من أحوال الصحراء في تفسير نضوبها. أكانت بِرْكةً حفرها مخرٌّ مياه لغيوم أمطرت في هذا المكان وحده دون غيره، أم عينًا مسـحورة انبثقت تحت قدميه فهيأت له وهمًا وخيالًا؟ لكن العين المسحورة لا تترك أثرًا، وزخات المطر لا تخص بقعة ضيقة دون سواها، والسماء لم تعد جوّادة منذ سنين حتى تملأ قناية كهذه بمياه المطر!

جمع بذورًا يابسة أسقطتها فروعُ الأرجان. سار في منخفض العين عكس اتجاه الجرف. كانت الأرض منبسطة في مواضع ومتدرجة في مواضع أخرى تحيطها جروف صخرية. قوس هائل من مراتب الصخر. تفتح إحدى جهاتها على صحراء سَـتَرَ الظلام عن عينه وحشـتها وتبايُنَ صخرها وتكوينات رملهـا حين رآها أول مرة، فلم يرها كما يراها الآن. عاد إلى حيث حطّت القافلةُ، فشاهد أحد عساكر الهجانة في نوبة حراسته يغط في نومه، فلكزه بطرف عصاه صائحًا:

- **سيأكلك ضبع قبل أن تفتح مُقَلك يا متعوس!**

قضـوا ثلاثة أيام على درب الجمال، حتى صارت تنيدة على بعدة نهار. حَلَقَ أحد الحراس رؤوس الرجال وشـذّب شـواربهم وذقونهم، غسلوا

t.me/qurssan

وجوههم بقربتي ماء كاملتين، مشـطوا رؤوسـهم، وأفرغوا جيوبهم من ذرات الرمال، وارتدوا نعالًا جديدة. أبدلوا ملابسهم، وتعطّروا. حاول **شـاهين** أن يُصدر شخرًا كشخر الحمار، أو كشخر أولئك الوافدين الجدد إلى واحة تنيدة من بحري مصر وسـواحلها. جميعهم يشخرون، والشيخ **مهود** يقول إن شـخرة واحدة تنجّس الفم أربعين يومًا، ولا بد لشاخرها من اغتسال واستشهاد. والشاهين لا يريد أن يموت في هذه المفازة نجسًا. لكن هؤلاء الخواجات يدفعون العاقل إلى الشخر. مخاليل بحق. يتعطرون لصحراء قاحلة لا إناث فيها ولا حيّ، يتحسّسون بعضهم بعضًا، ويزهدون امرأة ملونة لها عيون القطط. لم يضع رأسه تتوسّد صُرْمَته لينام، إلا ركبها في خياله وأنجب منها عيالًا وصبايا.

بلغت القافلة الصغيرة وجهتها. وكان بانتظارها الأكابرُ، حاكم الواحة التركي وجابي الضرائب ومندوب مديرية الري والعمدة المرجوشي وآخرون. وحين كان الحراسُ يفرغون الأقراز والأخراج والزكائب، ويرحب الجميع بالجميع. أقبلت الأجنبية نحو **شـاهين**، تشُـبُّ على مشطي قدميها لتطبع فوق صدغه قبلة حارة، وتقول: **شـكرًا شاهين!** ليضحك الأكابر ويثنون عليه، ويمنحه ناظر الإدارة مكافأته ويسأله ممازحًا:

- كم تساوي القبلة يا شاهين لنحسمها من ريالاتك؟

***

t.me/qurssan

عاد إلى تبطينته المبنية بصخور مسطّحة تعلوها صخور أصغر فأصغر، وتظللها عريشة من الجريد وأعواد الغاب، ليجد الشيخ **مهود** والشيخ **بوسنة** يجلسان متقابلين وبينهما تربيعة السيجا. تحلِب ستي **باجة** ضرع عنزة عجفاء. ترقبها كلبةٌ حُبلى لم يعلم أيٌّ منهم كيف عثرت عليهم في هذه القفار.

أدرك الشيخ **مهود** حضوره، فاتكأ على جدار المصطبة غير المستوي وقطب حاجبيه في ضيق متعجلًا إياه، كمن ينتظر ضيفًا تأخّر عن غداء، لا عزيز غاب عشرة أسابيع في مجاهل الصحراء، تظلله سحابةُ الموت، نائمًا ويقظان. أناخ **شاهين** جمله، وهو يرقب الكلبة التي استقبلته بنباح قصير ثم استكانت إلى جوار **مهّود** في سلام، قال:

- مباركين!

أجابت ستي **باجة**:

- صحونا رأيناها تلعق الماجور!

خلع نعليه وعلّق عمامته ورقد إلى جوارهما يتطلع إلى أحجار السيجا، صاح الشيخ **مهود** فجأة:

- قلت لك هذي المصطبة عالية، لا أطول أقعد عليها!

أفرغ **شاهين** سيالته، وألقى الشقافة في حجره، قال:

t.me/qurssan

- أحضرت لكما هدية يا سيدي! تفتكران ذي الفخارة؟

يحدّق الشيخ **مهود**. يتفحص الشقافة. يلقي بها في حجر بوسنة، ويتكئ على عكازته لينهض بخفة ويُسر. ينظر إلى البراح ويزعق بصوت يكابد الوهن:

- سيدكم مهود ذبح الأغوار يا حلب! رقابكم لسيدكم مهود يا مبعوصين.

يضحك **شاهين**. يقهقه. يرفس بقدميه كالجحش المطلوق. ينادي:

- كيف ذبحتهم يا سيد؟ أنت كسرت البلاليص، وما كنت وحدك، كان معك سيدي بوسنة.

يجيب **بوسنة**:

- نعم أنا كنت مع الشيخ مهود.

- لا تكن متلهم بعبوص يا شاهين، وربي أهملك.

- انت حبيبي يا مهود، تهمّل حبيبك؟

- وأسلاف أسلافي. كيف عترت عليها.

- وأسميتُ الصحراء هناك "أبوبلاص".

***

t.me/qurssan

خرج **الشاهين** بقطيعه إلى مواطن الكلأ. يرعى في مخامر التلال وحواشي الوديان. يجالس الرعاة وصائدي الحيوانات. يشيع اقتراب مجيء السنوسي مهدي آخر الزمان عبر صحراء الغرب، ويحلف إنه رآه وتحدّث إليه، وإنه قريبًا سيعلن مهديته في صحن الكعبة. انتظره وتتبع أخباره حتى انقضى عامان دون أنباء جديدة. أخذ يسأل من يعرف فيه تجربةً سابقة أو خبرةً معتبرة، كيف يقطع بحلاله أيامًا في قلب الرمال دون أن يهلك القطيع، فلا تجيبه غير ضحكات ساخرة وعبارات محذّرة ولمزات يتناقلونها عن قرب هلاكه وزوال سيرته، وحين يعود من رعْيَته ذات يوم، يرى جملًا نائخًا قارًّا إلى جوار جمله عند زور التبطينة، وزكائب منتفخة فوق المصطبة وأسفلها. يظنّ أن ضيوفًا حَلُّوا لدى الشيخ **مهود** ولم ينالوا الضيافة بعد، فالجمل راقد في سكينة، والجمال لا تسكن إلا إن استراحت للمقر واعتادته. انتخب شاةً وتهيّأ لذبحها صائحًا بتحية سلام توقظ الرمّم في الجبانات. خرجوا على إثرها. قال مهود:

– جاء بها مأمور الدولايب بذاته. قال تركها أغراب باسمك، أغراب يعرفونك. زكائب مكبوسة بخيرات الله!

– هؤلاء الخواجات يا سيدي.

– قلت لك ذولي الكفار أولاد حلال.

– أنت قلت أولاد حلال؟ والله أنت تلعنهم بكرةً وأصيلًا!

t.me/qurssan

- لا، أنا ألعن مَنْ أخذونا نحارب إخواننا!

يردد سيدي بوسنة:

- أي والله، شيخ مهود يلعنهم.

باجة:

- فضّ الزكائب نشوف ما فيها!

يفتحها **شاهين**. يقدّر ما فيها من طحين وجبن وزيت وتمر وسكر وملح وكمون. يدسُّ سبابته في كيسة الكمون ويلعقها متلمظًا. يقول:

- سبحان من خلق الكمّون يا ستي، ما ذُقتموه فوق سفعة الجبن القريش، أهرس لكم قطعة تذوقونها؟

يقول مهود:

- وربي هذا تموين حُوْل كامل.

- حين نرحل ستكفينا ثلاث سنوات يا سيدي!

- لأين نرحل يا شاهين؟

***

يجمع تقاوي الزروع وفسائل الشجر، ويكمّم جذورها. يحتطب من

t.me/qurssan

النبت الجاف، ويحزم الوقش ويعد الخيش والحصير وشماريخ البلح. يملأ بدايد حماريــن بقشر الفول والعلف. يجهّز عِدَدًا للحَفْر والكسْر، "تورية" حديد و"خشــانة" و"محش" و"شــاقوف" مُدَبّب يكسِر الحجر ويشــذب حوافه. يتهيّأ لسفر طويل لم يقطع مثله رحّال ولا دليل، ولا يفصح لأحد عن وجهته التي لم يكن متيقنًا من وجودها. قال:

- **نذهب إلى "تل الشياطين"**.

قيل: "*سيقطع **شاهين** وحده الفلاة يبحث عن*" *زرزورة*" بتورية مكسورة *اليد، ويأخذ ماله على ظهر جمله كي لا يرثه أحد*".

جاء الشيخ **المرجوشي** بطوله وعرضه، هذه المرة، بعد أن قطع ثُلث النهار على ظهر حصانه من تنيدة إلى الغباري، كي يثني **مهود** عن صحبة **شاهين**. يكــرّر ما قاله من قبل، لكي يمــوت بينهم ميتة هينة حلوة، ويحظى بكفن نظيف ودفنة كريمــة تحت تراب مُندًّى تحوطه الزروع. نصحه ألا ينصاع لطيش **شــاهين** وخبله، هو عيّل مندوه، بطولــه، لا صبي ينتظر عودته أو زوجة تتعلق بذيله وتمنع رحيله، "*أما أنت يا شيخ **مهود** كبيرنا وصاحب فضل فينا*".

أعدّ **شــاهين** لثلاثتهم جملــين بمظلتين، لكن **مهود** تــرك جمله لباجة، أرملته، وزوجها بوســنة، وركب فوق بدايد الخشب التي حمّلها **الشاهين** على ظهر حمار دِخْلاوي اشتراه من ابن تاجر جلود يرعى غنم أبيه بلا أمانة.

t.me/qurssan

ربط في ذيله حمارًا آخر محمّلًا ببدايد العليق والعلف والطحين والحبوب. سيعي **الشاهين** بعد زمن أن الحمارين ذكران، وسيضطر -إن ماتا وانقطع نسلهما- إلى السعي حول "الدومة" على قدميه العاريتين يجمع العشب الجاف ويصيد الضباب، أو يعاود السفر ليجلب أتانًا ولّادة وتيسًا طلوقة ودجاجًا يبيض ويفرخ.

شوّن الزكائب وقراب الماء على الجمال، وسار بها أمام الغنم، **ومهود** خلفه كمخيال الظل يردُّ الغنمة الشاردة والمتأخرة. تتبعه الكلبة العشراء دول ملل أو كلل. سارت القافلة ظلُّها أمامها، ثم أخذ الظلّ ينحسر حتى إذا ذاب تحت أقدامهم، وصارت الشمس فوق الرؤوس. تباطأت حركتهم وتهاوت طاقتهم، ونادى **مهود** ساخرًا مستهينًا:

- **نموت يا شاهين، وهذولي الأرواح تموت معنا!**

أناخ الجمال ودق "مسانيد" خيمة في حضيض تل جيري، أدخل **مهود** وبوسنة وباجة ليحتموا من الشمس القائظة وغشّى رؤوس الحمارين والجمال بمنسوجة مبللة لتبرّد رؤوسها. قال **مهود:**

- **لو ما وجدنا عين الماء هلكنا يا شاهين!**

وردد **بوسنة** خلفه:

- **سنهلك لو ما وجدنا الماء!** وقال **شاهين** مازحًا:

t.me/qurssan

- أنتما تتوكلان، وأنا وباجة نعود الغباري وأتزوج وأخلف عيالًا!

وقالت باجة:

- وأنا أزوجك ست بنات الدخلاوية، وأعطيها حَجْلي مهرًا.

- وأسمّي ولدي مهود وبوسنة.. مبسوط يا سيد؟

لكن **مهود** لم يجب. تسمّرت عيناه وتجمدت أطرافُه حتى ظنوه ميتًا. عيناه الباهتتان غابتا في شيء لا يراه غيره، وأطرافه الباردة وشتْ بانسحاب روحه. لكن جفونه وأهدابه تغمغم:

- أنا كنت نائم؟

- ما نعرف، كأن روحك راحت!

- هذي القارة مسكونة.. أرواح قديمة أزلية!

- تريد نرجع يا سيد؟

- لا، أريد نبلغ عين الماء ونعيش كبارًا وتكون بلد وعزوة.

- ربما نتيه ونموت.

- نصل والله، وبوسنة يكتب دفترًا "للصاير"، ونبني لباجة حظيرة للدجاج والأنارب، وأنت تكون عمدة ويجيئك ناس وقبائل.

t.me/qurssan

- وانت يا سيدي؟

- أموت، وتجعل لي مقامًا كمقام سيدك المغربي، والناس تحج إليَّ وتدعو باسمي!

***

صار الوقت ثقيلًا، وحمولهم ثقيلة، وخطواتهم ثقيلة، حتى بعد أن اجتازوا صحراء "الطحين" التي غاصت في جوفها الأقدام كأنها تتشبث بأول من يطؤها، إلى قارة الحجر التي تذيب حرارتها النعال والأظلاف. لا أثر لنأمة ولا برهان على حياة. صاروا جميعًا أشباه موتى. أحنت الدواب رؤوسها، وسارت منكسة الهامة يطاردها اليأس ليقعدها مستسلمة للموت. لتنجو به من الخوف والعطش. وحده كان **مهود** عفيًّا كجمل أبكر يحثهم على المضي. ثلاثة أيام خلت من الريح على غير ديدن هذه الأرض. ليس سوى رطوبة لزجة تسد مسامات الجلد والنفس. عبث الظنُّ برأس **شاهين** لربما كان كما يقولون "مخلول"، والمخاليل لا يدركون أحلامهم.

لكن خطوات الجمال اتسعت وخفّت حركتُها وخالفت دليلها وأخذت تعدو في اتجاهٍ تعرفه. ظنّ المهود أنها استشعرت خطرًا أو عاصفة وشيكة أفزعتها، فقال **الشاهين**:

- بل اشتمت رائحة الماء!

t.me/qurssan

تهللت أساريرهم وتفتّح لون وجوههم، ولما بلغوا مأربهم واستقبلتهم شجرة دوم فارعة في أول منزلة متسعة، نطقوا الشهادتين، ونبحت كلبتهم الـحُبلى نباحًا حادًّا متواصلًا. لم يكن لعين الماء من أثر والتربة التي تكسو موضع النبع جافة يكسـوها بياض كالثلج. لكنهـم لم يجزعوا. كأن ذلك مـا انتظروه وجـاءوا من أجله. حطّوا عن ظهور الـدواب حمولها، وباشر **الشـاهين** يدقُّ أوتاد خيمة، ومع طرقاته المتتالية انطلقت أسرابُ الشحيم المختبئة بين جريد الدوم وأغصان الأكاشيا مفزوعة، فانشرحت أساريرهم وأطلقت "باجة" زغرودة متحشرجة، وقال بوسنة:

- الماء قريب، وهذه الأرواح ريّانة!

ينتبه **الشاهين** إلى أنه لم يجلب شبكةً لصيد الطيور كأول ما ينقصهم في سكناهم الجديدة، لكنه سيدرك تاليًا عدم حاجته إلى أداة صيد للطير، حين تكتشف **باجة** سقوط الطيور فوق سطح البحيرة ربانيًّا، في مواسم امتلائها. ينصب الخيمة، وتُمهّد باجة أرضيتها بالتراب الناعم، وتكنس عنها الطوب والحصى. تفرش "**كليما**" جديدًا يصلح لنوم قرير عافاهم أيام الرحلة. ولا يأتِي النومُ **شـاهين** بل تزاحمه الأفكار وتغلبه الظنون، يفكر: *لو أن المهدي السنوسي فتح البلاد، بينما هم يمكثون هنا في هذه البقعة النائية بعيدًا عن هدايته، فأين يكون مآلهم؟*

t.me/qurssan

يدور الشـيخ **مهود** حول أشجار الفيّاش وجذوع الدوم. يتتبع مجرى قناية مائية جافة حتى موضع منبعها. يتحسّـس أدمة العين ويتذوق ترابها وصخرها. يكسِرُ غصناً ويقطع أوراقه ويتشمّمها. يريق لبن عروقها فوق رسغه. يبحث في ألحية الشجر وبذور الفياش المتناثرة حول السيقان. بينما يتحسّس **الشـاهين** بين الشـقوق وتحت الحجارة. يبحث عن آثارٍ لذوي أربعة أصابع أو ذوي خمسـة. يبحث عن بشرة هاربة من ذيل زاحف، أو شـعرة سقطت من ذنبِ ضارٍ مفترس. عن أثر حوافر أو أظلاف لم تمحها الريـح أو تجرفها المياه. عن رائحة بول أو خرأة متحجرة. عن جلد ثعبان قديم أو ناب مكسور.

يجنّ الليلُ وتسـتيقظ كائناته، وقد تزدهي النجوم وتتلألأ، أو تتوارى كأنهـا ما خُلقت بعد، ثم ينكشِـفُ الفجـر، ويتنفس الصبح، وتنسـحب غلالة الظلمة، وتصطخب مظاهر الحياة في حبات الرمل. يسري الدم في أجسـادهم ويحمل الشيخ **مهود** "تورية" الحديد، ويحفر في موضع العين. يتخلّى **بوسـنة** عن عصاته العتيقة، ويجمع الأوراق الجافة المتناثرة ووقش الحطـب، ويحملها إلى باجـة لتوقدها داخل ثلاثة أحجـار متماثلة لتصنع "كانونا". تتحلّق الدواب والكلبة العُشراء حول "موردة" يحفرها الشـيخ **مهود** في موضع العين. تراقبه وتثني على صنيعه. لا يسـأل **الشاهين** كيف عاد الدم يسري متدفقًا في أوصال المهود وبوسـنة فتركا عكازتيهما وبدوا مُستقيمي القامة كشابين فارعين، لكنه يسأل:

t.me/qurssan

- ما تحفر يا سيدي؟

يواصل **مهود** الضرب برأس التورية بعزيمة فحل، فترد **باجة:**

- أنا قلت لهم إن كانت العين روّاحة، تروحون لها لا تنتظروها! ويقول بوسنة:

- وشيخ مهود قال لو بانت المياه نسمي العين "باجة".

يرفع **مهود** قبضته بحفنة تراب منداة يشتمها ويتذوقها بطرف لسانه، يصيح:

- وربي هذي مياه تطيل العمر!

-أنا قلت لكم!

تغمر **شاهين** الفرحة. ينزل الموردة ليستكمل الحفر، ويدفع الشيخ **مهود** ليستريح. يضع بوسنة الوقش بين يدي باجة فتضعها بين ثلاثة أثافي "لكانون" أعدّته وأظلّت ناره بقروانة من الصاج جعلت قبتها لأعلى وتجويفها فوق النار. حين حمي صاجُها، وضعت فوقه لِبَدَ العجين المقروصة لتنضج على مهل. ضاعتْ رائحة الخبيز الطازج فعبقت أرجاء الصحراء، رائحة تحملها الريح إلى قافلة في الجنوب أنهكها طول المسير، وإلى ثلة من الحجيج خرجوا من أقصى صحراء الغرب إلى بحر النيل إلى الحجاز، وإلى زواحف محرشفة

t.me/qurssan

في محجرة بوادي الوشواش، وأسراب من الطيور اجتازت محيط الإنجليز ولم تجتز صحراء الرمل فكفّت أجنحتها عن منازلة الهواء وقررت السقوط وإنهاء الرحلة. رائحة الخبيز غلالة شفيفة تحجُب لظى الشمس، وتُخدر الأطراف المجهدة، وتبعث الطمأنينة في القلوب الواجفة فتمنحها قوة الحياة وتدفعها نحو مآربها بهمة الخطوة الأولى على درب الأربعين.

تسللت الرائحة إلى مناخر **شاهين** في اللحظة التي اصطكت بها فأسه بجلمود صخري تنز المياه من بين عروقه، فأدرك أن طبقة الحجر الرملي اختفت، وأن طبقة أخرى للحجر الرمادي تحجز ينبوع المياه. كانت قامته قد توارت داخل الموردة بعد حفر دؤوب، وصارت الأرض تحت قدميه باردة ولامس الماء أمشاط قدميه، انحنى يرشف من السائل العذب ويردّد ما يحفظ من أدعية الحمد، خلع هدمته وبللها بالماء الفرات وعصرها فوق وجهه مخمورًا بالفرحة، بللها من جديد وتسلق الحفرة ونثر مياهها على رؤوسهم، **مهود** وبوسنة وباجة.

انتظر الماء أن يغمر قعر الموردة حتى الغروب، لا أكثر من سبعة أشبار كانت كافية لأن يجدل "سحّابة" من الليف، ويربط بطرفها "سجاية" فخار ويقضي الليل يجرف مياهها إلى "مِخْول" علف ليسقي الكلبة والدواب حتى يجفّ القعر. في اليوم التالي تعود الأشبار السبعة تغمر القاع فينشغل بتعبئة المخول والقراب الخالية وكل ما كان له قعر وحافة. وحين يطمئن إلى امتلاء أوعيته، يهمُّ بسقاية الشجر وسدّ "نَوَس" الأرض ومنحها بعضًا من

t.me/qurssan

الفيض، ثم يغرس حبّ الذرة وتقاوي الفجل والبصل والنعنع والفسائل التي جلبها على ظهور الجمال.

***

عزم **الشاهين** على الخروج بالقطيع إلى السفوح والوديان القريبة بحثًا عن عشبة خضراء نمتْ بين صخرتين بانتظار حيّ يطعمها، تتبعه الكلبةُ الـحُبلى. تنبح في وجوه العفاريت التي لم تعتد بعد مجاورة البشر.

يمضي **الشاهين** عبر المنحدر الرملي المتسع. يعبر النواصب الصخرية المنحوتة من بقايا الجبال. يلوذ بأحجار "الشواهد" حين تميد به الصحراء. يرصُّها وراءه ليستدل بها عند عودته إذا قُدرت له العودة. تتوسّط الشمسُ صُرةَ السماء، وتلوح لعينيه شعفتا(*) الجبل الأسود وجبل الخشب ووادٍ بينهما سيسميه "بين الجبلين". على جانبيه يرى **الشاهين** آثارًا لمخالب ذئاب وثعالب، وأوراق عشبة برية تكسو سفوح الجبال وبطن الوادي فيعمل محشّه في جذورها ويحزمها بأحبال الليف، يطفق يجمع غنماته التي انتشرت تأكل بلا حساب حتى لا تدفع رائحة دمائها الحية الضواري لمغادرة معامرها. لكن ذئبًا جائعًا يسبقه إلى عنزة تعثو عند فم معمرة متوارية تحت نتوء جبلي، فيبقر بطنها بعضة واحدة. يسارع **شاهين** لنجدتها ملوحًا في وجه الذئب بنصل المحشّ. لكن الذئب يجذب رأسها إلى فم المعمرة، فيجذب

(*) شعفة الجبل: قمته.

t.me/qurssan

شـاهين قائمتيها الخلفيتين حتى يسـتخلص بقاياها من بين فكيه، تباغته عيون متربصة لذئاب أخرى نحيلة تنتظر الانقضاض.

وكما يأتي الخلاص في الحكايات القديمة، تأتيه النجدة من قمة الجبل. تسّاقط الحجارة من أعلى جبل الخشب، تصحبها أصوات مبهمة صائحة، تدفع الذئاب لمغادرة الوادي. يتلفّت **الشـاهين** جهة الصوت فيرى شبحًا يكسـوه سـواد قاتم يقف عند منتصف الجبل ملوّحًا له بصولجان. يغادر الوادي مذعورًا يردد البسملة والمعوذتين وما تذكّر من التسابيح والأدعية. يلقي بقايا العنزة المغدورة فوق العشب المحزوم على ظهرِ الجمل ليستفتي الشيخ **مهود** في حكم مأكلها. يفتيه **المهمود** بأن مأكلها حلال لكلبته الحُبلى التي لانت أضراسها وبردت قواطعها بعدما نسيت طعم اللحم وصلابة العظـم. يفتيه كذلك بأن الأشـباح وغيلان الصحـراء لا تخرج للآدميين مكتملة كما خرج له الشـبح الأسـود، وأنها لا تجاور الضواري ولا تغيث ملهوفًا، وأن من رآه هو آدمي بشحمه ولحمه وليقطع ذراعه إن كان كاذبًا أو جهولًا.

يجفِّف **الشـاهين** بقايا لحم العنـزة وعظمها، ويعطي الكلبة منابا منها، ويسمونها "وفيّة". تأكلُ حتى يجيئها المخاض ويدرَّ اللبن في أضراعها وتضع جراو أربعة ترقد إلى جوارها في سلام، تُهيأ لها مراضعها. يقول الشيخ **مهود** إن الله مُسبب الأسباب أرسلك يا **شاهين** بغنماتك إلى وادي "بين الجبلين" هذا، لا لكي تعثُر على المرعى أو تحتطب من شـجر "الرمـث"، إنّما ليأكل

t.me/qurssan

الذئب عنزتك، فيأخذ قليلها ويُبقي لك على أكثرها لتأكل "وفيّة" الكلبةُ المسكينة، وإلا ما جاست العنزة حول فم الموكرة بعبط الدجاجة وطيش الديك، مدفوعة بإرادة خالقها الذي سبق علمُه خلقَه، فعلم أن **شاهين** لن يذبح من حلاله شاةً، ولو قامتِ الساعة، ولن يطعم الكلبة لحمًا فتموت في ولادتها. ماصت **باجة** شفتيها مصدّقة بقدرة الله وتدبيره، وأعاد **بوسنة** ما قاله **مهود**، وشهد **شاهين** وصدّق، قال إنهم لم يروها تقترب من آخرتها كأنها تنادي من يأكلها:

- تركتْ الرمث أخضر مورقًا وراحت تلحس فم الموكرة يا سيدي!

***

فاضت روحه بزقزقة الشحيم في أغصان الأكاسيا، ففتح عينيه على بساط أخضر يكسو تربيعة الأرض التي بذرها التقاوي والشتلات قبل أيام قليلة. تحوم حولها الحملان تتشمّم خضارها وتقطف من أوراقها اليانعة. يلتقط بوسنة من بينها عودًا لم ينضج بعد ويدسه بين أسنانه الواهنة في سعادة. يجلس **مهود** على حَجَرٍ مُسطح سيصير مقعده الأثير لسنوات مقبلة كثيرة. يضع مقبض عكازته تحت ذقنه وطرفها الآخر مغروسًا في الرمل. يهش الغنم عن الزرعة بكلمة "سِكْ". إلى جواره بوسنة يفتح دفترًا عتيقًا ويقلب صفحاته. يصيح **شاهين**:

t.me/qurssan

- سبحان الله، أرض عفيّة كالأرض السودا.. نريد نزرع علفًا!

يردُّ **مهود** بجدية لا تقبل المجادلة:

- نريد نتزوج، نريد حريم نركبهن في الطل وننجب عيالًا.

ينذعر **شاهين**. يلتفت حوله باحثًا عن باجة فيلفاها تجِزّ شعر عنزة تحت ظُلة بعيدة. يحاول بوسنة استجلاء ما سمع، مكذبًا أذنيه. يقول **شاهين**:

- يا سيدي.. أنت ما تقدر تطلع مصطبة، تريد تركب حُرمة؟

- هذا كلام قديم، الحين وتدي يرفع خيمة.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

5

صَلُّوا على اللي أتاه الموت لم هابه

أطارَ صوتُ الدانة عفاريتَ النقوب وغيلانَ الكهوف، ونسيَ بعضُها عادة التخفي فلم يدخل في هيئة لا تُفزع من يراها، قطة أو ضبعة أو جرو أسود. هامتْ بعيدًا عن صوت الفراقع الغائب منذ سنين، ونسي الناس أن يتعوّذوا حين سمعوا نهيق الحمير ونباح الكلاب الذي تلهج به حين تراها. سقطتْ دانةُ المدفع فوق السقيفة الكبيرة، فارتجّتْ الدومةُ شرقًا وغربًا، وانهال رملُ الكُثيب الساكن بعد الأيام الخمسين. صُكّتْ نوافذُ البيوت وأبوابُها، وأسقطت أشجار الدوم والأكاشيا ثمارًا لم يحِن قطافُها، وخرج الرجال ينظرون ما يفعلون، واندفعت البنات والنساء للاختباء قبل أن يقتحم عليهن المغاوير بيوتهن فتكون جُرسة لا تزول بزوال مرتكبيها.

t.me/qurssan

لا يتبقى داخل البيوت سوى الشيباوات اللواتي يعرفن كيف يصرفن الأذى عن أنفسهن.

التأمت جلسة الأشياخ تحت المظلة الصخرية بمن كانوا يتّجهون لصلاة الفجر. الشيخ **المأمون** و**حرب** و**مفلح** و**بكر الفريج** و**تخلو** و**جابر الوكيل** و**السنوسي** و**ابن المرجوشي** و**عبد رب النبي**. لا يقِف الكلامُ عند أحدهم منذ انفكّ عقاله. حتى إن كان سُبابا وقذعًا، بل سرعان ما يلتقط أحدهم طرفًا من أطرافه ويعدو به بعيدًا، كي لا تلد رائحة الدخان المتصاعدة وأزيز النيران صخرةَ سكونٍ تتدحرج بينهم بنتوءاتها الصلدة فتدهسُ اطمئنان نفوسهم، وتشقُّ طريقًا مُعبّدًا في صدورهم لذكريات الفقد والخسارة. ما إن تصمُت الألسنة حتى تدهم واحدهم ذكرى موت غالٍ أو حبيب، فيتطلع إلى بعيد حتى تغرورق عيناه بدموع حبيسة قديمة يخفيها الإيمان بالقضاء والأمل في اللقاء عندما يوفّى الأجل.

يتذكّر الشيخ **مفلح** بصير المنامات، ابن الشيخ **مهود** عليه السلام، يوم خسر أبناءَه في يوم كهذا قبل أربعين سنة بالتمام. قنصتهم طائرات الطليان أيام الحرب العظمى الثانية. طائرات جاءت تبحث عن قافلة وقود عسكرية ضربها الإنجليز وقضوا على مَنْ فيها. لم يضع **مفلح** بعد موتهم بذرةً جديدةً في فرج امرأة ليزرع نسلًا يمتدُّ به اسمُه واسم أبيه الشيخ **مهود**. بل انكفأ يزرعُ أشجار الدوم كما كان يزرعها المهود. يغرس البذرة ويُسيّج حولها بالحصى والرمل الناعم، ويرقبها سنة فسنة، وحين يورف جريدها يقلّمه

t.me/qurssan

ويحبكه لأسقف البيوت وأزرابها زاهدًا عن مُتَع الدنيا وزينتها، ثم يوكل إلى الخشَّاب **جابر الوكيل** -قبل أن يصير شيخًا للطريقة المهودية وخليفة للمقام- قطْع جذوع النخل العقيم وتربيعها ليضعوها عواميد قائمة أسفل العرائش وأسقف البيوت. يقول سيدي **المفلح** إنه جاء هذه الأرض فرحة متأخرة لأبيه **المهود** بعد ثمانين عامًا عاشها جذعًا جافًّا مقطوع الأفرع لا يلقي بظل، وسيبقى مثله بلا طرح حتى يَبْقى اسم المهود طاهرًا يتبرّك به الخلق لا يدنّسه واحد من أنساله بالذنوب والمعاصي. وحين صار لاسم أبيه المهود مقامٌ يؤمّه الناس، لم يدخله ولم يشارك **تخلو** والخشّاب **جابر الوكيل** خدمته وسدنته، ولم يفزع حين هدمه الإخوان السنوسية كما فزع **تخلو** وحاول الذود عنه.

وحين سافر **جابر الوكيل** إلى بورسعيد وعاد بعد حرب العدوان، لم يشاركه الطريقة التي أنشأها باسم أبيه "**الطريقة المهودية المحمدية**" ونصّب نفسه خليفةً لها، وحين احتدم النزاع بين أبنائه وأبناء سيدي **تخلو** على خدمة المقام، انتأى بنفسه عن سجالهما كأن الأمر لا يخص اسم أبيه ومقامه. هكذا عاش مفلح أكبر أحياء الدومة وأول مواليدها قبل وبعد موت أبنائه بقصف طائرات الطليان.

كما عاش **جاد المرجوشي** قعيدًا مبتور الرجلين بقصف طائرات الإنجليز قبلها بعشرين عامًا كاملة. حين جاءت تبحث عن بقايا جيش السنوسيين الفارين من حرب الواحات، فقنصته وبترت قدميه فوق مئذنة صعدها

t.me/qurssan

ليشير نحوها براية السلام، ألزمته مقعدًا من الخوص لا يغادره إلا محمولًا بين الأيدي.

وفقد **المأمونُ** ابنين غير شقيقين لولده **حرب**. قتلتهما الألغامُ في طريق الفرفرون، وعاد مرافقوهم ببعض أشلائهم. حزن **المأمون** وتأسّى، ثم تجدّد الحزنُ والأسى حين مات حفيدان له من أبناء **حرب**، كما مات ابناه بذات اليـد. قتلهما لُغْمٌ مطمور تحت الرمل قريبًـا من ربوة كان الطليان يخزنون تحتها بساتل وقود محكمة الإغلاق. حزن عليهما **المأمونُ** كما لم يحزن أبوهما **حرب**، أو هكذا بدا للناس حين صعد بجثمانيهما إلى الجبانة بين المشيعين، وتركهم هناك ونزل وحده سريعًا يعزِقُ حقول الذرة بهمة لا تفتر.

كلهـم فقدوا غاليًا في "أيام الدومة" التـي صاروا يؤرّخون بها للناس والأرض. حتى سيدي **تخلو** أكثر الدوايمة زواجًا بالنساء وإنجابًا للعيال. فقد أبناءً لا يذكر أسماءهم، كان آخرهم حفيده ابن ولده **عتيق** و**جود** ابنة السوايسـة صاحبة برجاية الحمام. والذين لم يفقـدوا غاليًا، أورثتهم تلك الأيام ذكريات باهتة لم تنمحِ آثارها في دواخلهم.

***

لم يمهل سـيدي **تخلو** حصيرة الصمت كي تتسـع فتكتنف إخوانه بين أطرافها، وتستلب رائحة البارود ذكرياتهم الأليمة، فألقى سؤالًا بدا عرضيًّا

t.me/qurssan

إلى سيدي **بكر الفريج** وهو يوقن أن أحدًا لا يملك إجابته، قال:

- تَرى من هؤلاء الملاعين يضربون "البازوكا" يالفريج؟

- مالكم تسألون كأني حسني مبارك..

- تقول إنك تعرف البارودة بقرعها، وتعلم من يحملونها.. نسيت؟

- ذاك زمن غير الزمن يا شيخ حرب. الحين متلكم، لا أعرف غير ما تعرفون.

أخرج **الطيب** حفيد **تخلو** جهازه الترانزيستور الصغير، وفتح سلك الإشارة الهوائية. أدار بكرته الجانبية الكبيرة. يحاول أن يضبط موجته لالتقاط خبر ما عبر الإذاعة. خبر يشي بما يدور في عموم البلاد. لم تأتِ غير ابتهالات "النقشبندي" في إذاعة القرآن الكريم قبيل الأذان متقطّعة بعيدة كما هي دائمًا، وتماوج صوت المعازف وأغنية سمعها **الطيب** تتردّد يومين متتاليين دون توقّف على كل الموجات الأخرى. يغني فيها أحدهم لبلدان إفريقيا وشعوبها السمراء على أرض القاهرة في الألعاب الرياضية، يتلوها إحصاء الميداليات التي حصدتها الفرق المتنافسة. بدا كل شيءٍ طبيعيًّا، وأنّ ما يُقذف نحوهم من فوق الجروف يخصُّهم وحدهم وليس جزءًا من حرب عظمى أو معركة حربية قريبة.

همّ الشيخ **جابر الوكيل** يدلي بالرأي والمشورة، لكنه سَرعان ما تدارك

t.me/qurssan

وأمسك الحروف على طرف لسانه، حتى لا يتشارك في حديث أثاره سيدي **تخلـو**، فيبدو كأنـه نزلَ عن قطيعتـه له، وعفى عما سـلف بحقه من **تخلو** وأبنائه.

كلاهما يتجاهل الآخرَ ولا يعقبه في الحديث أو الإدلاء بالرأي أو المشاركة بعمل، إلى أن يتداخل بينهما ثالثٌ كأنه مُحلّل لطلقة ثالثة، وتظلّ جمرة القطيعة متقدةً تضطرم. قطيعة تسبّب بها سيدي **تخلو** ذاته قبل عدة سنوات، بعد أن أعلن **جابر الوكيل** ميلاد الطريقة المهودية المحمّدية، وجعل المقام مقرّا لها وصار ابنه **بيومي الوكيل** خليفةً لها، وبقية أبنائه نقباء ومريدون.

اندس **سيد ابن تخلو** بينهم، مطالبا بمنابه من خدمة المقام، فأُعْلِنَ خليفة للطريقة. لكن أبناء **جابر الوكيل** ظلّوا يحوزون مهمّة تلقّي الهبات والنذور، ويعيـدون توزيعها على الأتباع والمردين والفقـراء. حتى ابتدع أحدُ أبناء جابر الوكيل "صينية الرضوة" وجعلها تحوي سبع فولات وسبع حلاوات وسبع بلحات وعلبتي سجائر وورقتي معسل وشاي وسكر وصنف طعام مطجون، مؤكّدا أن هذه الصينية هي "عزومة" الشيخ المهود لتلبية حوائج النسـوة والمزغوفات والممسوسات أو المربوطات بأعمال خبيثة، وقال إن **المهود** يتولى تقديمها للجِنِّ لإخراجهم وإبطال صنيعهم، فمن أرادتْ أن تقضي مسألتَها عليها أن تُنذر للشيخ المهود "صينية الرضوة"، وأن تحملها في جنح الظلام وتضعها "تحت الظلّ" قريبا من مرقد الشيخ دون أن تنطق كلمةً أو تأتي إشارة في طريق ذهابها وإيابها، عدا كلمات الثناء والدعاء والتسبيح،

t.me/qurssan

تردّدها في سريرتها حتى لا تُفسد العزومة، وأن تعود فجرا لترى هل قَبِلَ سيدي المهود "الترضية" كاملة أم أبقى شيئا منها، فإن أبقى كان لزاما على صاحبتها إعادة المحاولة، وإحضار "رضوة" جديدة.

ظلّ **تخلو** ينبش في أصل الحكاية. لم يقنع أن جنيّا دَنيّا يدخّن السجائر والمعسل معا. يقول: كيف؟ الجنّ أصحاب مزاجات عالية، لا بطون تمتلئ بالخراء كبني آدم. كيف يضع أحدهم "مبسم" الغابة وفِّلة السوجارة في فم واحد، ولو كان جنّا مصوّرا، وأيّ جني ذاك الذي يأتي على الصينية كاملة ويترك حبات الفول اليابسة لا يقربها كأنها عصيّة على أضراسه!

قرّر أن يستجلي حقيقة الأمر بعينيه. تعقّب الصينية التي حملتها **جلا**، أم **شامة** وزوجة المرحوم **شروفة**، لترضية الجني الذي سُلِّط عليها فباعد بينها وبين زوجها بعد زواج لم يدم طويلا. فرأى ابن **جابر الوكيل** يتسلّل من مرقد الشيخ **مهود** ليلتقم ما تحويه "الترضية" عدا بلحة واحدة وحبات الفول السبع. تركها حتى تكرّر **جلا** محاولتها بصينية جديدة مترعة بما يملأ البطون. لفحه سيدي **تخلو** بكفين مفلطحين زندا النارَ في صدغيه الممتلئتين، وأخذه إلى بيت **المأمون** ليفضح فعلته.

كانت "جُرسة" لأبناء **جابر الوكيل** اضطر عقبها أن يحظر على أبنائه خدمة المقام أو تلقي نذوره، وعادت الخدمة إلى أبناء **تخلو**. لكن **بيومي ابن جابر الوكيل** ظلّ شيخا قائما على الطريقة المهودية المحمدية بدأب وإخلاص.

استحكمت القطيعة بين العائلين، ولم ينسَ **جابر الوكيل** لتخلو هذه

t.me/qurssan

التجريسة العلنية، وكان بمقدوره أن يجعلها "بَـينِيّات" لا تخرج إلى ثالث. وركب كل منهما جمل العناد، ورمح بعيدا عن عشيره، لا يتوجّه إليه بسؤال أو إجابة أو يعقّب على كلمة يلفظها.

حين سأل **تخلو** بكر الفريج: **من يضربون البازوكا؟**

همّ جابر الوكيل بالإجابة، فرفصه عناده وألجم لسانه. وسارع الشيخ **عبد رب النبي** يقول بعبارة خرجتْ من قرار عميق ورجاء صادق أثارت عاصفة من الضحك والسعال:

- **ليتهم إنجليز عادوا يغزوننا!**

ازرورق منخارُ الفريج، والتهبت شحمتا أذنيه، كديدنه دائما حين يأسره الغضب. رمق **عبد رب النبي** بنظرة حانقة. قال:

- **يا أخي أنت تبيع النبيَّ لأجل قُفّة الخراء هذي!**

أشار إلى بطنه، وقد أدرك أن **عبد رب النبي** تمنّى على الله أن يعود الإنجليز لغزو الدومة، ليُلزموا بيوتها بإطعامهم ويجعلوه -مرةً أخرى- "طاعما" يتذوق أَكْلَهم قبل أن يبتلعوه، حتى لا يدسُّ فيه أحدهم السُّمّ.

كان الشيخ **عبد ربّ النبي** أكبرهم حجما وأثقلهم وزنا، وما هَمَّ بامتطاء حمارته إلا ضَرَطَتْ وسارتْ تتأرجح تحته كالدائخة. يحبُّ الطعام على أنواعه ويمتلك لسانا ذوّاقا يعرف أصل الطجن وأصنافه ومشمولاته.

t.me/qurssan

مـا أن يرى صحن "المبرومة" حتى يقول لك في أي بيت طُجِنَت ومن أي شاة حُلبتْ.

وحين يحتدم الجدال بينه وبين سـيدي **بكر الفريـج** في أمر من الأمور يقطع عليه حديثه. يقول:

- **يعين الله عيالك كيف سيحملون نعشك؟**

فيسارع **تخلو** يشاركه السخرية ويضيف:

- **نجعل "الملك جورج" يجر رمّته إلى الجبانة.**

عبد رب النبي نفسه هو من أثار مسألة تشييع جثمانه في إحدى جلساتهم بعد أن شيّعوا جثمان الشيخ **الوكيل أبو جابر** منذ سنوات بعيدة. إذ جلسوا يتنـدّرون حول خِفّة النعْش وطيرانه إلى جبانة الجبل حتى كاد يسـبق من يحملونه إلى وجهته الأخيرة. قال الشيخ **المأمون** حينها، إنّ المرحوم **الوكيل** كان جلدا فوق عظمتين لا وزن لهما، أمّا عياله فأبناء ضربٍ كاملٍ، لو نفخوا هواء خياشيمهم في نعشه لطار إلى مثواه، أقسم أن الوكيلَ الخشّاب لم يكن وليّا ليطير نعشـه. بعـد الجنازة، بقي **عبد رب النبي** مهموما يفكّر سـاعة يموت ويحشرون جسده الهائل في النعش الخشبي، ويسيرون به ثقيلا مثل التلّ فيظنّ الناسُ أن روحه خبيثة تتشـبّث بالدنيا خشـية لقاء ربّها، امتنع عن الطعام يوما كاملا فلم يبدُ له أنه تخفّف من بعض وزنه أو هبطت قُبّة

t.me/qurssan

كرشــه، فعاد والتهم ما فاته من القريش والزبد والعسل والخبز الشمسي، ثم أسرّ إلى إخوانه أشياخ الدومة بهاجسه، فاقترح عليه **تخلو** أن يوكل إلى أبنــاء **إبراهيم الجريجي** تنجير نعش كبــير، ذي زوائد، تقبض عليها أيادي المشــيعين، وتحمله في يسر إلى مدفنه، ففعل، ومنحه أبناء **إبراهيم الجريجي** نعشا معتبرا لم يدفع من ثمنه مليمًا واحدًا، إكرامًا لصلته بهم وبآبائهم الكبار منذ جاءوا معًا إلى الدومة أيام الحرب العظمى الأولى.

***

لم يجب أحدُهم سؤال **تخلو**: مَنْ هؤلاء يضربون الدومة؟

لكنه سرعان ما ألقى بحجر يعرف كيف ستنداح حوله دوامات متماوجة من الأحاديث الصاخبة. قال من خلف ضحكة حاول إخفاءها بقناع جد مفتعل لم يره أحد:

- بازوكة واحدة تهدمها على رؤوس ساكنيها، لو ما كانت الدور متلاصقة كحبّ الرمانة هكذا ما تداعت واحدًا واحدًا بعد كل ضربة.

ليرد **المأمون** بغضب:

- عميــتَ وغطش بصرك، ما ســقط دار ولا جدار.. الضرب في بطن الجرف والسقيفة يا بعر المعيز.

ولم تكن هذه الهجمة هي المرة الأولى التي يدّعي بعدها أحدُ الدوايمة

t.me/qurssan

أنه لولا شـورة المرحوم سـيدي **شاهين** عليه السـلام، لما جفلتْ البيوت مثل ضِباب المحاجر حين تفجؤها يد الصيّاد. كلّما ألّمت بالدومة نازلة قال أحدهم لو كانت شوارعها مكشوفة للسماء وبيوتها متباعدة لسقط البيت المضروب وحده على رؤوس سـاكنيه في سلام وسكينة، دون أن يأخذ في رجليه بيتين ثلاثة على يمينه ويساره. لكن البيوت متلاصقة تكاتِفُ بعضها بعضًا وتتساند كشيوخ الدومة حين يمشون إلى السقيفة لا تقوى مفاصلُهم القديمة على التمدُّد وحمل ما عليها من أجساد رملية فتتها الزمن.

كان **الشاهين** كلما نجت الدومة من ملمّة، أخذ يبني المساحات الخالية بين البيوت والدور لتصير كتلة واحدة تظللها سقفة ممتدة فلا يدري الغازي ما تحتها. هو من جعل الضروب والحارات ضيقةً منخفضة لا تسمح لمن يمتطون الأحصنة والجمال بالمرور من خلالها إلا فرادى يلصقون صدورهم بظهور مطاياهم، **الشاهين** هو مَنْ جعل على كل ضربٍ طاروقًا من السنط بمهياج عريض لا يفتح إلا من الداخل، وجعل نوافذ البيوت عالية يرى مَن بداخلها خارجها ولا يرى مَنْ في الخارج داخلها. ولم يسمح لأحد أن يشذّ عن معماره، سوى **السيد حسن طنبور**، حين سمح له ببناء طابق ثانٍ في ضرب "السنيورة" ليسكنه أبناء الطنابرة. وافق **الشاهين** على مطلبه رحمةً بعزيز قوم ذلَّ. مَنْ غادر عشـيرته وسـلطانه وضرب في الصحراء يبحث عن سُـكنى حتى هداه **جاد المرجوشي** إلى "الدومة"، فبنى بيوتًا متجاورة لأسرته صارت ضربا أسـماه الناس ضرب "السنيورة"، ولم يغضب عزيز القوم، السيد حسن طنبور أو تأخذه العزةُ بالإثم للاسم الذي أطلقوه على

t.me/qurssan

الضرب، بل كأنّه سعد به وسار إلى زوجته الفرنسية الشقراء يخبرها: *أن الدوايمة يلقبونها بالسنيورة لجمالها ودلالها، وأنهم أسموا الضرب باسمها.* ووافق **الشاهين** وقال "سنيورة كالأجنبية الملوّنة". ولم يعلم **الشاهين** أن الطابق الثاني الذي سمح للطنابرة ببنائه فوق دورهم سيكون أكثر الأبنية هشاشة ترتج لدوي الرصاص وفرقعة الدانات، فيفزع سكانه، ويهرع رجاله يغلقون طواريق الضرب، بينما تختبئ النساء في مخابئ تحت بيت السنيورة رحمها الله.

يقول سيدي **تخلو** إن بيوت الدومة متلاصقة كحب الرمان كما بناها **الشاهين**، فلا يصمت الشيخ **مأمون** عما بدا مذمّة لأبيه سيدي المرحوم **شاهين**. حتى لو كانت المذمّةُ في ساعة موت وخراب. يُقسِم بأغلظ أيمانات الإسلام أنه لولا حيلته تلك، التي لا تعجب **تخلو** -بعر العنز- لما بقي وادي الدوم ولانقطع أثر من سكنوه. هو أول من شاف "الدومة" وداس تربتها، واتخذ من حجارتها بيوتًا ومن مائها أسبابًا للحياة، وأنشأها ديرات وضروب يظللها سقف واحد يخاتل الغرباء ويرهب نفوسهم. لو ما كان سقفها منخفضًا يغشى البيوتَ والشوارع لسمح لأي محمول فوق دابة باجتيازها وكشف ستر ساكنيها، وما قاومت غارات الغزاة على مرّ السنين. لو ما كانت دورانات الشوارع حادة هكذا، لرَمَحوا فيها حيث شاءوا بخيولهم العفية وجمالهم المسعورة وسياراتهم العالية. هي الحيلة التي لجأ إلى حياكتها بعدما نزل مجاهدو الدراويش السودانية أرضهم وجعلوها منطلقا لفتوحاتهم، وتبعهم السنوسيون وأحالوها قِبلة للحرب والجهاد.

يقولها الشيخ **المأمون** ويكرّرها، كما يكرّر كثيرًا من مآثر سيدي **شاهين**

t.me/qurssan

كلما ظنّ أن غبار الأيام طمس شـيئًا من ذكراه في أذهان كبارهم وعيالهم، لكن **تخلو**، كعادته، لا يترك ما يقوله يمرُّ على مسامعهم يسيرًا هينًا، وبيده أن يحيله قاسـيًا عصيًّا، سرعان ما يرسـم ضحكةً صفراء فاقع لونها -كما يقول **المأمون**- تغُمّ الشاهدين، تضيق حدقتاه ويعود لصوته رونق الصبا، يقول:

- لو كان سيدي شاهين أول مَنْ داسها، فمن بنى الدير وقلاية متاؤس، ومن جلب مساخيط العفريتة "دوزا" في فم المنزلة؟

فيرد حرب متطوعًا:

- الشاهين هو مَنْ جلب المساخيط لبطن الجرف، بوسنة كتب ذاك في دفتر الصاير.

يشيح **تخلو** بيده وينظر بعيدًا. فيما يدمدم **المأمون** ويغمغم غاضبًا:

- يا تِخْلُو أنت عبد هارب، نسيت يوم شالك من القبر؟

- تشهدون يا أهل الله، يقول إني عبد؟

- تعيش وتموت ابن كلب. لو ما عتر عليك حمار الشاهين لأراحنا الله من وجهك الأسود.

يبدو الرضا في وجه الشـيخ "جابر الوكيل"، وقد بشّ لسماعه مَن يذمّ **تخلو** ويلعن أسلافه، كأنه يكاتفه وينتصر له ويشهد بسلامة موقفه في القطيعة القائمة بينهما. ولا يبدو أثر لسباب **المأمون** في أسارير **تخلو**، إنما تنفرج شفتاه عن ابتسامة متخابثة ويرُد بهدوء مكين لا يتزعزع:

t.me/qurssan

- الله يسامحك!

يتصنّع غضبًا لا يخفي ضحكة مخبوءة بين شدقيه، يتشاغل بحريق عريشة المسجد وقد بدت النيران تخفت في مواضع وتستعر في أخرى، وبزغ شبح ضوء النهار الجديد. يخمشُ **تخلو** بحطبةٍ صغيرة صفحة التراب الراكد تحت قدميه، يرين صمت قصير لا يتناسب وصخب حرب تدور بين ظهرانيهم، تزداد ضحكته اصفرارًا وتتفتق أخاديد وجهه، وعينا **المأمون** المصبوبتان عليه غاضبتان لا تطرفان. يثبّت **تخلو** طاقيته الصوفية في رأسه الرفيع ويمسّد ركبتيه المدببتين يهم بالقيام فتضغط على إحداهما كفُّ سيدي حرب ليظل في محله، دون أن تتخلى يده الأخرى عن اللفافة بما تحتويه من خوذات وعمائم.

يحاول الشيخ مفلح بصوته المجهود أن يبدي رأيًا يطمئن به **المأمون** إلى مكانة **شاهين** في نفوسهم يقول:

- ثلاثة.. بل أربعة.. أول من وطؤوها، الشاهين وأبوي مهود وبوسنة وستي باجة.

ولا يبدو الرضا في وجه **المأمون**، فيؤكد من جديد أن **الشاهين** سبق هؤلاء حين غافل قافلة الخواجات واهتدى إلى الدومة وحده وعاد إليها بعد زمن، يقسِمُ أن هذا كله دوّنه سيدي بوسنة في دفتر "الصاير" لكن هذه الصفحات اهترأت وفُقدت حين احتل الإنجليز وادي الدوم بعد الحرب العظمى.

***

t.me/qurssan

6

أصل العناية خمر والوعد م الخلّاق

رأى **الشـاهين** أن يبني تبطينةً من الأحجار المسطّحة المتناثرة أسـفل الجرف، وحين أكمل بناءها ووضع عريشتها بدت في عينه قبيحة. قال:

- **ما تفرق عن تبطينة الغباري!**

هدمها وأعاد بناءهـا، ثم هدمها وقال:

- **بما تحت قدمي أبني بيتًا!**

وجعـل يبني بيتًا مثل بيـوت "تنيدة" بجدران راسـخة في الرمل. بلا مسـامات مفتوحة يتسلل منها الضوء والتراب وقرصات البرد. لها نوافذ

t.me/qurssan

لا تدفعهـا هبوة عابرة أو زخة مطـر مفاجئة. ابتعد عن نتوءات الصخور حتى لا يصيب سقف البيت شيءٌ من ترابها وحجارتها إذا تهاوت، وابتعد عن موضع العين وقنايتها كثيرًا ليزرع ما حولها بالمُغل والخضرة والأشجار ولّادة الخشـب، وكي لا يبتلع الرملُ المـاءَ في طريقه إلى ري الزرع إذا هو غرسه بعيدًا.

قـضى النهارات ينقـل أرتال الحجارة فوق ظهـور الجمال والحمير إلى الموضع الذي اصطفاه للبناء، ذات الموضع الذي سـيصير مقرًّا للسـقيفة الكبـيرة يجتمع تحت فيئها شـوّاب الدومة قبل الغروب تسـعين عامًا لن ينقطعوا خلالها سوى في تلك الأيام التي أطلقت فيها الرياح حممها الحمراء من أقصى الشـمال إلى جنوب الجنوب، أو تلك التي انطبعت في ذاكراتهم بما حملت من أنباء الغيب الموجعة فالتزموا دورهم.

لم يبدُ الشـيخ **مهود** راضيًا عن الموضع الذي اختاره **الشاهين**، أراد أن يظل في حمى العين وترابيع الخضرة اليانعة وظلال الشـجر الممتد دون أن يضطر إلى قطع كل تلك المسـافة في مجيئه ورواحه صبحًا ومساء. أراد أن يدخّر عافيته لشيء أنفع. عبادة يتعبّدها، أو امرأة ينكحها أو كليهما.

أقام **الشاهين** سياجًا حول الأرض بقِطَعِ الحجارة وطين الأدمة الناعمة، وحين ابتدأ في بناء الجدران بدت مسـتويةً في أسـفلها وملتوية في أعلاها، فهدمهـا وأعاد بناءها، ثم هدمها وأعاد بناءها، حتى أقسـم عليه الشـيخ **مهود** أن يخلّيها بحالها. وجعلتْ ستي باجة تُليّس خلفه الجدران المكتملة

t.me/qurssan

وتسد التفاريج بين الأحجار برمل أحمر خشن مخضّل، دون أن تُضطر إلى خلطه بالقشّ والتبن ونِشارة الخشب. عاود **الشاهين** الخروج بالقطيع إلى "بين الجبلين" تصحبه وفيّةٌ والجراوي الأربعة. لا تكفُّ عن السعي والنباح. يراقب الجبل حيث خرج له الشبح الأسود. يبحث في بطن الوادي وسفوح الجبلين عن أفمام المعامر ومواكر الضباع ويسدّها بالحجارة.

خـرج له **أبونا بشـندي** في زيه الرهباني الأسـود، كما خـرج له في المرة الأولى وأشار إليه بالصعود نحو قلايته، فاطمأن **الشاهين** إلى خلو الوادي من الغيلان والعفاريت والأشباح.

اعتاد **الشاهين** الرعي في "بين الجبلين" وزيارة قلايات الجبل والدير بخُرج ممتلئ بخير ما يزرع وما يحلب. وحين يشغله العمل أو يكْبُله الكسل يوكِل المهمّة إلى حماره الأمين، فيضع فوق "بردعته" خرجًا ممتلئًا بالخير، ويضعه على رأس قطيع يسـلك المدق الجبلي ويترك له قيـادة الدواب، ولـ"وفية" وجراويها مهمة الحراسة بنباح يرهب الثعالب والذئاب في مكامنها. يذهب القطيع في نصف نهار، ويعود قبيل الغروب، فلا تسمح له ساعات الرعي القصيرة أن يجرف الكلأ الأخضر ويكسح أرض الوادي فتظل نباتاتها غذاءً مخزونًا حتى تؤتى الدومة أكلها.

تعهّد **الشاهين** نفسه بالبناء. يحمل "شاقوفًا" وكسّارا مدبّبًا ليجذر الصخور وينقلها، حتى تراصت البيوت غير المكتملة في شريط ملتوٍ بعيد عن الجرف القبلي بانتظار مَنْ يسكنها. وتذكّر **الشاهين** تلك المناحيت التي تركتها قافلة

t.me/qurssan

الأجانب قريبًا من النواصب الصخرية بعد موت الجمل الذي يحملها، فحمل جرافته ورفع الرمال التي كستْها بطبقة سميكة ناعمة، حتى إذا استخلصها من جوف الأرض نصبها قريبًا من المنزلة، حتى بدت الدومة في عينه بلدًا، قال **مهود**:

- **بلد بغير عيال ونسوان**؟ وقال بوسنة:

- **بلد بغير دفتر للصاير!** وقالت باجة:

- **بلد بغير دحى ودجاج!** وقال **شاهين**:

- **لو جئتُكم بها، تكون بلدًا؟**

***

سافر **الشاهين** إلى واحة "أبومنقار" دون أن يعلق **مهود** في ذيل ثوبه كما اعتاد، وحين سأله **شاهين** عما يريد عند عودته، قال:

- **امرأة أركبها!**

غادر بروح غائبة وعيون تائهة متحفّزة، كأنه ما جاس وحده في هذه الصحراء من قبل. خفيفًا لا يحمل في سيالته سوى ريالات الفضة والجنيهات المصرية المتبقية من ادخاره الطويل، ولا يحمل على سنم جمله سوى زمازم الماء والخبز الجاف وجارورة سمن مملحة سائلة. هناك ابتاع عربة كارو ذات

t.me/qurssan

عجلتين خشبيتين كبيرتين تجرها أتان وجحشها الصغير، وابتاع منشارًا ومسامير ومصحفًا مكّيًّا ودفترًا وأحبالًا وأعواد خشب أبيض خفيف وقفص دجاج ملون وبيضًا ملقوحًا ببذرة الديك، دفسه في صندوق خشبي غطّاه بنشارة ناعمة تحفظ حرارة البيض وتحميه أشعة الشمس، ولم يعثر على جارية يبتاعها أو امرأة تقبل السفر إلى الخلاء المجهول لتتزوج بمسنّ غريب تجاوز السبعين.

نفق الدجاج وفسد كثيرٌ من البيض، لكن ما تبقى كان كافيًا لأن تعمل له ستي باجة "قنّا" محكمًا وتعتني به حتى يفقس ويصير للدومة "بلّاين" تقأقئ حول بقايا الخبزِ ودشيشة الذرة، وديوك تتصايح فتملأ الأسماع بالأدعية والتسابيح وترسل شارات السلام في أغوار النفوس. تخرُط باجة لها الأوراق الخضراء بقلبٍ طَرِب وعيون مطمئنة، وحين يخبرهم **الشاهين** أنه قرأ آثار الثعالب عند أقدام أحد النواصب يتناوبون على حراستها لا تخفى عن عيونهم إلا ليلًا في القن المحصّن، وعاد سيدي **مهود** يلح على **الشاهين** أن يجلب له حليلة يتزوجها فلم يجد **الشاهين** بُدًّا سوى العودة إلى تنيدة لأناس يعرفون المهود ويطمئنون إلى نسبه.

قصد **الشاهين** بيت العمدة **المرجوشي** كما يقصده كل غريب، وكل عائد مغترب، وكل مرسال، وكل صاحب حاجة في البلدة، وتبعه إلى هناك مَن عرفوه قبل رحيله صبيًّا مخلولًا كلما طقت رأسه بفكرة عدا وراءها ولهث. رأوه يعود بجسد وافر، وأصداغ ذات دماء، وبشرة فاتحة يملؤها الرضا

t.me/qurssan

والسكينة. يحصي الكلمات قبل أن يتلفظها ولا ينطق إلا بالحسنى.

أدهشتهم هيئته ودارت بعقولهم الظنون فلم يروِ ظمأهم بما أرادوا سماعه، وحين أطلع الشيخ **المرجوشي** على علةِ مجيئه. ضرب الرجلُ كفًّا بكفٍّ، وأسرّ لسيهات البلدة، أن **الشاهين** لربما عثر على "زرزورة". هي وحدها تعيد الشباب للأجساد المتهدّمة، كما يعيد المطرُ الكساءَ الأخضر للأرض الميتة، فصدق بعضهم وأنكر آخرون. زوّج الشيخ المرجوشي **مهود** بخبّازة مات زوجها، وأورثها أمّه وفتاتين وصبي بلا معيل، وأهدى **الشاهين** جرّةَ عسلٍ أسود، وبلاص "مشّ" مُعتق بالفلفل الأحمر، وطرحة خبز "بتاو".

استقبل **الشاهين** طريق عودته، ولم ينتبه إلى من يتتبع أثره منذ خرج من تنيدة إلا في اليوم الثالث، عندما اضطر **جاد ابن المرجوشي** إلى أن يكشف عن وجوده قبل أن يهلكه الظمأ والقيظ كما أهلكا حصانه.

أرفقه **الشاهين** بركبهم ومضوا إلى الدومة حتى بلغوا أعتابها، وهنالك أُعلن موت العجوز حماة الخبازة زوجة **مهود**. غسّلتها ستي **باجة** وكفّنتها في عباءة قديمة. حملوها فوق الكارو ليدفنوها بعيدًا فوق تبّة مستوية بعيدة. ستصير مُذاك موضع الجبانة التي ستحرص "مزغوفات" الدومة على طلوعها لزيارة أبنائهن كل جمعة. دخلت الخبّازة في حدادها، وبقي **الشيخ مهود** يلعن أسلاف حظه العاثر لأربعين يومًا كاملة. حتى إذا انتهت بطيئةً ثقيلة، أحبلها في اليوم الواحد والأربعين بولده **مفلح**.

t.me/qurssan

وأتت شمس "بابة" هادئة لينة ومعها فاضت العين بالماء فغمر الموردة والقنايـة وتجاوز حرج النخيل إلى منخفض جافٍّ بعيدٍ عن الجرف، كثيرًا ما وقف أمامه **شـاهين** ومهود وبوسـنة وجاد المرجـوشي لا يعرفون سرّ انخفاضه ونعومة قاعه، حتى رأوا فيضان العين يسعى إليه فيحيله بُحيرةً متّسـعة. أحاطها **شاهين** بحزام من الزرع والشـجر ليمنع تسلل التراب إليها ويحـدّ من بَخْر مياهها حين تعود شـمس بؤونة عفية غاضبة. نمت أشـجارها مثل معيـز الحَلْب في غيطان الذرة بضة كبيرة وارفة، وسـترى باجةُ ذات يوم أن الطيور لا تعبر سـطح البحـيرة إلا كفّتْ أجنحتُها عن الرفرفة وسـقطت على صفحة المياه الهادئة حتى ينتشـلها أحدهم أو تنفق سريعًا، فيصنع **الشـاهين** "سـنارا" لاصطيادها ويقضون الشتاء يقتاتون لحوم الطير والخضرة والفاكهة.

رَبَتْ "وفيّة" وجراويها، وولدتْ إناث الضأن والمعيز، وزوّج **الشاهين** جادَ ابنَ المرجوشي بإحدى بنتي الخبّازة زوجة الشـيخ **مهود**، وعاد **مهود وبوسنة** شابين يافعين يحملان الفؤوس والكواريك لعمل شاق لا يجهدهما، وصارت باجة تطحن القمح والأرز في "بور" صنعته من الحجر الأسود. فإذا انقضى شـهر برمودة أخذ الماءُ ينحسر والأوراق تتساقط والأغصان تجف والطيور تغيب والحرارة تشتعل والنهار يطول، لكن البحيرة لم تجف كما كانت، بل ظلت غائضة تكسـوها طبقة طينية ناعمة. وسيدعو الشيخ **تخلو** ويبتهل إلى الله بعد نحو أربعة عقود كاملة، وهو يتحسّس عمامة مقام

t.me/qurssan

الشيخ **مهود** بيقين المؤمن وعزيمته، أن يرزق الله ابنتهم **صبرنا** سمكًا تتوحّمه في حبلهـا، وأن تضعه ولدًا، إكرامًا لوجه وليّه وحبيبه المرحوم **مهود** عليه السلام، وستتحقق المعجزة فيؤمن مَنْ في قلبه ريّبٌ بمكانة الشيخ **مهود** ومقدرته، حين تذهـب إحداهن إلى تخوم البحيرة لتملأ جرّتها، فيذعرها كائنات قشرية صغيرة بها رائحة السـمك تسـبح في ماء البحيرة، فتصرُخ ويكون **تخلو** أول من تستدعيه الصرخةُ، فيعلن أن المعجزة وقعتْ واستجاب المهود ورب المهود لدعواته فأنبتت البحيرة الجبلية "قمرونًا" توحمته **صبرنا**، والذي سيسميه السوايسة حين يأتون الدومة بعد العدوان "جمبري".

وستُدون المعجزةُ بحروف كبيرة ظاهـرة في صفحات دفتر "الصاير" يتناقلها الدوايمة آباء وأحفادًا، ولن يقنع أيٌّ منهم بما سيقوله الحاج أرنولد الخواجة حين يقصّون عليه المعجزة بعد نحو ثلاثين سنة أخرى، ويدعونه بالرجل الخرفان الذي آمن وتشـهّد وصام وصلى وما زال يردُّ المعجزات الربانية إلى غير الله حتى تلك المعجزة التي نبت فيه السمك في قلب الصحراء. قال إن "القمرون" حط بيوضه على شاطئ بحر الشمال وحين جَزَرَ الماء عن الشواطئ جفّت البيوض في أماكنها ردحًا من الزمن، حتى حملتها الرياح نتيجة منخفض جوي في قلب الصحراء. حملت الريحُ البيوضَ كما حملت ذرات الـتراب والرمل لمئات الأميال ونثرتها في بقاع شـتى فنالت بحيرةُ الدومـة بعضها، حتـى غمرتها مياه العين فعادت الحيـاة تورق في الخلايا الميتة، وتطرح كائنات حية تسبح في جرار النساء. هكذا قال الحاج أرنولد

t.me/qurssan

الخواجة وهكذا ضحك الدوايمة كما ضحكوا كل مرة تحدّث فيها بلكنته العجماء المحببة إلى أسماعهم.

***

جعل سيدي **بوسنة** يدوّن في دفتره الجديد "صاير" الدومة يومًا بعد يوم كما كان يفعل في تنيدة، أول ميتة وأول زيجة وأول ولادة وأول لدغة عقرب وأول نفوق دابة، وأول فيضان للعين يملأ البحيرة، وأول فِرّةٍ تأكل الدواجن وعطب يأكل الموالح، يحصي مرات الرعي والشياه وأحوال العين والرياح، أول أذان يرفع وصلاة تُقام، أول الزائرين والعابرين وأول قافلة تتزود بمائهم وحبوبهم، وأول غزوة تهتك ستر الدومة وتسومها النار والبارود.

وسيفرد صفحتين كاملتين لزواج **الشاهين** بابنة ملك وادي البَخْت، والذي سيلتقيه **الشاهين** حين يقود الرجل شباب قبيلته المقبلين على الزواج للحج إلى جبل "السرجم" القريب من "بين الجبلين" لينالوا الخصوبة قبل إتمام زيجاتهم، فيعجب **الشاهين** بهيئته وبُردته الحمراء الموشاة بالذهب والطقوس التي يمارسونها وأكلهم لنبتة السرجم التي تنبت في ثنايا الجبل، فيهديه سجادة مطرزة تحمل صورة امرأة أوروبية عارية الصدر تخلب عقل الملك فيبصق في كفّه اليمنى ليصافح **الشاهين** بحرارة، ويتبعه أفراد قبيلته،

t.me/qurssan

يبصق كل منهم في كفه ويحكها بالأخرى ليصافح **الشاهين** تقديرًا واحترامًا، وحين يمسح **الشاهين** كفّ يده في ردائه بعد مصافحتين يلاحظ جزعهم فيدرك خطأ فعلته، فيشدّ بعدها على أيدي مصافحيه ويصحبهم إلى بئر النخلة، وهنالك يُشهد ملك وادي البخت رجاله أنه زوّج ابنته **شمس** بشاهين ملك وادي الدوم على أن يأتي بها في موسم الزواج القادم، فيعاهده **الشاهين** على اللقاء في ذات المكان في العام التالي، وحين يفي بعهده ويفد إلى جبل "السرجم" يلقى ملكَ وادي البخت ورجاله يقيمون خيامهم بانتظاره ليزفوا إليه عروسه هيفاء قوية البنية تخفي ملامحها تحت برقعها، فيحملها فوق جمله ويعود بها إلى الدومة.

تأبى العروس أن يكشف برقعها عن وجهها حتى يفضّ مغلقها ويضع بذرته وإلا راحت البركة وحلّت اللعنة وصار للشياطين حيّز في بيتهم فيناكحها **الشاهين** دون أن يرى شيئًا من ملامحها، وحين يفرغ تزيح برقعها عن وجه يليق باسمها شمس، صبيح مشرق ذي ملامح عربية ناصعة، وستنبت بذرته الأولى في جوفها ولدًا ستضعه يوم يأتي **عثمان أزرق** أول الغازين بجيشه ليفتح دومتهم لمهدي الله في بلاد السودان قبل أن تشبّ بذور الدوم التي غرسوا، ولن يحمل **الشاهين** وليده **المأمون** إلا بعد سنوات أخرى حين يعود من أسرِه لدى جيش المهدي يعانق تراب الدومة وحصيمها.

***

t.me/qurssan

7

على كتفه منجل دهب وبين يديه تورية
مِدّي الأمان والسلام سفح السودانية

عثمان أزرق قائد ميمنة عبد الرحمن النجومي في جيش الدرويش المهدية. جاء بين أنصاره فارين من معركة توشكي التي ملأت أنباؤها الأسماع ما بين مراكش والشام، ولم يكن عمر الدومةِ سوى أربع سنوات بالتمام، منذ حطّت قافلة **الشاهين** فوق أديمها، لكنها بدت قديمة أزلية وباقية أبدية. سنطها يناطح السحاب وثمر نخيلها يبسط حصير التمر بالرطب والسيوي والعجيزي. بيوتها تتناثر تحت الجروف، بعيدة نائية لا يهتدي إليها إلا من يسير على طريق القوافل إلى "أبوبلاص"، ويحيد عنه عند شاخصة صخرية متوارية على يمين الطريق، نحو نصف نهار داخل الصحراء.

t.me/qurssan

ولولا "الشواهد" التي اعتاد **الشاهين** نصبها عند نواصي النقوب ليستدل بها التائهون، لما اهتدى إليها **عثمان** أزرق وجماعته، ولربما دفنته الريح تحت سفيف الرمال، وعثر الشيخ حرب على عظام جيشه وعمائمهم فاحتفظ بها كما يحتفظ بخوذات المجوس عبّاد النار الذين طمرتهم رمال الصحراء منذ عهود.

رابط **عثمان** على أطراف الدومة وأطلق رصاص باروده فوق عريشة أحد الأجران حتى اشتعلت، أصابت ابنَ زوجة الشيخ **مهود**، وابن جاد المرجوشي، وأتان حُبلى كانت ترقد في سلام إلى جوار مخول العلف. كانت تلك أول بارودة تدوي طلقاتُها في هذه الأرجاء، وأول عهدها بالرصاص والنار.

ساد الخوف وتعالى صراخ النساء والصبية وفزعت الدواب وركض الجميع بلا هدى، واستعاد **مهود** ذاكرة غارات تنيدة والقلمون وخطف النسوة واسترقاق الأطفال وسلب الدواب، فأخذ يصيح أن يضعوا النساء وأطفالهن في مواكر الجروف الصخرية بعيدًا عن النار، أن يطلقوا الجمال والدواب تمزع إلى وادي "بين الجبلين" حتى لا يسلبها الغزاة جنودًا كانوا أو لصوصًا. لكن البيوت المتناثرة والمساحات العارية بينها لم تسمح لأحدٍ بالمراوغة والاختباء.

اعتلى **الشاهين** "طرمة" المسجد ليتبيّن مصدر النار، رأى ثلاثة من أنصار **عثمان** على أحصنة ضامرة مجهدة ترتفع بينهم راية هامدة لا لون لها، يعبرون

t.me/qurssan

المنزلة باتجاه السقيفة، نزل إليهم وبادرهم بالسلام فبشّروه بمقدم جند الخليفة عبد الله التعايشي خليفة المهدي عليه السلام إلى واحتهم في كتيبة عارمة، لإعلاء كلمة الله في زمام البلاد ونزع أرضهم من عصمة الإنجليز إلى عصمة الإسلام، فقال **الشاهين**:

- **أكلّم كبيركم!**

أخذوه إلى أميرهم **عثمان** أزرق، وهنالك رآه **شاهين** في بقايا جيشه المنهزم، نحو مئة وسبعين بينهم نساء وأطفال وعجزة مصفوفين في خطوط متوازية متباعدة توحي لمن يراهم من بعيد بالحول والعزيمة، قال **عثمان**:

- **هاكم ترون أننا لا نترك خلفنا ما نعود من أجله، نصحب ذوينا في معاركنا لندفع عنهم بأرواحنا ولا نهرب من أجل غالٍ أو عزيز، النصر أو الشهادة.**

وقلّب **الشاهين** عينيه بين الصفوف يطالع المصابين والوجوه التي تطفر من ملامحها محنة الهزيمة، فأراد أن يقول:

- **لكنكم أحياء ومهزومون يا أمير؟**

حبس لسانه خشية أن ينكأ جرح جندي مهزوم لم يندمل، وما زال سلاحه في يده. أجابه:

- **نحن مثلكم، ندفع عن أرضنا وعرضنا فالنصر أو الشهادة!**

t.me/qurssan

وردّد **عثمان** بعربية فصيحة أن الكل آمنٌ فيما يملك، وأنهم ما جاءوا معتدين يرجون الدنيا ومتاعها وإنما راجين رضا الله وكلمته. قال إن الدومة ستصير قبلة المجاهدين ومقصد أنصار الله ومنطلقهم إلى أرضه شرقًا وغربًا، سيبقى من فيها مأمونًا إلا إن أتى المعصية أو حضّ عليها، وسيظل خيارهم من قبل خيارهم من بعد إذا فُقّهوا، بل سيكون لهم فضلٌ على سائر بلاد الدنيا بعدما يستتبُّ الأمر لأوليائه ومصطفيه. وأيقن **الشاهين** أن حديثه ينبع من قلب معمور بإيمان راسخ لا سبيل إلى زعزعته، فأعلن ولاء دومته لجند الأمير ومهديه وخليفته، ورحب بهم وأكرم ضيافتهم.

أطلقت زوجة سيدي **مهود** زغاريد خفقتْ في السماء تعلن ولادة زوجة **الشاهين** شمس ابنة ملك وادي البخت، فيما حبستْ ستّي باجة الزغاريد في حنجرتها مراعاة لحداد زوجة **مهود** على ولدها الذي قتلته بواريد المهدية، فأطلقت الأخيرة زغاريدها تكابد أحزانها، تنشد فرحة جديدة في السماوات الرحبة.

أمر **عثمان** أفراد جيشه أن يباركوا لشاهين ولادة زوجته فردًا فردًا، وأهداه خنجرًا فضيًّا من غنائم حربه الخاسرة في توشكي، وأوصاه أن يسمي ولده **المأمون**. مكثوا في الدومة ينفضون أغبرة الهزيمة ويتدبرون في عظاتها، ردّوا أسبابها إلى ضعف نفوسهم ووهن عزيمتهم وقلة إيمانهم واغترافهم من الذنوب ما لا تطيق الجبال، وعزموا ألّا يخرجوا إلى الغزو حتى تصفى نفوسُهم وتغسل من أدرانها بالأذكار والأوراد والصيام والقيام.

t.me/qurssan

أقاموا مجلسًا للحكم وعينوا فيه واحدًا من الأنصار يحفظ ثلث القرآن وأرجؤوا مبايعته على الدومة حتى يعودوا من غزوة "باريس"، وأضافوا مساحة جديدة لزاوية الصلاة وقطعوا أربع نخلاتٍ سامقات ليقيموا سقيفة للمسجد بدلًا من سقيفته التي أحرقها بارودهم، وجعلوا السقيفة مجلسًا للحكم والشورى، وأرسلوا من يُهشّم التماثيل التي استخلصها **شاهين** من تحت الرمل ونصبها عند منزلة الدومة، فسارع **الشاهين** بإخفائها بين أكداس الحجارة وادعى أنه حطمها وطمر بقاياها.

ذبحوا جديين وتحلّقوا حول منقد الشواء يتناقشون في أمور الجهاد، وفي اليوم التالي خلعوا أرباع الجذوع عن عريشة مسطاح الزريبة ونصبوا مئذنة شامخة يعلوها هلال خشبي يستقبل مشرق الشمس، وتحلّقوا حول منقد الشواء وناقشوا خروجهم من جديد في سبيل الله. وحين عزموا الذهاب إلى "باريس" الخارجة جمعوا رجال الدومة الذين خلت جباههم من زبيب السجود وأسمعوهم كلام الله واستتابوهم وأمهلوهم حتى العودة، وسأل **عثمان الشاهين** أن يصطفي لهم دليلًا عالمًا بمسالك المفازة ودروبها فتطوّع **الشاهين** للمهمة بنفسه فبشّ له **عثمان** وأخلى له مكانًا في جواره. خرجوا تاركين خلفهم النساء والصبية وجريحًا لم يتعافَ من طعنة رمح في كتفه، سيلقبه الدوايمة تاليًا بالشيخ **المهدي**.

صحبهم **شاهين** إلى باريس بعد أن تزوّدوا بالماء والطعام، وفي طريقهم أسروا صيادًا للحيوانات الجبلية، استجوبوه فأقرّ بوجود رجال الحكومة

t.me/qurssan

وأخـبر عن أماكنهـم، العمدة ومأمور الدواليب وكاتـب المركز والنجار والساعي والمشايخ. أسروهم وأخذوا في طريق عودتهم خيول مركز البوليس وجملين وخرافًا ذُبحت للجيش الظافر، وقبل مغادرتهم استدعوا الرجال والنساء إلى باحات الجوامع يُسمِعونهم أوامر الله ونواهيه ويأخذون منهم البيعة لخليفة مهدي الله، ومضوا خلف **شاهين** إلى الدومة من طريق آخر، قال **الشاهين** إنه أكثر يسرًا وأقصر زمنًا، وسار بهم عبر "الأربعين" يختصر المسافات إلى بئر "الشب" ومنه إلى بئر "الزغاوي" فلما استطالت المسافات وتبدلت ملامس الأرض وطبائعها خالج **عثمان** القلق، فسأل **الشاهين**:

- **لِمَ أشـعر بالريح حـارة في وجهي بينما يجب أن تكون في ظهري؟**

فأجاب **شاهين**:

- **هي ريح الجنوب تأتي من بلادكم!**

- **وما شأنها بسيرنا؟**

- **صرنا قريبين من "أرقين" ولا سبيل لكم إلى الدومة يا أمير.**

علم **الشـاهين** قبل خروجهم بنيّـة **عثـمان** أزرق إبقاء بعضًا من رجاله بأسلحتهم لإعداد الدومة وتهيئتها كنقطة تموين لجيش الخليفة في حِلِّه هذه الأرض ليبسط راية الله على بلاد الله ويرفع راية الخلافة تخفق في الأنحاء، سبيله إلى ذلك بقعة بكر طاهرة في قلب الصحراء لم تدنسها معاصي الناس وشـهوات نفوسـهم، ولكي تبقى على بكارتها أمر **عثمان** بجلد من تُبدي

t.me/qurssan

زينتها سبعًا وعشرين جلدة وإن كانت فتاة شافعة ابنة سبع سنوات، وأمر بجلد من يسبّ أخًا ومن ينعت مسلمًا باللوطي ثمانين جلدة، وأن تُدفن من يُشهد عليها بالزنا حية في الرمل وأن تطأ الخيول رأسها إن كانت أرملة أو مطلقة، وقال إن هذي أحكام الله سيقضي بها من سيتركهم في الدومة من رجاله.

طلب **الشاهين** أن يرجئ الأميرُ أحكامه حتى عودتهم من واحات الخارجة وانتهاء المهمة على الوجه الذي يرضي الله عنهم، وأسرّ إلى زوجته شمس بعزمه أن يذهب صحبة الجيش ليضلهم عن الدومة، فناحت متهمةً إياه بخزيها مرتين، الأولى حين وصمها وخيّب رجاءها برفضه الزواج بأخرى تنتقيها وتكون سيدةً عليها وتفاخر أهلها بأزواج زوجها، والثانية حين قرّر أن يذهب دون رجعة لا تُعرف له أرض، يصحب جيشًا تأكله رغبة الانتقام، فعاهدها **الشاهين** أن يعود وأن يتزوج بثلاث أخريات وأن تملك يمينُه مثلهن.

قال **الشاهين** ليأسروه أو يقتلوه لكنهم لن يرتهنوا واحدًا من دومته، أو يجلدوا صبية من بناتها أو يذبحوا شاة من حلالها، يكفيهم ما أتلفوا من أعواد الفجل وما أكلوا من جديان وفراريج وكحاريت سافر لستة أيام في النهار والليل ليجلبها إلى الدومة بيضًا يفرخ.

قرأ **شاهين** في ملامح **عثمان** آيات الغضب البينات وأيقن ذبحه على يد جماعته، لا من أجل من خلّفوهم في الدومة من نساء المهدية وأطفالهم،

t.me/qurssan

فهؤلاء انقتل آباؤهم وأزواجهم بمدافع السيردار الإنجليزي مع قائدهم النجومي ولم يقووا على الفرار فساروا في أعقاب **عثمان** نحو الشمال بعدما قطع **جرينفل** قائد الجنود المصريين طريق عودتهم إلى الجنوب وحجب عنهم آبـار الماء. وليس بين جنود **عثمان** أزرق من يغتم لغيابهم ويحزن لفراقهم، بل ربما كانوا عبئًا ثقيلًا يسـتنزف قوتهم ومؤنهم ويشاركهم المطايا ويثقل خطواتهم في الرواح والمجـيء. ربما ذبحوه لظنهم أنه قد خانهم، تمامًا كما فعل كاتب قائدهم النجومي حين هرب من معسكرهم إلى معسكر الإنجليز فنقل أسرارهم وعجّل بهزيمة جيش خليفة المهدي عليه السلام.

هكذا أفصح له **عثمان** بمرارة المغدور، ولم يحاول **الشاهين** أن يُهدّئ نار غضبه، بل أخبره بعزيمة ذئب جائع يمضي خلف صيده أنه رفع "الشواهد" الحجريـة من النقـوب والمدقات كي لا يفكر **عثـمان** في بلوغ الدومة دون دِلالتـه، فإن فعل ابتلعتهم الرمال الصديانـة وماتوا شر ميتة، أمّا هو فلن يعود بهم إلى هناك ولو جزّوا رقبته جزًّا جزًّا.

أدرك **عثمان** أن لشاهين عقلًا طائشًا لا يدرك مكامن الخير ونفسًا أمّارة بالسوء تمتنعُ عن الهداية وتمنعها عن الناس، ولم يرَ **الشاهين** في سعي **عثمان** غير إجابة مريد من أتباع أحد الدراويش أصحاب المقامات لنداء شيخه، تمامًـا مثل أولئك الطوافات حول مقام سـيدي "المغـربي" في واحة تنيدة يتمسّـحن في ترابيع الخشـب والزخارف الملونة يضعن غالي ما يملكن في صواني النذور بنفوس راضية.

t.me/qurssan

الصياد الذي لم يصطد الضباب فسعى لاصطياد الضباع، انهزم جيشه على تخوم الجنوب وانذبح أميره وقائده، فسعى للغزو في موضع آخر بنصف قوام جيش بدر كما اعتاد يقول.

نعته **عثمان** بالخيانة، نَكَصَ بعد البيعة ونقض العهد وأنكر الوعد وسيكون أمره بين يدي من نقض عهده، فقال **الشاهين**:

- الخائن خائن نفسه، لا خائن الغزاة والمغاوير، أنا أفتدي ربعي، تريدون أتركهم تجلدون الصبايا، وتأخذون البعير!

- نحن ما أخذنا منكم أو من غيركم من خردلة إلا لتعيننا على طاعة الله وطاعة مهديه!

- قبل سنوات كان المهدي السنوسي يتهيأ للغزو في سبيل الله، أنا رأيته وتحدثت إليه، فأيهما مهدي الله؟

- لو جاء بالبينات لاتبعناه..

- جاؤنا "الطوارق" في تنيدة وسرقوا الدواب والنساء، وكانوا يُكبرون ويسبحون ويحمدون، تتبّعهم سيدي مهود وهشّم جرارهم ليهلكوا، هل خان مهود الله؟

- نعتق رقابكم من كَفَرة الإنجليز وترانا لصوص. عليك من الله ما تستحق!

t.me/qurssan

- الدومة لا تعرف إنجليز، مالنا ولهم؟ لا يخصونا! نحن نغرسُ ونأكل من غرسنا ونشرب من بطن الأرض.

يُكبّل **عثمان** أسيرَه ويخلي تحته جمله، وينزع من رجليه نعليه ويجرّه كمحراث قديم في نير ثور بري. يمضي بأنصاره إلى الجنوب مكدودين يهدمهم فَقْدُ أحبتهم وضياع مأملهم، هزمهم الإنجليز وقتلوا منهم ألفين وأسروا أربعة آلاف، لم تنل الهزيمة من عزيمة **عثمان** بقدر ما نال استسلام الأنصار. أربعة آلاف أنصاري ألقوا السلاح عندما حصدت المدافع أرواح إخوانهم، انهزموا دون التحام بالعدو وإيذاقه بأسهم، بأس المؤمنين المجاهدين حاملي الراية ناشري الرسالة، خبت جذوة الإيمان بالنصر في القلوب وساور الشكُّ النفوس، كانوا يُكبّرون باسم الله وأعداؤهم يُكبرون، فسمعت الملائكة هتاف أعدائهم وصمّت عنهم آذانها!

جنحتِ الجماعةُ ناحية نقب "المدهوش" تختصر الطريق إلى "**أرقين**"، فماز **الشاهين** آثار عجلات خشبية دوّارة، تحفّها آثار كثيفة لحوافر خيول وأخفاف جمال مغاتير سوداء وصفراء وبنية، فقدّر أنها آثار الهجانة عساكر المصريين وقوادهم بل قدر عدّدهم بست مئة وكاشف **عثمان** بما لديه، فأمر الأخير بتغيير الوجهة من أرقين إلى "سليمة" في صحراء الشمال. وأيقن أن في نفس **شاهين** خبلًا لا فسادًا، وأنه ربما لو كان أقسم عليه بالعودة إلى الدومة كي يترك مِن أنصاره مَن يصلح شأنها لأجاب، لكنها مشيئة صاحب المشيئة، لو أراد **الشاهين** لأضلهم عن السبيل وأوقعهم في أسر

t.me/qurssan

"**السردار**" الذي -لا بد- أبرقوا إليه بما فعلوا فعمد إلى مطاردتهم. وكان **عثمان** كلما نصبت الجماعة مبيتًا في طريق السفر أو اتخذت ظُلَّةً للطعام أو الراحة اقترب إلى أسيره بعيون تفيض بالحيرة والأسئلة المكبّلة لكنه يلجم لسانه برسن الغضب وشعور المغدور حتى باغته **الشاهين** يسأله عن وجه حيرته فقال:

- اخبرني عن المهدي السنوسي؟

- عليه السلام!

- كيف يأتي المهدي من الغرب، ومبايعته لا تكون عند الكعبة؟

- وأنتم جئتم من الشرق وبايعتم مهديكم عند الكعبة؟

- أنت تنكر على إمامنا المهدي نسيل الحسن ابن بنت النبي مهديته!

- لا، أنا أنكر أن يأخذ المهدي أرضي ليغزو.

- غزو في سبيل الله.

- تدري أن نفسين موحّدتين ماتتا ببارودكم، أحدهما وحيد لأمّه وأختين بلا أب؟

- أدري، واستغفرنا المولى وغفر لنا.

أفلتت من فمِ **شاهين** ضحكة ساخرة أثارت عروقًا حمراء نافرة في عنق

t.me/qurssan

عثمان وحفزته، فعدل **شاهين** عن سخريته وقال بلهجة جادة:

- أنت طيب السريرة يا أمير.. هرب جيشك أمام الإنجليز فرحت تبحث عن النصر في غير أرض المعركة.

- خسرنا المعركة لأن مثلك أنكر الدعوة ولم يؤمن.

- وستخسرون من جديد لأن مثلي سينكر الدعوة ولن يؤمن.

ومضت الكتيبة وأسراها عبر طرق صحراوية وعرة تتفلّتُ من دوريات الإنجليز في المناطق التي أعادوا احتلالها في شمال السودان، حتى بلغوا حدودًا آمنة بعدما تجاوزوا منطقة "سليمة" وصاروا معية خليفة المهدي عبد الله التعايشي، ليضع **عثمان** بين يديه أمر الأسرى إن شاء قتلهم وإن شاء قايض بهم من أراد من أنصاره المأسورين أو من رجال عرابي المنفيين.

ظلّ أسرى **عثمان** أزرق في حوزة الخليفة أربع سنوات كاملات، يؤدي كل منهم واجب الدعوة والرسالة في عاصمة الخلافة بما يملك من العلم وما يجيد من الصنعة، وصارت لشاهين مكانة وحظوة بما امتلك من مهارات الأدلاء قصاصي الأثر الملهمين.

أسندوا إليه المهام الصعاب، فأخلص في أدائها وبرع في إنجازها. كان دائمًا في مقدمة الأنصار بين القادة والأمراء يقول فيفعلون. وحده كان يميز بين آثار قدم الرجل والمرأة وبين البكر والثيب والشيخ والشاب والأعمى والبصير. كان فطينًا ذكيًّا ذا خيال، صبورًا موهوبًا ما جال خاطره بشيء إلا

t.me/qurssan

وكان كأنه ممسوس بالجن. صياد بفطرته يعرف أثر قدم الجمل التي تنهب الأرض نهبًا من أثر الناقة التي تلامسها لمسًا، والمطية التي تبول إلى الخلف فتكون ذكرًا من المطية التي يسيح بولها مع رجليها فتكون أنثى، بل يعرف أثر الناقة العشراء التي تنثر بولها على ذيلها فيتطاير من العوراء التي تأكل من جانب ولا ترى الجانب الآخر، يعرف أثر الذئب الذي يرفع رِجله ليبول، من الذئبة التي تباعد رجليها لتفعلها، يعرف آثار الأرانب البرّية والسحالي والثعابين والضباب وأحجامها وأعمارها.

يحصي أيامه ويرسم الدومة كما يتصوّرها كيف صارت، لا يتحدث إلى أحد إلا أخبره كيف سمق النخيل فتجاوز مراتب الصخور، وكيف أثمرت الأشجار حتى تساقط الثمر وكيف كبرت الأحورة وصارت نوقًا وجمالًا. وحين تنقضي السنة الرابعة يعلن **الشاهين** أنه عزم على مغادرتهم ليعود إلى أرضه وولده الذي لم يره إلا قطعة لحم حمراء في حجر أمّه، قرأ نهاية الخلافة فيما يدور من أحداث تتوالى ومؤامرات تحاك وأطماع تطفو كما يقرأ آثار الحوافر على صفحة رمل ساكنة، حاولوا استبقاءه فرفض وهدد بالهرب، فاضطروا إلى إجابة مطلبه وأرسلوا معيته بقية الأسرى عطاءً كريمًا من الخليفة لقاء ما قدمه من جهد ووفاء. وخرجت قافلتهم الصغيرة عبر النيل إلى أسيوط ومنها على أسنام الجمال إلى واحة باريس ليستقبلهم أهلها بالمزازير والدفوف، ويستقبل هو طريق دومته لا يني يسير دون نومٍ ولا راحة يصل الساعة بالساعة والنور بالعتمة تكلّ أقدام

t.me/qurssan

جمله فيخفف أحماله، يهرق مـاء القراب على الرمل ويلقي بأجربة الطعام ويغز سـيره حتى يصير على مشارف الدومة فيشـتم رائحة البحيرة وماء العين وأعواد البرسيم وأوبار الجمال وأنفاس من تركهم قبل أربع سنين أو يزيد، بينما تهب أنسام شمالية من قدميه إلى أحيائها فلا يدرون من أي جهة تأتي، تضطرب النفوس وتختلج القلوب وتعلق الأنظار بنقطة لامعة تتلألأ تحت أشعة الشمس تقبل من جهة المنزلة فإذا هو جمل أغتر(*) يمسك برسنه رجل في قامة **شـاهين** وخطوته، يجلس سـيدي **مهود** على حَجَره المسطح على يمينه **المأمون** وعلى يساره ولده المفلح. يشير إلى **المأمون** أن يمعن النظر إلى القادم من بعيد يقول:

- تـرى الممسـك بـ"كلسـة" الجمل هنـاك.. ذاك الشـاهين أبوك عاد يا مأمون!

***

(*) جمل أغتر: أحد أنواع الجمال.

t.me/qurssan

8

زعق البابور ع السفر،
ولكل روحة أوان
اللي يسافر جمل،
ما راح يعود حصان

تتابع أزيز الرصاص وتعالت أصواتُ الفوضى، وأعاد **المأمون** وصيته على مسامعهم بغتة وبلا مناسبة، ألّا يبنوا له قبرًا، بل يحفروا لجثمانه "تُربة" على قدّه ويردموه بالتُراب فوق رابية تراها الشمس من كل جهة، ألّا يغرسوا حوله سنطًا أو كافورًا، بل نباتات ليّنة فوّاحة حين تسرح جذورُها في جوف الأرض لا تعضعض جسده، أراد أن يذوب في التراب فلا يتبقى من لحمه نسيرة وإن عثروا على عظامه يطحنوها ويعيدوا نثرها فوق التلال والرُبى،

t.me/qurssan

وأن يدفنـوا "الملك جورج" في جواره حين يوفّى دون غُسْـل أو كفن بعد أن يجـرّدوه من القلادة وتاج الهدهد ويضعوهما في رقبة أكبر أبنائه. وأعاد حرب ما قاله من قبل:

- **هذي فتنة والله.. حراام!** ورد **المأمون** متعصّبًا:

- **رائحة بضون الجديان في أصابعك العفنة وصلاتك باطلة لأجل هذه الساعة، وتقول لي حرام، أنت تقول لي حرام؟**

هي ذاتها الوصية التي دوّنها له الشيخ "المهدي" في دفتر "الصاير" بين ما خطّ بمداد محبرته على صفحات أوراق الدفتر منذ أن تسلّمه من يد سيدي "بوسـنة" في حضور أشياخ الدومة وأبنائها ومباركتهم، وبعد أن تيبّست أصابع سـيدي "بوسـنة" فوق آخر نبأ يدوّنه بين ثناياه، ويقسم بعدها أن تكون تلك آخر كلمات يكتبها، وأن يسلّمه إلى الشيخ المهدي أكثر الدوايمة معرفة بالكتابة وأحسنهم نسخًا، إذ كتب:

- **بسـم الله الإله غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذي الطول، أنـه في يوم الجمعـة خامس من رجب من العام ألـف وثلاث مئة وثلاثين وثلاثة من هجرة النبي المصطفى الأكرم، الموافق إفرنجيًّا حادي وعشرين من الشـهر الخامس من العام ألف وتسـع مئة وخمسة عشر من ميلاد النبي عيسى بن مريم عليه وعلى المصطفى المختار صلاة الله والسلام.**

انتقل إلى معية المولى الأمين، سـيدي صاحـبُ البركة المغفور له مهّود بن حسيب جار الله...

t.me/qurssan

مات مهود كما مات سـليمان، عصاته تحت ذقنه يتطلّع إلى المياه الجارية مـن عين الماء إلى القنايـة المتمعّجة تروّي جـذور النباتات قبل أن تحط في حوض البحيرة، يمر به الذاهبـون إلى صلاة الجمعة فيرفعون إليه أيديهم بالسلام ولا يجيب كما اعتاد:

- **تالله وبركاته!**

وحين رُفع الأذان ولم يمضِ إلى صلاة الجماعة تأجّلت الإقامة وأرسلوا صبيًّا مـن الصفوف الأخيرة يرى ما أعاق سـيدهم عن تكبيرة الإحرام، فعاد يقول:

- **سيدي المهود مات تحت الظلة!**

انفضّوا إليه ينقلونه إلى باحة المسجد وأقيمت الصلاة.

كتب بوسنة النبأ، ثم أسلم الدفتر إلى الشيخ المهدي، وكان أكبر الدوايمة عمرًا وأحسـنهم كتابة وأحفظهم للقرآن، وفي ولايته على الدفتر شهدت صفحاته أوّلَ خلاف بين طرفين حول تدوين واقعة بين سطوره، إذ كتب المهدي: **"طلّق عبد الله ابن الشيخ المهدي ابنة عبد رب النبي"**، فأراد الأخير أن تدوّن: **"تطلّقت ابنةُ عبد رب النبي من عبد الله ولد الشيخ المهدي"**.

لم يكن المهدي في تدوينه يتّخذ مسلك سيدي بوسنة، والذي لم يستشر يومًا أحدًا في تدوين واقعة، إنما يقرؤها الجميع كما كتبها كأنه الكتاب نزل بالحق وبالحق نزل، إذ كان الدفتر ملكًا خاصًّا له لا يجرؤ أحد على الاطلاع

t.me/qurssan

على ما فيه إلا بإذنه، بينما لم يكن الشـيخ "المهدي" سوى أمين عليه يكتب ما يملى دون رأي أو مراجعة. حتى تسلّمه الشيخ مأمون من أبناء المهدي بعد موته نائمًا في فراشه.

وكثيرًا ما رفض **المأمون** أن يدوّن خبرًا توسّل صاحبه أن يُخلّد في تاريخ الدومة، مثلما فعل الخشّـاب "جابر الوكيل" قبل أن يصير شيخًا للطريقة المهودية، حين أثمرت شجرة الدوم التي زرعها الوكيل أبوه، وظل ينتظر ثمرهـا عامًا بعد عام حتى مات وبليت عظامه، وحين أثمرت الشـجرة، ركض جابر الوكيل إلى **المأمون** ووراءه عياله يتصايحون كأنّ الشجرة طرحت تينًا وزيتونًا وطور سنين. فاستقبلهم **المأمون** يقول:

- حين تطرح لكم شيئًا غير الدوم تعالوا!

وكذلـك فعل "نسّـاج الحصير" حين وضعت أتانه جحشـين في بطن واحد. هلّل وكبّر وقال هذي أول نادرة بالدومة. ورفض **المأمون** تدوينها كذلك مؤكّدًا أنه حين يشرع في تدوين أخبار البهائم سيرسل إليه. إلى أن غـدا الدفترّ بعد ذهاب هيئة التعمير أثرًا محفوظًـا لا يُفتح إلا للتندّر بأيام بهتت ذكراها في أذهانهم.

للمأمون ثلاث صفحات كاملات في متنه، إحداها دوّنها سيدي بوسنة يوم بلغ **المأمون** الحادية عشرة فأرسله **الشاهين** رفقة سريّة سنوسية عائدة مـن القاهرة إلى الكفرة عثرت على الدومة بعدمـا عُبّدت المدقاتُ الجبلية

t.me/qurssan

التي تصلها بطرق القوافل لكثرة ما طرقتها أقدام الأنفار وأخفاف الجمال، وعرف **الشاهين** سنوسيتهم من الأجراد والبرانيص(*) البيضاء التي يرتدون، والتي سبق له رؤيتها في رحلته إلى الكفرة رفقة قافلة الأجانب.

كانت السريّة في مهمة إيصال رسالة من السيد **أحمد الشريف** زعيم السنوسيين إلى **ماكسويل** قائد القوات البريطانية في مصر بشأن جهادهم ضد الفرنساوية الذين يستعدون لغزو بلادهم من الجنوب والطليان الذين يسعون لغزوها من الشمال، ولم يكن **الشاهين** حتى ذاك يعلم أن المهدي السنوسي الذي رآه وصافحه منذ سنوات رفقة الخواجات وانتظر غزوه بلادهم قد مات وخلفه أخوه أحمد الشريف في الزعامة، يومها أراد لو أبلغ الأمير **عثمان** أزرق قائد بقايا الجيش السوداني أن مهدي الغرب الليبي مات كما مات مهديهم السوداني في الجنوب دون أن ينبعث عيسى المسيح ويصلي خلف أي منهما.

أرسل **شاهين المأمون** إلى الكفرة ليتعلم في زواياها وقد صارت قبلةً لطلاب العلم والجهاد من الجهات الأربع، ولم يقنع بما ألمح إليه قائد السرية أن راية الحرب أشرعتْ وابنه صبي لن يطيق أجواءها وربما عاد إليه عالمًا يقرأ الكتاب، وربما ما عاد أبدًا. لم يخشَ **الشاهين** فَقْدَ ولده مثلما خشي أن يعتاد **المأمون** عبطَه، وأن تكسبه حبسته بين أرجاء الدومة قلبًا لينًا يخشى المغامرة فلا يجيد سوى صيد الطيور والزواحف الصحراوية واللعب في

(*) الأجراد والبرانيص: ملابس تقليدية شعبية ليبية للرجال.

t.me/qurssan

ماء البحيرة دون أن يكتسب أيًّا من مهارات أبيه في الرعي وتقفي الآثار والترحال ومعارف الإبل والآبار، رغم ما حظي به من مكانة بين الوافدين الجدد، كونه ابن شيخ الدومة وكبيرها.

رافق **شاهين** السرية حتى انتصف طريقها، وكان **المأمون** مسلوبًا بحكايات السفر التي صبّها في أذنيه سيدي المهود وسيدي بوسنة فلم يدرك حقيقة ما أقبل عليه إلا بعد أن تركه **الشاهين** يواجه أيامه. غاب في نوبة نشيج مُرّ لم يفلح في كتمانه، أراد لو عاد ليلقم رأس **مهود** بحجر فيشجها، لكنه عاد بعد عامين كاملين بين قافلة حجاج عابرة، مرّتْ بقرية "تنيدة" فظلّ بها لثلاثة أشهر يعمل في كتاتيبها محفظًا للقرآن بانتظار من يحمله إلى نواحي الدومة أو مجيء أي من الدوايمة في حاجة من الحوائج. إلى أن أتاها أبونا **بشندي** وأبونا **مينا المنسي** عائدين من زيارة الكنيسة في أسيوط ومعهما حاجات الدير والقلايات في جبل الخشب كما اعتادا، أخبرهما العمدة عن عودة **المأمون** وبقائه في ضيافته، فباركاه ورحّبا برفقته، لكن **المأمون** لم يفعل، بل حاول الهرب من صحبتهما بانتظار مسافر جديد يطمئن قلبُه إلى صحبته حتى إذا قضى أجله في هذه السَّفْرة لا يُبعث يوم الحشرِ بصحبتهما، وأسرّ للعمدة بدواخله فأنكرها عليه وذكّره كيف كان **الشاهين** أبوه يطرق المفاوز دليلًا لخواجات لا دين لهم ولا ملّة.

اصطحبه الراهبان إلى وادي الدوم، ولم تكن تلك هي المرة الأولى التي يزور فيها رهبانُ "جبل الخشب" الدومة يجالسون أشياخها ويستظلون بعريشة

t.me/qurssan

سقيفتها. كانت المرة الأولى بعد أن ذهب **الشاهين** إلى "بين الجبلين" بقطيعه ليغلق أفهام المواكر والمعامر ويبحث عن الشبح الأسود الذي خرج من عصب الجبل لينقذه من مخالب الضباع، فعثر على الدير القديم والمغارات التي يتوارثها رهبان متوحدون قلايات للعزلة والتعبد. أخبروه أن ديرهم هو بناء روماني قديم أرشد الرب إليه أبناءه منذ سنين، وأنهم عرفوا عين الماء التي عثر عليها وعمّر ما حولها، لكنهم ظنوا أنها ناضبة جافة، فتعيّشوا على ميشات الماء التي تتجمع في بطن الجبل بمواسم المطر ومكاييل الطحين التي يجلبونها كل نصف عام من أسيوط، حتى جاء هو يرعى في الوادي الذي أسماه "بين الجبلين" فعرفوا أن العين عاودت فيضها وأن هناك مَنْ قرّ إلى جوارها.

يومها قضى **شاهين** النهار كاملًا يستأنس بهم وينصت إلى حكاياتهم يتعجب لتدابير الله وأحكامه، وأقسم عليهم أن يزوروا الدومة ليشهدوا بعظمة خالقها وجلال مبدعها، فأجابه أبونا مينا المنسي وبشندي وصارت الدومة المسرّة التي يقصدانها، لا يغيب قمر ووراءه قمر إلا زاراها وشاركا أهلها شؤونهم وأحوالهم. وبقيا على هذي الحال حتى تنيّحا.

وأحب الدوايمة زيارات الراهبين وحكاياتهما وعظات القديسين ونكات أبينا بشندي التي يبثها قصصه ومروياته، وصار اسماهما "أبونا" **الشيخ بشندي** و"أبونا" **الشيخ المنسي**، ولم يكن غريبًا أن يتردّد سؤال الدوايمة عند كل زيارة:

t.me/qurssan

- كيف وصلتم إلى هنا؟

فيقول أبونا الشيخ **بشندي** إن الرب جاء بهم دون اختيار منهم ولا مشيئة، ليرثوا قلاية أبينا حنّا الزمار، قال:

*(أبونا حنّا الزمار كان راهبًا في دير أبينا أنطونيوس في البحر الأحمر هناك ناحية الشرق، لكنه كان أميًّا لا يقرأ ولا يحفظ المزامير والتسبحة فطالبه رئيس الدير بالمغادرة حتى لا يثير بلبلة بين الرهبان المكلفين بالقراءة، بكى أبونا حنا الزمار وطلب من رئيس الدير أن يأخذ معه قلايته، فظنّ أن مسًّا أصاب عقله، فأجابه بإشفاق: **خذها إن استطعت!** فصنع أبونا حنا أمامهم "**مطانية**"، سجدة كالتي تسجدونها لله حتى تلامس جباهكم الأرض! ثم جلب حبلًا وحزم به الغرفة وأخذ يسحبها حتى انفصلت عن حوائط الدير وهو يقول "**سيري يا مبروكة**". فسارت خلفه القلاية كنعجة تتبع أمّها، شهد الجميع بمعجزته وطلبوا منه العودة متى أراد، ولم يدرِ حنّا الزمّار في أي أرض يضع قلايته حتى اهتدى إلى هذا الوادي وهذا الدير المهجور. وحين عاد بعد سنين إلى رئيس الدير يطلب في محبّة كتابًا مقدّسًا ومزامير وتسابيح وعظات للقديسين صحبه في عودته رهبان متوحدون آخرون).*

وما كانت تنتهي أحداث قصة يحكيها أبونا **الشيخ بشندي** حتى تتعالى تكبيراتهم وتلهج ألسنتهم بذكر الله والصلاة على نبيه المصطفى

t.me/qurssan

إيمانًا بمعجزاته، وحين يغادران إلى جبل الخشب يتربّع **الشاهين** إلى جوار الشيخ **مهود** ويشبك أصابعه خلف رأسه مستندًا إلى أحد جذوع النخيل التي تحمل السقيفة يقول:

- سبحان الله.. هؤلاء يريدون وجه الله يا شيخ مهود؟

- الله لا يريد تنقطع في الجبل وتقطع نسلك لتعبده يا شاهين، الله يريدك تعمّر أرضه.

- ولو كانت الأرض مظلمة والنور في قلب الجبل.

- الله يريدك تنير المظلم وتعمر الخراب..

- هذا ذنب يُدخل النار يا سيدي؟

- يا أخي كل واحد يرى الجبلَ من ناحية ولا يعرف ما وراءه؟

- أريد أبعث المأمون ليتعلم.

وحين عاد **المأمون** من الكُفرة لم يُشبع علمه توق **شاهين**، بالكاد تعلم الكتابة وحفظ أحد عشر جزءًا من ثلاثين، وحفظ أوراد السنوسية ودرس المالكية وشيئًا من التصوّف، وأتقن حمل السلاح وضرب البارود ليكون سيفًا للدين وقتما يُدعى، وحين أخذتِ الزوايا تتحوّل إلى مراكز لتعبئة المجاهدين، صرّ بقجته ودفع ستة جنيهات مصرية كاملة، هي نصف ثمن

t.me/qurssan

جمـل، ليحجز مكانًا في قافلة حجيج تمر بالواحات الجنوبية في طريقها إلى مينـاء عيذاب على البحر الأحمر، فلـما وصل قريبًا من تنيدة أخذ منابه من الماء والطعام، وأهداه شيخ القافلة تاجًا نحاسيًّا له رأس هدهد، أخبره أن هذه التيجان لا يضعها سوى أمراء قبيلته، وأن الهُدهد شارة القبيلة وعلمها يمنح من يحمله حكمةً وبصيرة. وحكى له كيف اكتشـف النبي سـليمان غياب الهدهد حين تفقد الطير، وأوصاه ألّا يخبر أحدًا بهذا السرّ.

تحدّث **المأمون** بما عاشه في واحات الكفرة من أجواء الحروب والمعارك وأخبارها التي كانت ترد من الشمال والجنوب، أكثر مما تحدّث عما تعلم من شريعة وفقه وعبادات. أعاد سرد ما سمعه في زوايا السنوسية عن السيارات التي اخترعها الألمان لتمخر رمال الصحراء فوق جنازير حديدية، ومدافع الطليان التي تضرب على مبعدة سفر، وأساطيل الإنجليز التي تسُد مضايق البحر، والطائرات التي تضرب البارود من السحاب فلا تطال حيًّا إلا مزقته، وأعلن على مسامع **الشاهين** والمهود وبوسنة والمرجوشي والخشاب الوكيل بلسان الخطباء المفوهين وفصاحتهم أن الخلافة ودولة العثمان إلى زوال، وأنّ على المسلمين أن يعدّوا عتادهم للجهاد الكبير. وأصدر فتاوى دينية طربَ لها **الشاهين** فأمر بصيرورتها، أفتى بإبخاس مهور الزواج، وتوريث النساء، وجمع الصلوات وقصرها عند السفر إلى وادي "بين الجبلين"، وحظر صيد الشحيم وأكله. إلى أن أصدر فتواه بحرمانية الإبقاء على "المناحيت" التي قال إنها كانت أصنامًا تُعبد، فجزع **الشاهين** لفتواه قائلا:

t.me/qurssan

- أرسلتُك عامين لتتعلم أثارات القدماء حرام؟

ولم تمر سوى شهور قليلة حتى استعاد **المأمون** سمته الصبياني قبل سفره، يسبح في مياه البحيرة حين تفيض مياهها ويطارد الحيوانات الصحراوية، متوجًا بتاج الهدهد الذي تحصّلَ عليه من قافلة الكفرة، يراقب أسراب النمل حول وريقة شجر يتتبع صفوفها ويردد:

- حدثوني كما حدثتم سليمان! فيقول **الشاهين**:

- كأنك انخبلت وتقول خراريف؟

- أحب الأباخيش!

- تحب الحشرات والسحالي؟

- كما تحبون الزرازير والشحيم.

- هذي طيور نظيفة وشهيّة لا تؤذي؟

- وهذي الأباخيشِ جميلة طيبة..

لم يكبُر **المأمون** مثلما رجا **شاهين**، عدا أن صار بإمكانه أن يؤم المصلين في صلوات الجماعة إنْ أذنَ له الشيخ المهدي، الذي تركه **عثمان** أزرق شابًا مصابًا في الدومة يوم غادرها إلى الخارجة، فبقي المهدي وتزوج وأنجب وتولّى التدوين في دفتر الصاير بعد موت بوسنة. وكلما تساجل **المأمون** مع أحدهم في مسألة، أفحمه بسؤال لا يعرف غيره سر إجابته:

t.me/qurssan

- **كيف علم سليمان بغياب الهدهد؟**

وكانت الإجابات تأتي على اختلافها خاطئة بعيدة عن الحقيقة التي امتلكها **المأمون** وظلّ يحتفظ بسرّها وحده لا يتقاسمه مع أحد، كما أوصاه شيخ القافلة التي جلبته من الكفرة، وظلّ سؤاله يتردد بين الدوايمة زمنًا بعد زمن، أعجز به المهود وبوسنة والمهدي وجابر الوكيل وبيومي ابن جابر الوكيل وتخلو والسنوسي ومريدو المقام وشيوخ الطريقة المهودية.

زوّجه **الشاهين** زيجتين ثم زوّج **المأمون** نفسَه زيجتين، وأنجب ثلاثة عشر لم يتبقَ منهم حيًّا سوى خمسة بينهم سيدي "**حرب**"، و"**جلا**" زوجة **شروفة**، وزوجة سعد المرجوشي، وزوجة جلال طنبور، وصار جدًّا لنحو ثمانية وأربعين من الأنسال. تسعة عقود أتمّها **المأمون** وما زال ما تبقى من ضروس فكّيه قادرًا على طحن لحم الضباب المطجونة، لكنه لم يعد قادرًا على نحت ثمار الدوم الناضجة بعد أن سقطت قواطعه الأمامية في أزمنة مختلفة. يكتفي بمراقبة واحد من أحفاده أو واحد من أبنائهم وهو يقرضها بهمة فأر جائع حتى يتلوّن لسانه وشدقاه باللون البني الفاتح.

صار أطفال الدومة يتوارثون هذه المهمة ويتداولونها بينهم، يعرفون أنه حين ينادي أحدهم عندما يمر مصادفة من أمام السقيفة، فإنه يفعل لأحد أسباب ثلاثة: إما لكي يتكئ على ذراعه حتى ينهض، أو ليعطيه ثمرة دوم يأكلها أمامه غصبًا حتى يستخلص بذرتها عارية ناصعة يغرسها عند

t.me/qurssan

ناصيـة بعيدة، أو لكي يجلب له ماجور مياه نقية يحمّم بها "الملك جورج" ليصحبه في سفر قريب.

المأمون ثالث مواليد الدومة، بعد مفلح ابن سيدي **مهود** والمرحوم سعد ابن جاد المرجوشي، لكنه يُصرّ أنه الأكبر، رأى أربع ثمرات دوم متناسلة من بعضها. ولا ينازعه صفته هذه غير سـيدي **تخلو** الذي يصرُّ أنه عندما جـاء الدومة كان أكـبر من **المأمون** بعامين، فيعـود الأخير يبحث في دفتر "الصاير" عن صفحة دوّنها سـيدي بوسـنة يوم عثر **الشاهين** على سيدي **تخلو** جثة هامدة لم تفُح رائحتُها بعد، فلا يجدها. يصيح غاضبًا:

- يـا تخلو أنت ناكحت تـوتة أم عيالك في فنطاس مي، لا أحد يأخذ بكلامك!

فيقول **تخلو** مباهيًا:

- أنا أكثر من ندّى إحليله بزلال النساء، هذا من فضل ربي.

ويطيل **الطيبُ** النظر إلى جده **تخلو** ينتظر إجابته على ادعاء **المأمون**، بأنه ناكح جدته في فنطاس مياه، فلا يرى سـوى ظلّ ابتسـامة قديمة منحوتة فوق ملامح وجهه.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

9

دي قبل ما تقراه عرفت جميع ما فيه
بصّت على جبهته لقت العلامة فيه

لم يكْذِب الشيخ "مأمون"، ولم يكَذّبه **تخلو**، كلهم يعرفون الحكاية، سيدي **تخلو** حكاها بلحمة لسانه الحمراء غير مرّة. يعرف أن أصله عبد كردفاني لم ينطق كلمة عربية قبل أن تحط قدماه هنا في وادي الدوم، لا يذكر قبلها إلا أشلاءً متفرقة لذكريات باهتة كان في إحداها صبيًّا يحمل قدرًا ممتلئًا بالكركديه إلى تاجر حلبي يزور قريتهم في جبل الداير ليجمع دِلال بضائعها. يرمح كالجحش البرّي لا يتوقّف إلا ليشاهد تكاثُرَ الدجاج ونكاح الدواب، أو ليتلصص على النسوة في بحيرة "التِّردة" يشلحن ملابسهن ويغصن في مياه البحيرة. لم تتبدّل طباعه شابًّا وشيخًا وكهلًا، أرعن "زمزاق"

t.me/qurssan

كما ينعته سيدي حرب. لا يذكر أن كان ابنًا لرجل وامرأة، بل جروًا ضالًا بلا "وجار" يأويه.

أعطاه التاجر الحلبي وجهًا باشًّا وحفنة من قوالب السكّر فلازمه كمرض شتوي مزمن، من الداير إلى "وسيلة" إلى الرهد، بأقدام حافية وقميص متهدّل وطاقية تخفي شعرًا قصيرًا مجعدًا يمسح بها مخاط أنفه كلّما تدلّى. أعطاه الحلبي لوكيل قافلة تتهيأ للمغادرة نحو الشمال، قافلة كبيرة، أكبر من قريتهم في "الداير" يوم خرجت لاستقبال الشيخ المَنّا إسماعيل حليف المهدي -عليه السلام- في جهاده على الكفّار، قافلة ذات جِمال عظيمة، أسنامُها أكوامُ الحصيد، وأقدامها سيقان الكافور، تحمِلُ هوادج كبيرة مزدانة بستائر مسدولة. خيولها أعمدة رخامية ملساء، وناسها من كل لون ومشرب ولسان.

أدخلوه تحت مظلةٍ ترتفع على جذوع النخيل يتكدّس تحتها عشرات الصبية والصبايا مقرفصين متحاذين متلاصقين شبه عرايا. تفحص حكيمٌ بنظارات سميكة جلدَه وشعره وفروة رأسه ودُبُره وتحت إبطيه وبين فخذيه وأسنانه ولسانه، يضغط بطنه ويكتم أنفاسه فيضحك بسعادة لا مبرر لها سوى بلاهته، بينما الآخرون يموتون في جلودهم رعبًا وانتظارًا. أخذ التاجر الحلبي ثمنه جوال ملح كبيرًا وغادر دون أن يلوّح له بسلام ودود أو يلقي إليه بقالب سكر أبيض كما اعتاد، فدسّ أصابعه لتطمئن إلى مكعبات السكر التي تكتظ بها سيالته.

t.me/qurssan

ماز الحكيم من بينهم متقرحي الجلود والمبهوقين ومن بدا عليهم هزال أو مرض وأقصاهم بعيدًا، ثم ألقوا لهم بأرغفة خبز بيضاء كبيرة شهية وأعوادَ "رِجْلة خضراء" التهم **تخلو** منابه وتخطّف من منابات أقرانه.

وعندما أخذ الحكيم يدهن أجساد البنات بزيت "الودس" وفاحت الرائحةُ نفّاذة محبّبة، لم يحاول اختلاس النظر إلى أجسادهن السمراء العارية كما فعل بعض الصبية خائفين، بل سدّد نظراته شرهةً متطلبة حتى انتزعته صفعة من يد الأفندي قائد القافلة ثقيلة كرأس مطرقة، وكوّمته جوال ملح خشن ينتظر حامله. صفعة رجلٍ مهيب يرتدي حمالتي أكتاف فوق قميصه الفاتح، وبنطالًا فضفاضًا وحذاءً برقبة طويلة يخفي قصبتي رجليه. بين أصابعه مسبحة من العقيق لا تكف عن الطقطقة، يعنّفه ويقول بلهجة مصرية واضحة:

- **اختشِ يا كلب وغض بصرك؟**

لم يفهم حرفًا من لسان الرجل لكنّه غضّ بصره واختشى إلى أن غادر الأفندي المظلة لصلاة المسجد ثم عاود مطالعته بنهم. وبعد صلاة جامعة اصطف فيها الناس خلف إمام يصدر صوته عن مصداح معدني، أعطوه حِمْلًا من الخشب رفعه بهِمَّةٍ وعزيمة وسار بين أقرانه لا يعرفون وجهتهم، فقط عرفوا من أحاديث دارتْ بين عمّال القافلة، أنهم لن يركبوا بحر النيل إلى الشمال، لأن الوالي المصري والإنجليز يصادرون القوافل التي تحمل

t.me/qurssan

العبيد بعد أن قاموا بتحريم تجارتها، وإنما ستركب قافلتهم درب الأربعين في صحراء أرحب من سماء صافية.

تحرّكت القافلة هائلة عظيمة، مدينة كاملة لا يرى مَن في صدرها عجزها، جِمال لا يحصيها عدد ورجال خفاف وركبان، ونساء مدهونات بالزيت يكشفن شعورهن قبل دخول المدن. دواب ومواشي محملة بالمؤن، وصبيان يحملون أعلافًا وأخشابًا سيوقدونها تحت قدور الطعام نهارًا، وفي مناقد التدفئة عندما يزمهر برد الصحراء على طول الدرب ليلًا.

في الفاشر أعادوا ترتيب القافلة. واتخذوا الدرب من منبته. وبينما يتسلل الوهنُ إلى أجساد الحداة والحراس والعبيد ويلجم الخوف ألسنتهم، وتنوء كواهل الصبية بما تحمله من أخشاب ومؤن، لم يكفّ **تخلو** عن الثرثرة، سرق ألسنة قريته قبل هروبه كما قالت بنتٌ شهية سمراء كالتوت الناضج، رأى **تخلو** أبزازها عندما فحصهم الحكيم في خيمة الدفاتر وبقي في ظلها قريبًا يحدّق في ملامحها بابتسامة واسعة بلهاء كشفت عن صفي أسنان ناصعة وشفاه غليظة داكنة، وعندما ناءَ كتفه بحمولة الخشب، صاح:

- يا عم.. هذا خشب طرفا!

لم يلفت انتباه أحد، فقط لكزته خيرزانة في يد حارس تدفعه إلى الأمام فعاود صياحه:

- هذا خشب طرفا!

t.me/qurssan

أشار إليه الوكيل يحثه على الحديث، فقال:

- هـذا شـجر نـاره خافتـة، كثير الدخـان، لـن تسـتدفئوا عليه ولن تطجنوا.

اختبر الرجل سـلخيتن، وتبيّنَ نصاحةَ الولد فصفعه من جديد لأنه لم يصرِّح بما يعلم مبكرًا قبل أن يبلغوا من سيرهم هذا المبلغ. لعنه **تخلو** ببرطمة غير مفهومة، وأقسم ألا يشير عليهم بما يعلم ولو هلكوا وهلك معهم.

توقفوا وأرسلوهم من جديد ليحتطبوا قبل عبور التخوم نحو بئر سليمة. اسـتأنفت القافلة سيرها، وكلما ساخت أقدامهم في الرمال زادت أثقالهم وانشغلوا بحمولاتهم، بينما لم ينشغل سوى بالصبية التي تشبه التوتة وأبزازُها حبّ الرمان الناضج فوق شـجره. حتى عندمـا اندس في أول الصفوف ليكون بين الذين سيشعل الحداةُ أخشابَهم أولًا ليتخفّف من ثقلها، سرعان ما عاد إلى حيث تسير العربات التي تجرها البغالُ وتحمل الإناث بالتناوب مجموعة بعد أخرى. يتفرّس النسوة في صعودهن ونزولهن، يراقب وكيل القافلة والأفندي وهما يتفرّسان أجساد الصبايا بوجه باشٍّ خاشع. وبينما يقلّب الوكيل أجسادهن كمن ينتقي حبات فاكهة طازجة، يتورّعُ الأفندي عن لمسهن، يقلب حبّات سبحته بكلتا يديه ويحرّك شفاهه لاهجًا بالتسبيح والتكبير، حتى يشـير نحو إحداهن لتنزل عن العربة. حبشـية بضّة ذات

t.me/qurssan

صدر رجراج وشعر أثيل ومؤخرة عظيمة، يقول الوكيل مبشرًا الحبشية أنها ستصير من الآن في يمين الأفندي، يجلب حاجاتها القليلة من العربة ويمضي بها إلى حيث سبقه الأخير، بينما تنفرج أسارير **تخلو** عن ابتسامة عريضة أن الأفندي لم تعجبه فتاته التي تشبه التوتة ولم يخترها.

تدخل القافلة زمام قارة رمال ناعمة، فيفككون العربات، ويحملون عجلاتها الخشبية وعريشتها، ويمشي الجميع مترجلين، أغلبهم بلا نعال محملين بحاجات القافلة التي لا تحملها الدواب، ثم يعيدون تركيب العربات. يجدِفون بعيدًا عن مجرى النيل هربًا من مُصادري العبيد وجباة الضرائب واللصوص، ومن جنادل المياه عند ثنية النيل الكبرى التي تتحطَّم عندها السفنُ ويهلك ركابها، يتخذون طريق الأربعين إلى "باريس" لتصير معبرهم إلى أسيوط الصعيد والفيوم. يمر اليوم السابع قبل أن تعبر القافلة تخوم الجنوب وتصير على مبعدة يومين من بئر "**الشبّ**" فتتواترُ الأنباء عن تعيين إحدى الحاميات على الطريق لفرض مكوس على قوافل العاج والصمغ والعبيد الهاربة من طريق النيل ليسمحوا لها بالمرور باتجاه البئر للتزود بالمياه. يأمر الأفندي وكلاء القافلة بتقطيع أسطوانات العاج وإخفائها في ملابس النساء، يقطعونها بمناشير حدادية لتباع بالمثقال للإنجليز والفرنساو بعد صقلها وتنعيمها كرات بلياردو وأصابع لآلات البيانو، ويأمر بإخفاء الصِّبْية في فناطيس المياه الفارغة. فيسارع الحراس يدفعون الصبية بالخيرزان ليقفزوا داخل الفناطيس حسبما اتفق دون مراعاة لحجم أو جنس، فقط تشير طرفُ

t.me/qurssan

الخيزرانة إلى مجموعة متقاربة فيعدو أفرادها إلى الفنطاس بابتهاج الحُرّ بعد أسر طويل. وحين تشير الخيزرانة إلى حيث يقف **تخلو**، يتشاغل عنه ويتلوى كثعبان بين الأجساد ليصل إلى توتته. يرعد الحارس ويشير من جديد إلى حيث يقف فيندفع صبيان إلى فوهة الفنطاس، بينما هو يدفع البنتَ أمامه لتستجيب رغمًا عنها، تقفز عَبْرَ فوهة الفنطاس ويتبعها كذيل ردائها، ولا يكاد يصل إلى مدى الخيزرانة حتى تنزل فوق سلسلة ظهره فتفرطها وجعًا وتشق أسنانُها خطًّا مائلًا من الدم تحت قميصه الخفيف، لترهب من يفكّر في التراخي بمصير مماثل. لكن أوار رغبته يخفي لهيبَ وجعه، فينحشر بين البنت وبين الصبيين الآخرين كحبة طحين بين حجري رحى. لا تسمح لهم جدران الفنطاس بالتمدد جميعًا في وقت واحد، يقرفصون ويتصبّب العرق فوق أجسادهم، يقول لها بابتسامة لا تغادر وجهه:

- **تشبهين التوت يا بنيّة!**

تشير إلى نافوخها بطرف سبابتها تقول: "**مخبول**"، وتنكمش في موضعها مرتعدة، يحاول طمأنتها، يمنحها قطعة متسخة من قالب سكّر سبق أن لعقها حين تركه التاجر بلا تحية وداع. تقبلُ هديته، تدسّها في فمها ويبدو بروزها في صدغها فتلتمع عيناها بلذة الشبع والامتلاء. تظلّ على انكماشها وكلما تحرّك لسانها متلمظة اهتاجت رغبته وتقلبت بين ضلوعه وفخذيه. يمد ذراعه إلى صدرها ويقبض على بزّها، تلطم وجهه بصفعة ثقيلة لم تفلح في زحزحة ابتسامته ونظرة الشبق التي فاضت من عينين مفضوحتين. ينتقل

t.me/qurssan

ارتعابها إلى الصبيين الآخرين دون أن يجرؤ أيهما أن يتفوّه.

تحركتِ القافلة وشعروا باهتزاز الفناطيس فوق العربات، وأصوات الحداة يرددون ما يقوله الأرباب ليبلغ آذان الجميع:

- *على النساء والجواري ألا يستجبن لمن يطلب منهن النزول، ولا يسمحن لأفراد الحامية بتفتيشهن، أن يرددن أمامهم "الله أكبر"، حتى من لا تجيد العربية ومن لم ينرِ الإسلام قلبها بعد، ألا يصدر عن الرقيق في الفناطيس همس ولا حركة، من يفعل يقتل!*

وتخلو في ملكوته يتحسّس ثنايا جسدها يحاول اكتشافّ رموز منقوشة في جدران كهف حجري قديم، لم يكن قد رأى ماءه على فرج أنثى ولم ينكح يده، ولا يعرف عن ركوب المرأة إلا ما رآه متلصصًا من كوّات بيوت القرية بين الرجال والنساء، وفي قاع الوادي والزرائب بين البهائم والدواجن. لكن الرغبة المحمومة بين فخذيه تدفعه ليتحسّس جسدها السمري الناعم، يلصق عضوه المنتصب في جسدها، يرهقها حتى تخور مقاومتها وتتسارع أنفاسها، ولا يعود الهواء المتسرب من فتحة الفنطاس كافيًا لبث الروح في عظامها اللينة لتقاوم. أرقدها عنوة فوق الصبيين الذين استسلما بدورهما لرغبته المحرقة، رقد فوقهم، وصار بين فخذيها يشعر بشيئه في شفريها، ظلّ إزارها السميك جدارًا صلبًا بين الوتد والأرض اللينة، غرست قواطعها

t.me/qurssan

في ذراعه وعضت رقبته، بدا مكسوًّا بلحاء شجر لا ينفذ الألم إلى جلده الأسمر، أحكّ وقيد وهصر حتى شعر بذكره ولحمها لا فاصل بينهما، غرسه فتأوهتْ. كتمت شهقتها مرتعبة، تسمّر داخلها بعيون ذاهلة كمسخوط حجري، حدق كمن أصابه المسّ، أحس بروحه تنسحبُ من أصابع قدميه إلى أطرافه إلى زُبِّه المحشور في الزلال العذب. في فمه قالبُ السُكّر وثمار توت ومذاقات لم يختبرها، وبين أصابعه ملمس الريش ودفء النار. تفجّر ينبوعُ مائه داخلها، شهق مذعورًا، أخرجه من مدفنه، يرى ما يحدث، آثارُ دمِها تُلطِّخُه، ودفقاتٌ من ماء أبيض تتقافز من فوهته فوق جسدها ووجها وجلابيب الصبيين الراقدين تحتها في استسلام. تحجّرت حواسه مبهوتًا ينظر حوله يتفرّس الوجوه علّ أحدهم ينطق بكلمة تعيده إلى قريته في جبل الداير يمزع كالحمار الوحشي. تكوّمتْ في زاوية الصهريج، تمسح على موضع الدم، تعدّل هِدْمَها تتطلع في وجوههم ذاهلة، يسألها ببلاهة: **من أين الدم؟** تلطمه غاضبة، تقول:

- **سيذبحونك ويلقونك للكلاب تأكلك.**

تدمدم بكلمات غير مفهومة، يضحك الصبيان، فيضحك، يشير إليهما أنها مجنونة. يناولها آخر قطعة سكّر كاملة، تتمنّع، يتوسّل، تقبلها، تدسّها بين شفتيها، تبتسم في عيونها لمعة جديدة وتتلمّظ بقطعة السكر بين لسانها وصدغها، يتحرّك شيئه من جديد.

اجتازت القافلة الحامية وأخرجوا المحبوسين من الفناطيس، ومضوا

t.me/qurssan

إلى **بئر الشب** فتزودوا من مياهها واغتسل أرباب القافلة في موردتها. جنّ الليل وعلا صفير الريح وتلاطمتْ سياط البرد متتالية تلسع الأجساد وتجمّد الأطراف. أمر الأفندي بإشعال المناقد بالأخشاب التي يحملها الصبية والبغال، لكن نيران المناقد المتسربة من خيام الأرباب لم تكفِ العبيد لدغات الهواء الباردة فاستدفئوا بأجساد البهائم والمطايا واستعادت القافلة شيئًا من الحول والقوة لتمخر عباب الصحراء من جديد. أربعة أسابيع لم تفجأها ريح أو غارة، ردع امتدادها وكبر حجمها مجموعات اللصوص والقبائل المغيرة والذئاب الجائلة. فلمّا صارت على مبعدة أيام قليلة من واحة باريس تواترت أنباء جديدة عن سيطرة قبائل نوبيّة على النقب المؤدي إلى واحات الخارجة، وفرضها ضرائب مرور على المسافرين والتجار ومصادرة الملح والذهب. فاقترح البعض مواجهتها بالبارود والسيوف، لكن آخرين رفضوا المقامرة بعدما أكل السفر الطويل من أجساد الحراس وعمالها وعبيدها. أمر الأفندي بصلاة استخارة يؤمها أكثرهم حفظًا لكتاب الله، ثم وجّه حداته إلى الانحراف ناحية الغرب حتى ظهر غردٌ هلاليٌّ أحدب يقسم الصحراء إلى شمالٍ وجنوب. ولم يعرف أحد من أدلة القافلة كم من الزمن قد يستغرق الالتفاف حوله، فرأوا أن يجتازوا الغرد صعودًا وهبوطًا ويعاودوا الاتجاه نحو الشرق. واضطر السادة والأرباب إلى النزول عن ظهور الدواب والهوادج، ودار الصبية بقراب المياه وحبات التين والتمر الجاف على المسافرين الذين فرغت زمازمهم بمقادير لا تروي الظمأ ولا

t.me/qurssan

تغني من الجوع. واضطر الأفندي إلى الاغتسال من جنابته متيممًا بعدما كان يمسح على جسده بإبريق مياه كامل.

تعالت أصوات النسوة يصحن أن إحداهن جاءها الطاعون، اضطربت القافلة وساد الذعر وجاء الحكيم مُكَمّمًا يفحصُ البنت المحمومة التي تتقيأ صفارًا وتعاني شحوبًا باديًا، وما إن عاينها حتى رفع كمامته، وانزالت علامات القلق عن وجهه، طمأن الجميع أنه ليس بوباء ولا مرض لكنها حُبلى في أول الحمل أجهدها طول الطريق وقلة الغذاء فخار جسدها. لم يستطع أحد تفسير حبلها. "**النبّاش**" المحلي الذي جلبها مع أخريات قال إنهن أبكار باعهن أولياؤهن بالرضا أو تنفيذًا لحكم عرفي وليس منهن مخطوفة أو سليبة، كلهن حلال مصفّى. وحين جئن فحصتهن دلالة خبيرة ختمت على بكورتهن فكيف ومتى وُطئت؟ ولمّا رأت **توتة** -كما سيدعوها **تخلو** بعد أن تصير زوجته وست داره وأم عياله- حيرتهم وجنوح تفسيراتهم، تصنّعت الجهل، وتظاهرت بالحيرة، وقد تيقّنت أن اعترافها يعني أنها ارتكبت ما يستوجب قتلها وقتل الأسمر الهائج الذي وطئها والذي سيظل هائجًا حتى شيخوخته.

وقرّر الأفندي أنها سبب النحس والبلاء ولولا وجودها لما واجهوا المصاعب التي حالت دون وصولهم حتى حينه، وأنه إرضاء لله يرجمونها أو يطعنونها أو يدفنونها حيّة في حفرة رمل، فقال أحد الأدلاء بلسان اليقين إنّ ناكحَ البنيّة جِنيٌّ من "العوامرة" سكان هذه المفاوز فإن آذوها فسيطال

t.me/qurssan

الأذى ما في حشاها وسيجلب عليهم انتقام رهطه. واقتنع الأفندي واستغفر واستعاذ وتوضّأ وقرأ الأوراد واستخار. وأشار عليه الدليل أن يهبوها عطيّةً لأول من يعثر عليهم أو يعثروا عليه، أو عند وصولهم أول واحة أو بلدة أو بئر فيصبح أمرها وأمر من تحمله بين ضلوعها بين يدي ربها، إن شاء حفظها أو شاء أهلكها.

وحين خرجت القافلة من زمام الغرد ونفضت أرجلها من الرمال الناعمة إلى رمال بنيّة خشنة لا تسوخ فيها الأقدام والحوافر التقوا قافلةَ حجيج أضاعت بقايا درب "الطَّوّالي" الذي يأتي من الشرق إلى الغرب فيتقاطع مع الأربعين في الخارجة، بعدما أضاعت العواصفُ المعالمَ التي يحفظها الدليل كخطوط كفيه، والتقت القافلتان بعيدًا عن ملتقى الدربين، فألقى الأدلاء ما لديهم، هؤلاء يمضون نحو الشمال ومنه إلى الشرق وأولئك نحو الغرب ومنه إلى الشمال. تبادلوا أطعمة وأعلافًا للدواب وبضائع من التوابل والمنسوجات واحتفظ كل بما لديه من مياه كما تقول أعرافُ الصحراء، إلا إن أرادت قافلةٌ أن تتخفف من حمول مياه زائدة تعيق حركتها وتثقل وزنها، أو جادت بما لديها لغيرها رأت أنهم يشرفون على الهلاك. وأمر الأفندي بإهداء صاحب القافلة قنطارًا من القماش الأبيض وقطعتين من الفضة والجارية التي حبلت بجني من العوامرة، فأهداه بدوره أكياس بخور وعنبر ومسبحة كهرمان عليها الأسماء الحسنى، ووضع الجارية إلى جوار أخرى مريضة تنازع الموت يدعونها **صبرنا** وركبت كل قافلة وجهتها.

t.me/qurssan

ولما مضت القافلة وتوغّلت وبلغ **تخلو** خبر **توتة** صاح بالسباب واللعان حتى اضطرب عجزُ القافلة وسرى الاضطراب إلى صدرها، وعلم الأفندي أنه ناكِحها، فأمر بقيده حتى يُخصَى في أديرة أسيوط، لكن **تخلو** انخلع من يد الحراس كقطرة زئبق من عِرْق فضة ساخنة، وجرى عائدًا عكس اتجاههم، وحين همّوا بتتبعه استوقفهم الوكيل يقول:

- قدماه كأرجل النعام يطير دون أن يغادر التراب "خلّوه تبلعه الصحراء ويموت".

وبعد زوال الشمس بلغ موضع التقاء القافلتين عند تقاطع الدربين، فلم يستطع اقتفاء أثر قافلة الحجيج في غبشة الليل. وبعد يومين التقطه سيدي **شاهين** من سبخة ترشح بالملح الأبيض قريبًا من جبلة "الحجارة السوداء" منهوكًا بالمرض والعطش، حمله على حماره وغدا به إلى الدومة قبل أن يلفظ النفس الأخير.

وكانت تلك من المرات النادرة التي خرج فيها **الشاهين** لا يقصد غايةً، إنما تلبيةً لطلب سيدي **مهود** حين جاءه يرفُل في ثياب بيضاء نظيفة، تضوع من أردانه رائحة المسك يسأله أن يُغَرِّب لمقابلة تائهين، وقال **الشاهين** في نفسه هذا ضغث حلم، سيدي **مهود** لم يأتِ في يقظة أو منام منذ مات وأقمنا له المقام كما أوصى. لكن **مهود** جاءه في الليلة التالية ولكزه بعكازته صائحًا:

t.me/qurssan

- قلت لك غرّب باكر وأنت لا تسمع الكلام!

وانتفض **الشاهين** ووضع شدّادة جمله وخرج لا يدري وجهته، وحين حميت الشمسُ جلس في حضيض جبيل أبيض يستظل بفيئه، فتراءت له في الأفق بقعة سوداء أخذت تكبر وتقترب، هرع إليها يستقبل قافلة الحجيج المنهكة وغدا بها إلى الدومة، ثم تهيّأت القافلة للسفر في اليوم التالي بعد أن تركتْ جاريتين أشرفتا على الموت إحداهما بالحمى والأخرى بحمل سفاح في فنطاس مياه، **صبرنا** ستُّ الدومة ودُرة تاجها، **وتوتة** أم أهلها الولّادة أولى زوجات **تخلو**. وخرج **الشاهين** من جديد كما أمره سيدي **مهود**، فعثر على **تخلو** خرقةً بالية تتنازعها تيارات الهواء قريبًا من الجارة السوداء. حمله على جمله عائدًا به ليتلقفه سيدي بوسنة وستي باجة يمسدّان جسده بالدهن الساخن وأوراق الزيتون الجافة ليستعيد عافيته.

***

t.me/qurssan

10

مشيت على الصخر
صبح قدمك ع الحجر مرقوم
عجبي ع اللي انشغلبك..
ازاي يجيله نـوم

مرّت **عسلة** ببيت ستها **صبرنا وشامة** زوجة المدين لتأخذهما بين النساء نحـو المواكر، فرأت **صبرنا** تتسـاند إلى حائط الدَّرَجِ تحـاول الصعود إلى سـطحه، بينما تنهمك "**شامة**" في سـدّ الكوّات المفتوحة والأبواب. أبت **صبرنـا** أن تنضم إليهن وتعدو بين الصبايا فتقلّ قيمتها، قالت اللصوص لا يأخذون الشمطاوات، ودسّت إصبعيها السبابة والوسطى في رقبة لمبة "الصاروخ" المعلّقة على جدار قريب ومسحتْ سناجها الأسود ولطّخت به وجهي **عسلة** وشامة وأكفهما، تمامًا كما اعتادت ستي "باجة" -المرحومة- أن

t.me/qurssan

تفعل بها وبفتيات الدومة أيام المعارك، كي تغشى عنهن أعين اللصوص والمغاوير، قالت:

- اختبئن في قلايات النصارى، مغارات محروسة ببركة الله!

مضت **عسلة** تدور على بقية بيوت الضرب، وصعدت **صبرنا** إلى الطرمة وأسندت مرفقيها إلى زرب الجريد والطين ترقب ما يدور، فرأتْ أحدَ أحفاد **تخلو** يحمل ستّه **توتة** فوق ظهره، ويعبر بها بوابة دارها، ليضعها في باحتها ويخرج سريعًا ناحية الملقة. لم تتأخّر **توتة**، أحسّت بالخطر فنادت مَنْ يحملها إلى بيت **صبرنا** كي تموت بين يديها كما فعلت مرارًا. فحملها أحد أنسالها ووضعها في بوابة **صبرنا** وانطلق عائدًا.

صاحت عليها **صبرنا** تستدعيها، وانداحت ابتسامة الرضا فوق أساريرها، الابتسامة االتي لم تغادر وجهها منذ وقعت عيناها على شجرة الدوم قرب المنزلة في زمن لم يعد أحدٌ يتذكره. يوم جاءت في قافلة تائهة صغيرة عبرت بحر المالح من الحجاز إلى ميناء "عيذاب" الذي تصطف فيه سفن كالقرى كبيرة وواسعة، أشرعتها سامقة وأحبالها كجذوع الشجر، ومن "عيذاب" إلى صحراء مسلسلة بالجبال إلى بحر النيل إلى زراعات خضراء لا آخر لها، ثمّ إلى ذلك الدرب "الطّوّالي" الذي انقضى فيه أحد عشر يومًا كان فيها الهواء ساخنًا يرتعش فوق سطوح الكثبان والمساحات المفتوحة اللامعة

t.me/qurssan

والسرابات التي تشكلت في أعينهم كلٌّ حسبما يهوى أو يخاف.

كانت في نحو الثامنة يحملها هـودج مفتوح الأجناب كلّما رأت معلمًا علـى الطريق تقافزت فاضطـرب المحمل بمن فيه، وكلما هدأت سـألتها إحداهن أن تتلو بعضًا مما تحفـظ من الكهف وطوالع البقرة وخواتيمها، فتقرأ بصوت رائق يتلألأ كأشعة الشمس فوق المياه الجارية.

هـي أول من تراءت لها قافلة الفاشر عظيمةً تخرج من بطن "الكثيب" وتقترب على مهلٍ كظلال الغروب، صاحتْ حتى توقفت قافلتها بانتظار المقبلين على جمالٍ ودواب وعربات بعجلات خشـبية دوّارة وحفاة سـود يحيطونها. قابلهم رئيسها الأفندي بوجه ينطق بالتقوى ومسبحة تشي بالورع وتطقطق، يتحدّث بلهجة البنادر، يهلّل ويكبر ويتحوقل، ويقسم يمينًا بعد يمين تصديقًا بمعجزة اللقاء في هذه المفازة كعودي النعناع في حقل الحلفاء. يقسـم أنهم لو تقدّموا ساعة أو تأخروها ما كان اللقاء، لكنها إرادة المولى فنعم المولى ونعم النصير. أهداهم أعشابًا للعلاج وقناطير من أقمشة نفيسة وجارية سـمراء حُبلى سـفاحًا قال إنّ لها معرفة بالتطبيب تساعد المرضى والعجائز، أعطاهم ت**وتة** وتخلّص من نحسِها ولم يبؤ بذنب قتلها، فمالت إلى ص**برنا** وانحشرت إلى جوارها.

التقى أدلاء القافلتين وبسطوا رقاعهم على الرمال، فعرف أدلاء قافلتها أن الطريق التي سِيقوا إليها مقفرة لا بئر فيها ولا عين ماء منذ أغلقها الفرنسيون منذ مئة عام لكي لا يسلكها المماليك الهاربون من بلدان الصعيد، وعلموا

t.me/qurssan

كذلك أن عليهم أن يتخذوا الطريق إلى عين تُسمى "**أم الدباديب**" يبلغونها بعد ثلاث نوبات سير متواصلة ليحصلوا على الماء وعلف الجمال.

مضـوا وبلغوا موضع العين بعد جهد وكـد، لكنهم لم يعثروا على أي أثر لماء أو نبات، بل أرض منبسطة وحقول من الكثبان الرملية الناعمة لا يتمكنوا من اجتيازها.

هنالك تشمّم الموت أطراف ثيابهم وحوافر دوابهم، ونهشتْ أضراس المرض أجساد كثيرين، وكانت ص**برنا** بين هؤلاء الذين ضربتهم الحمى والتهبت جلودهم ببثـور بيضاء معبأة بمياه مالحة، وضمرت عضلاتهم. صار التراب تحت أقدامهم حصيًا أسود ثم صار الحصيم رملًا ناعمًا أبيض وأملس كالطحين تغور في بطنه الأقدام، وصارت أحاديث الريح صاخبةً لا تنقطع وآيس الناس ورددوا الشهادة.

واستيقظت **صبرنا** من إغفاءة تنادي:

- **شجرٌ أخضر في حضيض جُرف.**

ربّتت **توتة** كتفيها ومسحت عن جبينها عرقًا خفيفًا. لكنها أطلت عبر سدائل الهودج المهترئة، وأشارت إلى صخرة كبيرة فوق صخرة أكبر فوق تبّة ظاهرة، حسبوها هلاوس الحمّى وتخاريف الوجع، فأخذت تجذب ثوب **توتة** وتشير نحو أحجار الشـواهد البعيدة بإصرار، تبينتها **توتة** بصعوبة بالغة. حجران مسطحان يستريحان فوق ذؤابة تبّة كأنها جبين ملك سماوي

t.me/qurssan

يحرس المدى ويبشر بالحياة. كان وجود الحجرين إيذانًا بنجاة وشيكة من موت أكيد. الطبيعة لا تضع حجرًا جرانيتيًّا فوق حجر أبيض في قمة تبّة، بل هي شـواهد يضعها المغادر حتى يستدل بها في عودته، أو رحّال طيب تركها ليسير على هداها التائهون بعده، وعلى أحدهم أن يعثر على شاهدة أخـرى ليكون الخط بين الاثنتـين هو اتجاه الوصـول إلى حيث قد تكون أسباب الحياة.

تفرّق الرجال كلٌّ في اتجاه، غابوا ثم عاد أحدُهم يبشر بالعثور على غايتهم، ومضى الركب باتجاه الحجرين الآخرين، ومنهما إلى غيرهما، ولما جنّ المساء، استتروا من عصف الهواء بأسنمة الجمال المنيخة، والتحفوا بما تبقى لديهم مـن أغطية ومفارش، وقبل إطلالة الفجر كانت الريح قد هدأت والغبار قد سـكن، فانطلقوا إلى حيث أشارت الحجارة، تبزغ الشمس وتصير في ظهورهم، بينما ظلالهم تسـبقهم إلى هناك. وأقبل **الشاهين** نحوهم ملاكًا مجنحًا أرسلته السماء استجابة لدعاء لهجت به الألسنة وماجت به القلوب. مجيبًا أمر سيدي **مهود** حين جاءه في مناماته يدفعه إلى لقاء القافلة.

أفرغ قراب الماء المُحلّى بدبس البلح في زمازمهم، وسار بهم حتى انحدر منسـوب اليابسـة وظهرت الجروف العالية فلم يكن عسيرًا على أعينهم التقاط الدومة كبقعة خضراء في منحدر متسـع ينفتح على أحراج النخيل وأشجار الدوم.

استقبلتها **صبرنا** بابتسامة صارت وشمًا في ملامحها منذ هذي الساعة،

t.me/qurssan

حتى بعد أن قايض عليها أربابُ قافلتها رجالَ الدومة ومعها **توتة**، جاريتان مريضتـان وأكياس بخور مكي وقراطيـس من بذور القهوة مقابل قراب المـاء وعلف الدواب ومكاييل الطحين، لم تغب بسـمتها، بل انداحت في وجنتين ملسـاوين استعادتا لتوهما أسـباب الحياة. بدت الدومة لناظرَيها وجِلةً مُهابةً مثل كعبة مكة حين زارتها قبل أشـهر، ومثلما سـتزورها بعد سـنوات مع زوجها الحجازي دليل النبي. تثير الوجل في القلوب وتنتزِعُ التسبيحات من الشفاه اليابسـة فتترطب بالأمل والرجاء، لا أحد يدري فِعْلَ الماء والخضار في الصحراء كالبدوي والرحّال ومسـافر البراري. لا أحد يعرف وقع مرأى شجر الصحاري على قلوب الضائعين.

كانت الجروف لامعةً يقرأ العابر على حوافها اسم الله واضحًا لا لبس فيه تحت سطع الشمس أو ضياء القمر، بل يقرأ اسم من يحب حين يعيد النظر، ومن لا يقرأ يرى وجه ما يشتهي. أشجار نخيل وزروع مخضوضرة تتناثر حول عين "باجة"، أشجار الكافور والجازورين تحيط بالبحيرة الغائضة، وأعشاب الطرفا حول عين حامضة نائية يسلقون في مياهها بيض الدجاج في الأشهر القائظة، بيوت من الطوب اللبن والحجارة متقاربة ومتقابلة بعضها يسند بعضًا. عشرات البيوت أغلبها خاوية ليست إلا حوائط "ليّستْها" أكفُّ النساء بالطين والرمل الأحمر، حوائط مرتفعة تعلوها أسوار مفرّغة وأزرابٌ تسمح لساكنيها بالرؤية بينما تحجبها عن الآخرين، أسقف غير مكتملة من البوص والخوص والجريد بُنيتْ "بالعشومة" يدًا بيد، لم يكترِ أحدُهم بنّاءً ولم يكن هناك من بنائين. شيدوها وتركوها خالية مغلقة ليوحوا للعابرين

t.me/qurssan

واللصوص أن هنا كثرة وعزوة ذات بأس وقوة ترد الغزاة والمغيرين.

تجاوزتِ القافلة التماثيل القديمة في أول المنزلة، وأصبح الجرف القبلي على يمينها واصطبغت أعينهم بأخضر الشجر والزروع وخالفت الجمالُ حُداتَها وجنحتْ نحو قناية المياه الجارية تروي تشققات أفمامها وجفاف ألسنتها. وخرّ الحجيج سُجَّدًا حين رأوا المسجد ومئذنته الخشبية القصيرة بهلالها الخشبي مائلًا جهة القبلة. أرسل **الشاهين** عيال الدومة "سجايا"(*) وجلب لهم شوادف الخبز والمنين، واقتيدت دوابهم إلى معلف يمتلئ بالسنط الناعم والمرخ قبل أن يشرعوا في سقايتها.

وغادرت القافلة في اليوم التالي ومضى **شاهين** لتلبية نداء **مهود** بحثًا عن صبي سوداني أسود اسمه **تخلو** سقط من فجوة في السماء مغشيًّا عليه، سيعثر عليه قبل أن يلفظ النفس الأخير ليملأ الدومة بعدها صخبا وضجيجًا وعيالًا مثله سُودًا فارعي القامات. سيلتقطه **الشاهين** كما التقط قبله وبعده وسيغرسه في أرض الدومة فينبت له جذرٌ يسرح في جوف الأرض وفروعٌ تعانق سحابها فيحب الدومة ويعمّرها، ويحمل حول عنقه فضل **الشاهين** فيعد نفسه عبدًا بيد سيده صك ملكيته. بينما سيعُدُّه **شاهين** ابنا كالمأمون، وسيزوّجه **توتة** حين يعرف بأمرهما وستنجب له بِكْرَه **السيد**، وسيزوجه بأخريات من بنات **السنوسي والفخراني والمهدي** حين يشكو له **توتة** التي لا تلبي نداءه كلما رغب.

أُرسلت **صبرنا** إلى بيت **شمس** زوجة **شاهين** ابنة ملك وادي البخت

(*) سجايا: جمع سجاية وهي آنية فخارية لحفظ الماء.

t.me/qurssan

حتى تعافت وباشرت خدمتها سبع سنوات سمان ما انقطع في إحداها المطر عن غمر وادي الدوم وتغذية عيونه وآباره الجافة، واصطبغت الربى الصفراء بأخضر الزرع ونما عشب بين كل حجرين، حتى أن **الشيخ المهدي** سيقرّر زراعة القصب، وسيصرّه في حزم كبيرة ويخزنه في حجرة الحاصل سنة وراء سنة، دون أن يدري ما يفعل بحصيده، بينما سيفلح في ذلك ابن ولده **جعيدي**، بعد سنين حين يزرع القصب وينشئ معملًا لصناعة كيزان العسل ينقلها **المرتاض** مع ثمار الدوم في سيارته إلى واحات الداخلة، يبيعونها للعيال عند بوابات مدارسهم، ودكاكين العصير.

وستنتقل **صبرنا** إلى بيت ستي باجة بعد موت "شمس" وسترثُ عنها معارفها الطويلة عن طبائع الناس والأرض والطيور والدواب وتتعلم التطبيب والتجميل والتمشيط حتى تصير كعبة لنساء الدومة ورجالها.

وسيظل **تخلو** مدينًا لسيدي **مهود** يتعهّد مقامه بالرعاية ويذود عنه بروحه، وحينما سيهدم السنوسيون المقام باعتباره "شركيات" ويزيلون شاهد قبره سيقف لهم **تخلو** كحصاة بين إصعبي القدم حتى يحبسونه. وسيعيد بناءه بعد رحيلهم بخشب السنط والكافور، ويعيد إليه العمامة التي ستطير بين النواصب الصخرية والجروف ويشاهدها الكافة، وسيقبل الجنيهات الذهبية التي سيمنحها له السيد حسن طنبور إسهامًا في بناء المقام وتقرّبًا من أهل الدومة.

***

t.me/qurssan

11

يا دار أين ملوك الروم أين الفرس
أين الذين غزوها بالرماح والترس
علّك تراهم رِمم تحت الأراضي الدرس
سكوت بعد الفصاحة ألسنتهم خُرْس

اقترح **السيد حسن طنبور** أن يجعلوا للدومة مكوسًا وعوائد مرور على طرق القوافل مقابل السماح لها بالعبور الآمن وتزويدها بالمياه والعلف، مكوسًا كتلك التي تُفرض على السفن والقوافل الكبرى شرقًا وغربًا. قال إن عوائد القافلة ثمانية دراهم، وعن حارسها خمسة والعامل خمسة والعبد ستةٌ يعيدونها إلى القافلة إذا مات خلال خمسين يومًا بعد تحصيلها. قال إن ضريبة المومس مئة درهم كاملة، وهو ثمن رآه مناسبًا مقابل النحس الذي يجلبه مرورها بالأرض الطاهرة، ووافقه **جاد المرجوشي** وقال نشتري بالمال

t.me/qurssan

"لوري" كبيرة تنقل الناس والأشياء بين الدومة والداخلة، ووافقت ستي باجة وقالت نشتري بالمال بقرة تدرُّ اللبن والقشدة، وقال سيدي بوسنة نشتري خشبًا ونحفر آبارًا جديدة. ولم يقل سيدي المهود شيئًا، كان مات منذ عام وشبع منه الموت.

قال **الشاهين** لا نأخذ شيئًا غصبًا فمن شاء قايض بما لديه أو أعطاه العابرين صدقة، خشي إن قطع الخير عن أبناء السبيل قطع الله خير الدومة وماءها.

قرّر **السيد حسن طنبور** أن يجمع مواقيت مرور القوافل ممن خبروها لينظم لكل منها سوقًا عند اقتراب مجيئها، أو يضع من يراقب المَفَارِق في دوريات سيّارة تبلغه بوصولها في حينه، فلم يجد من يفي بهذه المهمة.

أقنع عددًا من الشبان أبناء الدومة أن يخرجوا معه لاستقبال قافلة العبيد على الدرب الطوالي بينهم أخواه **نعيم وجلال** وخادمه النوبي **عبد رب النبي، ومفلح ابن مهود وسعد ابن جاد المرجوشي والمأمون**. رابطوا لثلاثة أيام كاملة حتى فسد الطعام وأسن ماء الفاكهة ويبس العلف الأخضر دون أن تلوحَ في الأفق واشية. عادوا خائبين يخمّن كل منهم سببًا لعدم عثورهم على القافلة.

وبينما يتهيؤون للخروج من جديد للقاء قافلة حجيج مغربية على طريق أبو منقار من جهة الشمال، عثر **تخلو** على "محفّة" معدنية مطمورة تحت الرمل

t.me/qurssan

بين النواصب الحجرية البعيدة فحملها إلى الدومة يقصد بيت **شاهين** ليغيظ **المأمون** بلقيته وكانا يتنافسان فيما يقتنيان من لُقى وحاجيات مما يعثران عليها في النقوب والكهوف وحول الآبار المهجورة، تمامًا مثلما سيتنافسان بعد نحو سبعين عامًا فيمن سيسبق الآخر إلى ملء جرته بحصى السبق إلى صلاة الجماعة. في طريقه إلى بيت **الشاهين** تبعه كل مَنْ قابلوه يتفرسون المحفّة يحاول كل منهم معرفة ماهيتها. كانت مبطّنة بجلد أحمر باهت تبرز من أركانها أربع أذرع قصيرة تحمل رموزًا خمّن **الشاهين** أنها حروف من لغة الخواجات. أثارت حيرتهم وفشلوا في تفسير وجودها فلا هي من حاجات المسافرين ولا من الآثار القديمة التي يعثرون على بعضها بين الحين والحين. فلما حملها **تخلو** إلى مقام سيدي **مهود** حيث يقيم وحده إلى جوار رأس المرحوم، أغراه طولها وبطانتها الجلدية أن يتمدّد فوقها وينام فرآه سيدي **شاهين** فقال:

- **هي حمّالة تنقل العجزة والمروضين!**

وصدّق **السيد حسن طنبور** على ما قاله **الشاهين** مؤكدًا أنها تستخدم لنقل المرضى والعجائز في الجيوش النظامية من الميدان إلى المشفى. فاغتم **الشاهين** معتقدًا أن جيشًا كبيرًا يقيم معسكره قريبًا من الوادي. خرج في ثلة من الدوايمة بينهم السيد حسن طنبور يقودهم **تخلو** إلى حيث عثر على المحفّة ينقّبون في المسارب القريبة وحول النواصب الصخرية وسفوح الجبال، فلم يعثروا سوى على قصاصات ورقية ممزّقة حشرها الهواء بين

t.me/qurssan

حجرين مكتوبة بلغة أجنبية كاللغة المنحوتة في مقابض المحفّة، أكّد السيد طنبور أنها ليست بالإنجليزية التي يعرف حروفها أو الفرنسية التي تجيدها زوجته السنيورة، بل بالإيطالية التي يجيدها نسيبه أبو زوجته المزيّن إبراهيم الجريجي، كانت الورقة الممزقة أمرًا من قائد عسكري إلى ضابط من مرؤوسيه يأمره بتسجيل ارتفاعات المناسيب وطبيعة التربة.

أقصى **السيد طنبور** فكرة سوق القوافل ومكوس الطرق التي حاول تنفيذها، لِما رآه من خطورة وقوعهم في أسر قوة عسكرية تمر هنا أو هناك، وأخذ يتحرّى الأنباء عن الحرب العظمى التي تدور رحاها بعيدًا دون أن يعرف أحدٌ مَنْ ضد مَنْ أو معه، لكن ما عرفه أنها ما زالت بعيدة عن عموم البلاد والصحراء.

جاء **السيد حسن طنبور** وأخواه **نعيم وجلال** إلى الدومة مع **جاد المرجوشي** حين كان الأخير يجلب السُّكر والخميرة والأدوية والمخايط من الداخلة فمرّ بأخيه الأكبر الذي تولّى عمادة "تنيدة" خلفًا لأبيه العمدة الشيخ المرجوشي وكان طنبور وأخواه وزوجته وعائلتها في ضيافته. هم أبناء عائلة تركية استوطنت مدينتي تنيدة وبلاط منذ عشرات سنين، أرسلت الحكومة جدّهم لجمع ضرائب الآبار. فذهب بصحبة زوجته وصار ربًّا لعائلة ممتدة كعروق الصخر في مراتب الأرض، أصحاب مال وأطيان لا يسير الواحد منهم عاري الرأس بل يقبعها في طربوش "إسطمبولي" من نسيج الجوف المبطّن بالخوص ومزدان بزرٍّ حريري مشرشب. يرتدون البذلات والعباءات الصوفية الفضفاضة.

t.me/qurssan

بدا **السيد حسن طنبور** وأخواه ممن يصرخ في ملامحهم العرق التركي، وكانت زوجته فرنسية شقراء لا تحجب وجهها. بل تترك خصلات شعرها تتدلى خارج قماط الرأس، سيلقبها الدوايمة بـ"السنيورةَ"، ويدعون الضرب الذي سينشأ حول دار زوجها باسمها فيصير ضرب "السنيورة"، أمُّها فرنسية وأبوها "حلّاق" جريجي، وخادمهم الصغير "عبد رب النبي" نوبيٌّ أسمر وُلِد في بيت الطنابرة في مدينة بلاط قبل زواج السيد حسن وظلّ برفقته حتى هجّ إلى الصحراء.

لا أحد أباح بسرِّ هروبهم إلى بيت عمدة تنيدة، ثم إلى الصحراء المجهولة مع جاد المرجوشي، لكنه بدا سرًّا تتشارك فيه عائلة طنبور وعائلة زوجته السنيورة، وإلا ما ساحوا في مجاهل الصحراء برفقة زوج ابنتهم لا يدرون مآلهم. وحين تهيّأ جاد المرجوشي لإعداد وسائل العودة إلى الدومة، تكفّل السيّد طنبور بدفع أثمان ما شراه من أسواق موط والقلمون وتنيدة بكرم بالغ، وشرى عشرة جمال تحمل متاع أسرته وعشرة أحصنة تحمل أفرادها. رآه جاد المرجوشي موسرًا ثريًّا لا تليق به حياة الصحراء قليلة المسرات، ورأى أخاه "نعيم" بَجّاجًا غطريسًا لا يُقدّر أحدًا، ورأى أصغرهم "جلال" صغيرًا طيبًا بلا رأي ولا فكرة، ينحط حيث يحطونه. علم أن بالأمر أسرارًا لا يصح السؤال عنها، فامتثل لمطلب أخيه الأكبر عمدة تنيدة وكبيرها، واصطحب السيد طنبور وعائلته إلى وادي الدوم وحمل من العمدة إلى **الشاهين** خطابًا مسجورًا لم يقرأه سواه.

t.me/qurssan

لم تكـن تلك هـي المرة الأولى التي يذهب فيها **جـاد المرجوشي** وحده ويعود برفقة في سفراته الطويلة لجلب حوائج الدومة، بل جاء قبل عائلة طنبور بنجّار وحجّار وحدّاد حمير ونساج حصير وفخراني ومزارع وأسطى دواليب حفر وعائلاتهم، هو من جاء بالخشّاب الوكيل وزوجته وابنه جابر. وحـين كان يتعذّر عليه العودة بأحدهم كان يتزوج ويجلب امرأة تسـكن حجرة جديدة من حجرات داره، فيما ظل **الشـاهين** أكثر الدوايمة تعجبًا ممـا يفعل، إذ لم يفلح هو ذاته في إقناع أحـد بإعطائه امرأة يتزوجها المهود ولم يفلح في إقناع "بنّاء" بالسفر معه إلى الدومة بأجر كبير. بينما كان الوافد الجديد رفقة جاد المرجوشي يدخل الدومة وَجِلًا خاشعًا كمن حقّق رجاءً بعيدًا أو كأنه في حضرة الوالي المعظم، ويظل على حاله ردحًا من الزمن.

ولّما تقصّى **شاهين** في الأمر علم أن **جاد المرجوشي** يسرُّ لمن يريد استخدامه مـن أصحاب الصنعة بأنه جاء متسـللًا مـن "زرزورة" التي -لولا صلة الرحم- ما تركها ليزور إخوته في "تنيدة"، ويستحلِفه ألا يخبر غريبًا بهذا السرِّ حتى لا يتبعه فتتوارى زرزورة ويزول أثرها فلا يعود إلى أبنائه وعشيرته، فـما يكون مـن الرجل صاحب الصنعة إلا أن يتوسّـل إليـه أن يرافقه إلى الواحة الفردوسـية، وحين كاشف **شاهين** جادَ المرجوشي بما علم أجاب الأخير:

- **وما أدراك أنّا لسنا في زرزورة؟**

t.me/qurssan

لم تكن الدومة ببعيدة عن الفردوس الأعلى في عيني مسافر يقطع أيامًا في القيظ والعطش والرياح المتربة والرمال الملتهبة، ما الفردوس إلا غدير فياض ومرج أخضر وطير مغرّد وأرض سلام تنادي ساكنيها.

كما لم يكن **السيد حسن طنبور** بين هؤلاء الذين أغواهم **جاد المرجوشي** ليصحبوه إلى الدومة، بل هو مَنْ سعى إليها هاربًا من مطادرين لم يفصح عنهم ولا عن أسباب مطاردتهم له ولعائلته، لكنه سرعان ما اعتاد الدومة وشارك أهلها حياتهم واتخذ بينهم مكانًا يليق بأحد السيهات الكبار، وصار أول من أهدى مقام سيدي **مهود** قنديل زيت وشموعًا وكساءً حريريًّا أخضر، وسرعان ما ظهرت ميوله نحو التجارة وبدت لديه خبرة واسعة في تسيير القوافل وتدبير حاجاتها والإفادة بما تملكه الدومة ولم يلتفت إليه سواه، لولا مخاطر الحرب العظمى التي امتدت ظلالها شيئًا فشيئًا حتى بلغت أقدامهم.

***

خرج مفلح ابن سيدي **مهود** والمأمون ابن **شاهين** يدفعان قطيع الدواب إلى "بين الجبلين" وعادا يجرّان خلفهما جيشًا إنجليزيًّا يحجب نور الشمس، سيارات كبيرة ودراجات بخارية ذات قوارب جانبية صغيرة تقتحم "منزلة" الدومة وتحتل مفاصلها، جنودًا مسلحين لا يتكلفون رفع أقدامهم عن

t.me/qurssan

النباتات والدواجن بل يطؤون ما يقابلهم كالبغال الهائجة.

أخلوا الدور من سكانها وجمعوهم في الملقة الكبيرة يسألون عمن يجيد منهم ضرب البارود واستخدام السلاح، ومن يمدونه بالماء والغذاء ويؤوونه بينهم من رجال صالح حرب، وكلما ندّت حركة هنا أو هناك أطلقوا زخات الرصاص جِزافًا نحو مصدرها وتعالى صراخ النساء وصيحات الرجال الغاضبة.

تقدّم **الشاهين** من بين الصفوف يطلب أن يأخذوه ليتحدث إلى كبيرهم وحده دون غيره، ويؤكد لهم أن لديه ما يبحثون عنه لكنه لن يفصح إلا لمن بيده الأمر. وقبْل أن يحشروه في إحدى سياراتهم الكبيرة أمر **تخلو** بلهجة سودانية عتيدة يجيدها منذ أسره المهديون السودانية أن يخرج مع ثلة منهم ليرفعوا الشواهد والعلامات عن النقوب الواصلة بطريق القوافل، وأن يربطوا سعف الجريد في ذيول الدواب ويخرجوا بها بعد رحيله مع الجيش الإنجليزي، ليكنسوا آثار عجلات السيارات والخيول، بل ويقطعوا كل شجرة غرسها أحدهم خارج الوادي، وألا يسرحوا في رَعْي أو سفر حتى يعود.

نقلوه بين ثُلّة من شيوخ قبائل ورؤساء عشائر من بطون مختلفة بعيدة إلى مدينة الخارجة وهنالك علم أن حربًا تدور شمال الصحراء يقودها ضابط مصري شاب أنزل بالإنجليز هزائم لم تنلهم على يد أعتى الجيوش،

t.me/qurssan

فأصابهم السُّعار وأخذوا يسقطون غضبهم وقلة حيلتهم على كل من يظنون أنه يؤيده.

أخـذوه ومن معـه إلى الجنرال حكمـدار الصحراء الغربيـة في مدينة الخارجة، وأدخلوه قاعة عظيمة مزدانة بأعلام المملكة وصورة للسلطان في إطـار ذهبي كبير، وبينـما كان الرجل يتفرّس وجوههـم ويتلو عليهم تعليماته والمحاذير التي عليهم تجنبّها حتى لا يُتهموا بالخيانة والتواطؤ مع الأعداء، ألا يتعاونوا مع متمردين أو جواسـيس أو يوفّروا لهم المأوى أو المؤن. يتسـمّر الجنرال أمام **شـاهين** الواقف في ثبات وثقة يتفرّس ملامحه في صمت حتى ينطق **شاهين**:

- أنت تخيفني يا خواجة بوجهك هذا!

ولم يكن الخواجة سوى من عرفه **الشاهين** بالكولونيل **أسناو** قائد قافلة الأجانـب التي قطع بها الصحراء مـن الداخلة إلى الكُفرة عبر أبو بلاص والعوينات قبل عشرين عامًا. عرفه الخواجة وتذكّر اسمه وأخذ يضحك كالشـيطان الرجيم ضحكًا عاليًا متقطعًا، ربّت على كتفه بيدٍ غشـيمة بدا أنه لا زال لا يقدر ثقلها فوق أكتاف الخلائق.

سأله **أسناو** كيف جاءوا به بين رؤساء العشائر وشيوخ القبائل وهو مقام لا يصلون إليه إلا بالوراثة بينما هو مقطوع بلا عزوة، قال **الشاهين**:

- بنيت واحتي وصارت معمورة وجاء جنودك يسعون في خرابها!

t.me/qurssan

- سأعوضك، هم معذورون لا يعرفونك، في المرة المقبلة قل لهم إنك صديقي.

أعطاه الخواجة وريقــة تحمل إمضاءه ليبرزهــا للدوريات التي تقطع وادي الدوم، فأجابه **شاهين**:

- لــن توجد مرة مقبلة يــا خواجة، قلت لربعي أن يزيلوا كل شــاهد يقودكم إلينا، ابصق في وجهي لو استطعتم المجيء مرة أخرى..

يضحك الجنرال أسناو من جديد ضحكة مجلجلة تثير انتباه بقية ضباطه ودهشــتهم، يؤكّد لهم أن **الشاهين** هذا صديق قديم لكنه حمار، منذ سنين وهو حمار لا يتغيّر. يحب الصحراء والجِمال ويقرأ القرآن على أرواحها حين تموت. لكنه حمار إذ يظن أنه من العســير أن يعثر جيشه على واحة سبق له العثور عليها. يقول **أسناو**:

- صالح حرب يقود المتمردين ليحاربونا، والسنوسيون يتحالفون مع رجال القبائل لينضموا إليه، والطليان ينتظرون لحظة ينقضون على بلادكم، نفعل ما نفعل لنحميكم منهم!

يقولها وهو يربّت صدغ **الشاهين**، فيرد الأخير متحديًا:

- والله عيب يا خواجة، ضابط وثلة عساكر يسقونكم الهوان؟ تريدونه يحبس الشيوخ لأجلكم، هل هذا كلام، وتقول إني حمار؟

t.me/qurssan

- نعم أنت حمار وهم مثلك حمير لا يعرفون مصلحتهم.

- يا خواجــة.. نحن في حالنا نزرع ونربي الأغنـام والعيال، تعاركوا بعيدًا عنّا.

عرض الجنرال **أسناو** أن يعقِد اتفاقًا بينه وبين **شاهين** يقضي بأن يضع الدومـة تحت إدارة الإنجليز حتى تنتهي الحرب فيعيدونها إليه مع وسـام يحمل اسم صاحبة الجلالة، فقال **شاهين** إنهم لم ينهزموا في حرب ليسلموا أرضهم فإن كان ثمة اتفاق لا بد أن يبرم فليقضِ بأن تعطي الدومة جنودهم ما يطلبونه من الماء والطعام كعابري سبيل لا يدخلونها، ووافق الخواجة على أن يتعهّد **الشاهين** بألا يقفوا في صفوف أعدائه، ولم يحظَ بمثل هذا الاتفاق أيٌّ من شـيوخ العشائر وزعماء القبائل. وسنحت لشاهين الفرصة ليسأل الجنرال عـن الأجنبية ذات العيون القططية التي لم تبرح مخيلته، فعلم أنها تجيء من بلادهـا في بعثات الجمعية الجغرافية، يصحبها في جولاتها ذلك الشـاب المأخوذ بنسـاء البراري، والذي صار قائدًا لقوات مطروح تحت قيادة الجنرال نفسه، الضابط **رويل**.

أعادوا **الشاهين** إلى دومته، منشغلًا بالأجنبية الشقراء ذات العيون الملوّنة، يحلم يوم تأتي الدومةَ وتتعلق برقبته وتطبع قبلة فوق وجنته. تتنازعه رغبةُ أن يهصر جسدها بين ساعديه حتى يسمع تأوهاتها توقظ سواكن المحاجر

t.me/qurssan

والكهوف، ورغبته أن يبقي على مكانه ومكانته كبيرًا جليلًا بين الدوايمة لا ترفع امرأة طرفها في حضرته ولا يعلو صوت فوق صوته. لكنه يحرّر خياله رمّاحًا في صحراء الرمال، فيُطلِّق إحدى نسائه الأربع ليفسح مكانًا للأجنبية ليتزوجها بعد أن يَهديها إلى الإسلام فيحظى بجنة الدنيا والآخرة، وحين يفشل في اختيار طالقه ولا يجد سببًا كافيًا لتنال إحداهن هذه الصفة يقصي فكرة الزواج بذات العيون القططية ولا يشطح في خياله إلى أبعد من القُبْلة.

يستعيد صورة **رويل** ذلك الشاب زائغ العينين الذي صار قائدًا للإنجليز في مطروح وما زال يصحبها في جولاتها الصحراوية وربما صارت زوجة له أو عشيقة، يئد أفكاره وينكتُ زوجاته الأربع في أربع ليالٍ متتاليات. حتى ترد أنباءُ المعارك فتسقط ظنونه ويبتهج لبراءة الأجنبية من سوء ظنّه فلا هي زوجة لرويل ولا عشيقته، فقد أشعل رويل حربًا لأجل عربيةٍ أحبّها فأوردته موارد الهلاك.

***

اندلعت الحرب في "الدقّة" شمال الصحراء بمحاذاة البحر واحتشدت القبائل لمقاومة الإنجليز تحت راية **محمد صالح حرب** الضابط الشاب الذي رفض أوامر اعتقال الشيوخ وأعلن عصيانه أوامر رؤسائه، بل أعلن

t.me/qurssan

مناصرته الشيوخ ودفاعه عن مطالبهم بحق الضابط الإنجليزي **رويل** الذي تزوج بفتاة بدوية دون إرادة أبيها شيخ قبيلة العجارمة حتى مات الرجل مكمودًا. حاول رويل استرضاءهم فأعلن إسلامه وارتدى زيًّا بدويًا من ملابسهم وتحدّث لهجتهم ليتقرّب إليهم فلم يقبلوه بعد فعلته المنكرة.

قيل إنه رأى حسناءه حين جاء يجتمع بكبار قبيلتها لتشغيل أبنائهم في حفر آبار تخدم القاعدة العسكرية، فلما رآها وَلَهَ بها وتتيّم، وأخذ يتردُّد على حيّها يتخلّق الأعذار والحجج حتى انتفت. نحُل جسدُه ومسّ عقله ولم يعد يميز فعال الرجال من الصغار فعمد إلى التسلل متخفيًا إلى ضربها ليحظى بنظرة عارضة أو ابتسامة تُهدّن نار صدره أو تضرمها. وكانت هي تمنحه ما يشتهي بعيدًا عن أعين المراقبين كأنها تدفعه ناحية الحرب دفعا، حتى اكتشف وجودَه قصّاصُ أثر من أهل الحي. هرب واقتفوا أثره دون أن يكتشفوا حقيقته، وحين عاد مطمئنًا مع عساكره لاجتماع جديد حول شأن من شؤون الزمام، ظلّ قصاص الأثر يتفرّسُ نعليه محدقًا ثم اختلى بأبي الفتاة يخبره أن "رويل" هو نفسه مَن تسلل إلى ضربهم يتلصّص على بناتهم وبهتك أعراضهم، وأن تلك النعال التي في خُفّيه تشهد على فعلته.

فُضح القائد وانكشف ستره، فأعلن أنه استسلم لله رب العالمين وينشد مصاهرتهم على ملتهم ومذهبهم ليكتمل دينه. رفض أبوها مطلبه ولو كان السلطان المعظمُ وكيله وإمام الديار ومفتيها شاهديه، فقد كانت موافقته تعني وصمًا له ولابنته وعارًا لا ينمحي. انقطعت آماله وأخذ يصيح كالمعتوه:

t.me/qurssan

- **أنا عربي.**

فينصرفون عنه كمخبول يُخشى مسلكه لا كقائد عسكري يأتمر آلاف الجنود بكلمته.

لَجَّ في جنونه حتى أشار عليه أحد ضباطه أن يختطفها ويتزوجها ويترك البدو يأكلون الطوب والتراب. فعل وطاوعته البدوية الحسناء مطاوعة الحديد المصهور لقوالب الصبّ. مات أبوها محسورًا، وأثار بموته حَنق القبائل وزعمائها، وقد رأوا فيما فَعَلَ "رويل" هتكًا لأعراضهم لا يُصطبر عليه كصبرهم على تدنيس أراضيهم.

كان جلُّهم ممّن يكاتفون السنوسيين في قتالهم أمام الطليان، وممن تعلّموا في زواياهم وتدربوا على أسلحتهم، انقلبوا على الإنجليز فصدرت الأوامر إلى حكمدار مطروح الضابط "صالح حرب" بالقبض عليهم وترحيلهم للمحاكمة فعصى الأوامر وأعلن انشقاقه عن سلطتهم، وانضم إليه رجاله المصريون ورجالُ القبائل وقدّروا صنيعه. أعلنها "حرب" ثورة مسلّحة ضد الإنجليز في عموم الصحراء، وأعلنت قبائلُ الدفة وعربُ مطروح وأولاد علي والسنوسيون نصرتهم له. أسّسَ جيشًا أسماه جيش المجاهدين وأوقع أول هزيمة عسكرية بجيش بريطانيا العظمى في "وادي ماجد" قتل فيها الجنرال "إسناو" ذاته. معركة ذاعت أصداؤها فألهبت الحماس وأزكت النفوس. ثم توالت المعارك بين الجانبين من بقعة إلى أخرى على صفحة الصحراء الواسعة يتبادلون الهزائم والانتصارات.

t.me/qurssan

لجأ الإنجليز إلى تعزيز قواتهم وقطعوا سُبل الإمداد عن جيش المجاهدين والقوات السنوسية بعد توغلهم في الصحراء وأقاموا مناطق عازلة بين الشطرين المصري والليبي. وأوقعوا الكثيرين من شيوخ المقاومة وجنودها في أسرهم، وفرّ مئات آخرون نحو الجنوب ممن وجدوا أنفسهم محاصرين بين فكي الإنجليز في الشرق والطليان في الغرب.

وصل الفارُّون إلى بلدات الداخلة يُبشرون أهلها وقوتها الحامية بمقدم جيش سنوسي يغطي الصحراء كالغيم الملبّد، فسلّمهم معاون البوليس مفاتيح المركز بما فيه من أسلحة وخيول وأعلن انضمامه إليهم، ولم يكن لدى الحكومة المصرية والإنجليز نبأ بما يدور هناك، بل اعتقدوا أنهم تجاوزوا الحدود مرة أخرى. وحين توالت الأنباءُ عن احتلال السنوسيين للواحات أرسل الإنجليز قطارًا مُحمّلًا بالقوات إلى الخارجة غرب أسيوط لا ليستكملوا الزحف إلى الواحات الداخلة ويحرروها وإنما لإخلائها من رجال الحكومة والموظّفين لكي لا يأسرهم السنوسيون كما فعل المهدية السودانية قبل عشرين عامًا.

بعث السنوسيون رسُلًا إلى أشياخ الصعيد والفيوم يطلبون العون، ورسلًا إلى "علي دينار" سلطان دارفور عن طريق درب الجمال لحمله على المشاركة في الحرب إلى جانبهم، وكان بين هؤلاء الرُسُلِ أحد أقارب أحمد الشريف زعيم السنوسيين، أخذ يتقصّى عن واحة مجهولة على درب الجمال جاء منها **المأمون** ابن الشيخ **شاهين** يدرس في زوايا الكفرة قبل ستة أعوام،

t.me/qurssan

فأرشده إليها "موّان" بحراوي كان جاد المرجوشي يبتاع من عطارته حاجات الدومة من الشاي والسكّر والحبوب.

طَرَقَ رُسُل دارفور المدق الجبلي المتعرج بين النواصب الصخرية حتى أدركوا الغُرْد الرملي الذي يخفي تحته جروف الدومة، رآهم أبناء الفخراني في نوبة حراستهم. وكان **الشاهين** قد عيّن نوبات للحراسة منذ عاد من لقاء الجنرال "أسناو" وأوكلها إلى بيوت الدومة، كل عائلة تتولاها يومًا في كل شهر، وذهب أبناء الفخراني يبلغون بقدوم الرُسُل، لكنهم لم يصلوا. إنما جاء السنوسيون بعد خمسة أشهر كاملة في بقايا جيش مسلح بالسيوف والبنادق.

أيقن **الشاهين** بعد أن أبلغه أبناء الفخراني بقدوم رُسل السنوسيين أن أيامًا قاسية تنتظر وادي الدوم بكامله، وأن جيشًا من هذه الجيوش التي تقاتل في ربوع الصحراء إن حلّ بالدومة فسيصير فيها كأسراب الجراد التي رآها في "كسلا" السودانية بأم عينيه -يوم أسره المهداوية- تأكل أخضر الأرض من تقاوي الزروع إلى سعف النخيل في أقل من ذراع ظلّ، وأن الدومة -لا محالة- غادية إلى مصير كذلك المصير الذي آلت إليه.

أعاد إخفاء المناحيت بين أكداس الحجارة حتى لا تطالها معاول الغازين، واجتمع بالرجال تحت السقيفة الكبيرة وسمح لمن يرغبن من النساء بالمشاركة، وبينما تدور السجالات بينهم، جاء **تخلو** راكضًا يلهث يقول إن المهود -رحمه الله- يرسل إليهم السلام ويبلغهم أن يسدوا المنافث. كان **تخلو** حديث

t.me/qurssan

العهد في الدومة لم يكمل عامه الأول في ربوعها، لكن **الشاهين** استجاب لرسالة سيدي **مهود** التي نقلها إلى **تخلو** في منام أو يقظة. وأمر بتعريش الأسقف العارية بما تيسّر من خشبٍ وجريد، وأن يضعوا أبوابًا خفيضة بمزاليج وضبات وعوارض غليظة على مداخل الضروب وأن تغلق النوافذُ المطلة على الحارات والمسارب بالطوب والطين. وقاد الرجال لنقل أكوام الحجارة المجلمدة إلى منحدر المنزلة لتضييق مداخله.

وجاءت جماعة السنوسيين يقودهم محمد ابن الفضل علي، فارين من ملاحقة القوات الإنجليزية التي اقتحمت الواحات الداخلة وطردتهم من بلداتها، لكنه فشل بمن معه في اقتحام الدومة فوق ظهور الخيول والجمال فوضعوا بعض السرايا أعلى الجروف وأطلقوا نيرانًا كثيفة باتجاه الدور أحرقت سقائف وقتلت أحياءً وهدمت جدرانًا. دفع **الشاهين** الشيوخ إلى الجروف يستظلون بالمواكر المهجورة والمظلات الصخرية، وقادت "شمس" زوجة **شاهين** البنات والنساء إلى وادي "بين الجبلين" للاحتماء بالدير والقلايات المختبئة في مغارات جبل الخشب.

بينما أضاءَ الرجالُ المشاعل فوق أسطح البيوت فبدتْ كتلة من اللهب خرج على ضوئها **المأمون** للقاء الغزاة الفاتحين كما طلب باعتباره عاش بينهم وتلقّى تعليمه على أيديهم وربما كان له معروف لديهم. عاد يقول إنهم يتعهّدون بألا يعتدوا أو يظلموا أو يسلبوا، وأنه لا سبيل أمامهم سوى اللجوء إلى الدومة وإلا هلكت أرواحهم في أحقاف الرمال.

t.me/qurssan

سمح لهم **الشاهين** بدخول الدومة وإقامة خيامهم على أطراف الزراعات القبلية، وخصّص لهم أيامًا للسُقيا من العيون والآبار، وسمح لدوابهم التي جلبوها من الداخلة بالرعي، ولجأ إلى الحيلة ليجعل مُقامهم مؤرَّقًا لا طمأنينة فيه فالتقى بقائدهم "محمد ابن الفضل" علي وأخبره أن الدومة ليست ببعيدة عن أعين الإنجليز وأن دورياتهم السيّارة تمرّ بالوادي في طريقها لتأمين الحدود مع الإيطاليين، وأبرز له المكتوبَ الذي حصل عليه من الجنرال إسناو تصديقًا لكلامه، فأجابه القائد السنوسي:

- "**الجنة تحت ظلال السيوف**"!

وبعد أسابيع وضعتْ زوجة **المأمون** ولدًا فأوصى القائد السنوسي بأن يسميه **الشاهين** "مُجاهد" لتبقى فضيلة الجهاد بينهم على الدوام، فأصرّ **الشاهين** أن يسميه "حرب" باسم الضابط المصري الذي قاد السنوسيين وجيش المجاهدين وكسر بهم الإنجليز وهزمهم.

أعادوا بناء المسجد على طريقة الزوايا التي أقاموها في جغبوب والكفرة وسيوة، فهدموا السقيفة وأقاموا حجرة للتعليم والدرس وحجرة لتحفيظ القرآن ومكانًا للعبادة وأماكن لمعيشة القائمين عليها، وعُيّن أحدُ الإخوان السنوسيين وكيلًا لها. وأمر محمد ابن الفضل علي بهدم مقام الشيخ **مهود** ونقل مدفنه إلى جبانة الجبل، ولم تُجدِ محاولات سيدي **شاهين** والشيخ المهدي وبوسنة وستي باجة لإثنائهم فهدموا الضريح رغم رجاء الدوايمة وشفاعاتهم، وعدّوا مَنْ يعيد بناءه وزيارته مشركًا مستحقًّا حد الردة.

t.me/qurssan

وسرعان ما شاهدوا عمامة الشيخ **مهود** منصوبة فوق أعلى تبّة وراء الجرف، فنسبوا هذه الفعلة إلى الصبي **تخلو** الذي جاهر برفضه وتذمُّره من هدم المقام. اتهموه بنصبها وحكموا بحبسه وجلده، ثم خُفّف الحكم وألغيت عقوبة الجلد حين أعلن **الشاهين** أن من يؤذي **تخلو** يؤذي **الشاهين** وولده. وانتقلت العمامة من التبة إلى ناصبة صخرية بائنة ثم إلى رأس نخلة سامقة، فقالوا إن في الأمر سحرًا، وأخلوا سبيل **تخلو**.

أقاموا الذكر والتلاوة، وردّدوا أورادهم، وأشاعوا أن بين الدوايمة ساحرًا يستعين بالجان لزعزعة الإيمان في نفوسهم. فُتشتِ البيوت والحواصل، وأُحرق كلُّ أثر لشَعْر أو حافر أو بقايا غريبة.

أُعلنت القهوةُ من المحرّمات، وأعلن الشاي مكروهًا، لكنهم حين أعلنوا حظر إظهار الحُلي على النساء والخروج من دورهن إلا برجل ثارت غضبتهن، وحرّضت **شمس** زوجةُ **الشاهين** ابنةُ ملك وادي البخت بقية أزواجه وزوجات الأشياخ والرجال على التذمر ففعلن، وتمرّدن على فُرُشهم.

هنالك أوعز **الشاهين** إلى السيد حسن طنبور بكتابة رسالة بالإنجليزية باسم قائد قوات الإنجليز موجّهة إلى **شاهين** يقول فيها: إن فرقة كاملة من القوات الإنجليزية ستتحرك من الخارجة إلى الحدود الغربية بحثا عن بقايا جيش السنوسي، وستُنشئ في وادي الدوم محطة دائمة للإمداد خلال أيام قليلة، وحاكوا خاتم الجنرال إسناو على الرسالة، ثم حملها **شاهين** إلى القائد السنوسي. فاحتفظ بها لعدة أيام، ثم عاد وطلب من **الشاهين** أن

t.me/qurssan

يبحث له عمّن يعرف لغة الإنجليز، لترجمتها فأتى له بالسيد حسن طنبور وأبلغه بمحتواها.

لم ينتبه "الفضل" السنوسي إلى أن رسائل الإنجليز كانت تَرِدُهم دائمًا باللغة العربية الفصيحة، ومن ثم خطب في الإخوان يقول:

- الجنة تحت ظلال السيوف، لكننا بلا ذخيرة ولا مدد، يتربص بنا أعداؤنا في الجوار القريب. نعد لهم ما نستطيع ونعيد الكرّة.

انسحب بهم إلى الغرب بعد أن تزودوا بما يكفي لرحلة إلى أقصى الأرض، وفوجئ الدوايمة بأحدهم يتخلف عن جيشه ليبقى بينهم. عثروا على "عبد الله السنوسي" مختبئًا في أحد مخاول العلف، ترك جيش المجاهدين ليجاهد بين ظهرانيهم برعاية الزاوية وتحفيظ القرآن، ونكاح أربع يعمرن ضربا كاملًا بالذكور والإناث.

وفي ذات الوقت انسحب بقية جيش المجاهدين من واحات الصحراء إلى حدود ليبيا بعد ضرب "موط" بالطائرات وخذلان سلطان دارفور وأشياخ الصعيد والفيوم لهم، وأعلن "أحمد الشريف" تنازله عن زعامة السنوسية في ليبيا لابن عمه محمد إدريس ونُفي مع قادة جيشه من ليبيا في غواصة ألمانية نقلتهم إلى تركيا وبينهم الضابط قائد المقاومة محمد صالح حرب، والذي سيعيده سعد زغلول باشا من منفاه بعد سنوات قليلة ليصير ذات يوم وزيرًا لدفاع المحروسة.

***

t.me/qurssan

مرّت خمسةُ أشهر هادئة رفع خلالها الدوايمة آثار السنوسية، ولم يتوقّفوا يومًا عن تناول القهوة تحت السقائف والمجالس والغيطان والملاقي، بل ابتعث **الشاهين** جاد المرجوشي وابنه سعد لجلب حمولة جملين من حبوب القهوة الهندية، فيما عكف **تخلو** وجابر الوكيل يعيدان بناء مقام المهود تحت ناظري ستي باجة.

أخرج **الشاهين** المناحيت من بين الحجارة وأعاد نصبها قرب المنزلة فوق "طبالي" صخرية مستوية، وأُعيد المسجد سيرته الأولى مصلى للعبادة لا مركزًا للجهاد لكنهم أبقوا "عبد الله السنوسي" إمامًا له إلى جوار الشيخ المهدي، وقبلوا تزويجه بابنة جاد المرجوشي وابنة أرملة سيدي المهود واثنتين من بنات المهداوية، فأنجب ذرية تملأ دربًا سيسميه الدوايمة درب السنوسي.

وخرج **جابر ابن الخشّاب الوكيل** الذي ارتدى أجراد السنوسيين وسمع كلامهم وحفظ تعاليمهم يشيع أن وادي الدوم بكامله سيظل ملجأً للشياطين والأبالسة يجرُّ ويلات النار والموت على مَنْ فيه طالما ظلّ ديرُ النصارى وقلاياتهم قائمة فوق جبل الخشب تمنع مرور الملائكة إليهم، وطالما بقيت مناحيت الحجارة تنتصب أصنامًا تجتذب الخبائث.

أشعل جابر ابن الوكيل فتنةً سرعان ما أطفأها سيدي **شاهين** حين هدّد جابر الوكيل أن يفقأ له عينًا ويقطع له أذنًا إن بقيتا بلا نفع تحيدان عن الحق ولا تتبعانه. وذكّره بما فعله آباء الدير حين حفظوا بناتهم اللواتي لجأن إليهم حين جاء السنوسيون. وحين أعاد جابر الوكيل ادعاءه بين

t.me/qurssan

ثلـة من الدوايمة، قطع عليه **تخلو** المحاولة قائلًا إن سـيدي **مهود** زاره في منامه وقال له:

- **أسكِتْ الواد جابر**. فسكتْ!

ثم هدرت أولُ طائرة في أفق وادي الدوم تعبر بين السحب وتدنو من أديمها حتى توشك تلامس شعاف الجبال والرُبى، ثم تختفي تاركة خلفها هديـرًا مخيفًا يدفع الناس إلى الاختباء من خطر لا يرونه، ورأى **الشـاهين** قائدها خلف النافذة الزجاجية المقبّبة بجلاء، ولم يكن موضعها في السماء وموضعه على التراب يسـمح للطرفين بالتفاهم، لكن **الشـاهين** أيقن أنه يصف المكان لطرف بعيد ينتظر أوامره ربما بالضرب أو باستكمال الطريق إلى هدف آخر.

صعد **جاد المرجوشي** إلى قبة الجامع لاستجلاء مصدر الهدير فالتفت إليه القائد بمقدم طائرته واقترب يواجهه وفتح "شرعة" في بطن الطائرة المعدنية وأسقط قنبلتين نسفتا قبة المسجد وسقيفته وجاد المرجوشي، وردمتا قناية الماء وشجر الجامع الشيطاني ومزروعاته وأشعلتا حريقًا هائلًا ينفث دخانًا أسود كَسَا صفحة السماء بألوان مقبضة، وظل يحوم حول تخوم الوادي، وربما ظنّ قائد الطائرة أن المرجوشي يستدعي المجاهدين للمقاومة فقصفه.

ركض الدوايمة إلى موضع اشـتعال المسـجد والمرجوشي، لكن ستّي باجةُ تشبثت بكسوة ضريح الشيخ **مهود** وصاحت:

t.me/qurssan

- فِزّ افعل شيئًا، نموت وانت راقد تتفرج علينا!

وبدا لباجة أن **مهود** فزع من رقدته وتعلّق بذيل الطائرة فدارت حول نفسها كالدائخة حتى ارتطمت ببدن صخري بعيدٍ سقطت بعدها مشتعلة بمن فيها، وتعالت صيحات التكبير وسعى بعضهم إلى موضع سقوطها، فيما عادت باجة إلى شاهد القبر تضحك مبتهجة تضرب رأس الشاهد بأطراف أصابعها في دلال تقول:

- الله يسلمك يالغالي!

ولم يمُت جاد المرجوشي لكنه فقد رجلين من منبتهما بعدما صارتا كفخذتي ضأن مقدّدتين، ولو لا تلك الزيوت التي كانت تستخلصها ستي باجة وتملأ بها قواريرها لما توقّف نزفه حتى تصفى دمه. كانت "باجة" -لكي تصنع زيتها- تطلق عنزاتها حول شجر الفياش الأخضر، لتتسلّق جذوعها وتلتهم ثمرها الأحمر الناضج ثم تنتظرها باجة حتى تُخرج النوى عسير الهضم مختلطًا ببعرها وفضلاتها، تجمعه باجة وتنقّيه وتطحنه حتى تستخرج لَوْزَه وتقوم بتحميصه وتقليبه في طاسات معدنية مفلطحة، ثم تضع اللوز المحمّص فوق الرحى حتى ينساب عُصارةً ليّنة تضيف إليها الماء وتعصِره حتى يتصفّى الزيت، تدعك به أقدام العواجيز وشعور الصبايا، وتضيف إليه التوابل وتضعه في صحون الجائعين، أو تضيف إليه حبوب

t.me/qurssan

السمسم المطحونة لتعالج آثار الحروق والتقرحات وقرصات البعوض ولدغات العقارب والهوام.

عالج زيتُ ستي **باجة** -والذي سترث **صبرنا** صنعته- بقايا رجلي **جاد المرجوشي** وحبس روحه في بدنه قبل فرارها، كما عالج الطيار الأسترالي الذي سقطت طائرته، وحفظ لحم وجهه بعدما انصهر جلده. وقد عرف السيد حسن طنبور أصله عقب مرور عدة أسابيع من الواقعة حين تمكّن من الحديث إليه ببضع كلمات قليلة عقب نقله بمحفّة **تخلو** إلى خيمة واسعة أقيمت له في باحة بيت **شاهين**. لكنه لم يعُد ذا ملامح تُوصف. ذابت طبقة جلده كاملًا واكتسى بلون الدم الداكن، وأخذ الدوايمة ينقلون بقايا الطائرة قطعة قطعة ويتقاسمونها بينهم، محتفظين بجزئها الأكبر لجاد المرجوشي الذي راحت قدماه بسببها، فوضع أبناؤه صاجها في أسقف دارهم، لكنهم اضطروا لإزالتها بعد اكتشافهم أنها ترفع حرارة الشمس وتحيل حجراتهم إلى أفران مشتعلة. وكان نصيبُ **المأمون** منها ثلاث عجلات معدنية كبيرة احترقت إطاراتها، وسيور جلدية متينة سيبيعها بعد سنوات قليلة إلى الوافد الجديد أبوبكر الفريج ليستخدمها في مراحه شدّاتٍ للجمال والنوق.

أُرسلتْ طائراتٌ أخرى تبحث عن الحطام وجثة الطيار المحترقة، وسمعت الدومة هديرها المدوي ولم ترها. كانت بعيدة مرتفعة خشي قوّادها الانخفاض والتعرّض للضرب كما حدث لزميلهم، اختبأت الدومةُ تحت الجروف فلم يعثروا لها على أثر، كما لم يعثروا على حُطام الطائرة وجثمان

t.me/qurssan

الطيّار الذي جاءوا من أجله. ظل طريحًا فراشه تطبّب له ستي **باجة** جسده المهترئ بزيت الفياش والسمسم، ودهان الزنك واليود وأوراق الحنظل، لا يطعمونه إلا دبس البلح والحليب، لا عين ترى أو أذن تسمع وإنما لسان يتحرك بهمهمات لا تلتقط الأذن حروفها.

رآه **جاد المرجوشي** ممددًا فوق المحفّة فقال "سبحان الله"، وانطفأت نارُ غلّه وخمدت رغبته في الثأر والانتقام، وعَدَّ فقدانه رجليه اختبارًا ربانيًّا لصبره وإيمانه، وبقي الطيار الأسترالي بينهم جثة تتنفس حتى أهداها **الشاهين** إلى المستر دمريخر قائد تبّة الإنجليز، فنقلها الأخير إلى القيادة في مدينة "الخارجة" وأعطوه عنها نيشانًا معتبرًا.

وحين جاء **الحاج أرنولد الخواجة** إلى الدومة بعد تلك الواقعة ببضع وسبعين عاما وجد جناحًا معدنيا من بدن الطائرة الحربية يحمل عريشة السقيفة الكبيرة، فذهب في سيارة مرتاض الشريف إلى الموضع الذي قيل له إنه موضع سقوط الطائرة يبحث عن بقايا أخرى لم ينقلوها، وحين سمع ما قصّه أبناء المرجوشي وأبناء سيدي المهدي والمأمون وتخلو حول سبب سقوطها، أنكر أن يكون لسيدي **مهود** فضلٌ فيه، كما أنكر من قبل فضله في امتلاء البحيرة بالجمبري الذي اشتهته ستنا **صبرنا** في حبلها بالمدين، وعزاه إلى رياح محمّلة ببيضها من بحر الشمال، فأثار بإنكاره شفقة أشياخ الدومة ودعاءهم له بالهداية، بل تساند **تخلو** والمأمون وحرب على أكتاف أبناء الطيب وأبناء عوض الفخراني، إلى أن دخلوا مقام المهود وأقسموا

t.me/qurssan

عليـه أن يتصرّف بمعرفته ليُعَقّـل هذا الرجل الخواجة ليعلم كيف أن الله حق، كما وأن أولياءه حق.

***

t.me/qurssan

12

دي المَيْ قبل فمّ النبع
تغسل راقات الصخر

سمعت زوجة **مزدان التوجالي** صليل السكاكين والسيوف وعجلة المسنّ تتهاوى فوق أرفف "الكور"، أوقع مما سمِعَت دوي القذائف وجعير الجمال وثغاء المعيز. أيقظت أبنائها وفتحت "مهياج" البوابة وخرجت تعدو بين جاراتها إلى حيث تقودهم **عسلة** مع المعيز والبنات. بينما كان زوجها "مزدان التوجالي" نفسه في جبل "الطفلة" منذ غروب اليوم الفائت لكي يدفَسَ الخشب في مكامر الرمل لتفحيمه وإعادة استخدامه وقودًا في كيره القديم، يصحبه **عوض الفخراني** ليجمع "الطَفْلَة" الناعمة فوق الكاروسة الخشبية

t.me/qurssan

التي يجرها بغل جلبه من "**دراو**" بثلاثين جنيهًا دون السرج واللجام.

انهارت كومة "كيزان العسل" في حاصل **عتيق ابن سيد تخلو**، وملأ الترابُ الطنجرةَ الممتلئة بسائل القصب الساخن بعد ساعات طويلة فوق الموقد المشتعل، وحاولت ستي **توتة** تغطيتها ببطانية صوف، كانت "جود" زوجة عتيق تبسطها تحت ابنهما النائم بينها وبين زوجها كي لا يتسرّب صنانُه إلى مرتبة السرير المتكلّسة قبل موته. ولم تشأ **توتة** أن تُخرج حفيدها عتيق بينما يضع واحدًا آخر بين فخذي امرأته الجديدة "سومة"، فدعتْ أن تنشكَّ يدُ المرتاض الشريف وألّا يكسب أو يربح لأنه أبى أن يحمل كيزان العسل في سيارته إلى باعة "القلمون" قبل أسبوع كامل متحجّجًا بخروجه إلى كهف "الجارة" و"بين الجبلين" مع الحاج أرنولد الخواجة في جولة جديدة من جولاتهما التي لا طائل من ورائها، فظلت الكيزان مكشوفة للتراب والشمس، وها هي تنهار لتفرش أرضية الحاصل ويتناثر فوقها الغُبار والحجارة. وأخذت **توتة** تصيح لكي يحملها أحدهم إلى **صبرنا** حتى تموت هناك إلى جوارها، فجاءها أحد أحفادها وحملها فوق ظهره وعدا بها إلى حيث أشارت.

اهتاج ريشُ الحمام في برجاية "جود"، التي تعلو سطح الدار، وانطلقت طيورها تستضيء بألسنة النار بعيدًا بعيدًا إلى جانب الغيلان والعفاريت. تعالت صيحاتها تدق باب غرفة ضَرّتها بمدق "بور" الأرز لتُخرج **عتيق** زوجها من بين فخذيها تصيح:

t.me/qurssan

- القيامة قامت يا تور، تموت وأنت تدقّر!

سترتْ ضَرَّتَها بعباءة قديمة نَزَعَتْها سريعًا عن حبل مشدود بين حائطين وجرتْ بها إلى غرفة غير مسقوفة تردّد الشهادة حتى سمعت نداء **عسلة** تستدعي النساء إلى الجروف. لم تكن سومة ضَرَّتها بالمرأة التي يمكن أن تثير الغيرة في نفسها أكثر مما تثير الرأفة، بل كثيرًا ما غلبها الندم أن دفعت عتيق ليعقد عليها لتنتهي هي من قرف معاشرته البهيمية ورائحته التي لا تفرقها عن رائحة فصوص الثوم المهروسة، وذَكَره الصغير الذي لا تشعر بدخوله إلا حين يتحرك جسده بين فخذيها، وستكشف **صبرنا** سريرتها حين تسمع شهقتها تنفلت من صدر موجوع، عندما تشاهد ولدها المدين نائمًا في حجرها بينما قضيبه مستيقظ تحت إزاره وشعر جسده يزحف من فتحات قميصه، يومها سألتْها **صبرنا** عن حال زوجها عتيق واستفرغتْ أسرارها. استدعت **صبرنا** زوجَها تقول له رأيتُ لك رؤية يا **عتيق** لا أفسّرها حتى أرى إحليلك! فلم يجرؤ على إنكار مطلبها وهي زوجة دليل النبي وأول من حج وزار واعتمر، وأمطرت لها السماء سمكًا توحّمتْه في حبلها. كشف لها عن ذكره، فقالت:

- أحرق اللهُ تخلو، أخذ من طينة أنساله!

أعطته قطعةَ غابٍ قصيرة من تلك التي تُعرّش بها سقيفة الجرن، وشريطًا من الوبر ليشُدّ عليها ذَكَرَه أسبوعين كاملين ففعل، واستطال شيئه حتى أعجبه، وحبلت جود ووضعته ولدًا، وحملت صينية "رضوة"

t.me/qurssan

تمتلئ بالحمام والأرز والمرق والشـاي والسـكر والمعسّـل إلى مقام الشيخ **مهود** شكرًا وعرفانًا وحفظًا لبِكرها من نوائب الزمن. حتى جاء التشادوة -قبل ثلاث سنوات- وقتلوه فيمن قتلوا، لتصير واحدة من "المزغوفات" اللاتي فقدن ذويهن في غارات وحروب واعتدن الصعود إلى جبانة الجبل في مواسم الأعياد والجُمَع.

كُنّ كثيرات أكبرهن ستّي **توتة** زوجة سيدي **تخلو**، وأصغرهن **عسلة** ذات الأربعة عشر عامًـا التي اعتادت زيارة مدفن أخوين لها ماتا قبل أن تولد هي بعشر سنوات. قيل إنهما سقطا بين مقطورتي إحدى تريللات النقل التي بدأت تطرق درب السـفر القديم بعد أن عبّدته هيئة التعمير، لتنقل مواد البناء بين الصعيد المـصري والجنوب الليبي، وأنّهما كانا عائدين من واحة أبومنقار فتشـبثا بالمقطورة لتختصر عليهما الطريق. ولم يستطع أحدٌ أن يجزم بـما وقع. حين طال غيابهما خرج الدوايمـة يبحثون عبر النقوب القديمـة وحول الجبال والنواصب والوديان، حتى مرّت سـيارة **"الزِّل"** العسـكرية التي تجلب المؤن للعسـاكر على خط الحدود، فأخبر عساكرُها عن جثمانين مدهوسين فوق آثار عجلات ضخمة، قالوا إنهم واروهما تحت التراب وصلوا عليهما ودعوا بالرحمة، وقيل إن دورية جيش حدودية هي التـي أطلقت عليهما النار حين ظنتهـما مُهربين يتجاوزان الحدود. وُلِدتْ **عسـلة** "مزغوفـة" لأخوين لم ترهما، والتزمت بالصعـود إلى جبانة الجبل بدلا مـن أمّها المريضة لقـراءة فاتحة سريعة عـلى رأسي قبرين خاليين إلى جوار قبر ابن جود.

t.me/qurssan

حين مات ولده، رأى **عتيق** أن يتزوّج لتَفْرَغ **جود** لحمام برجاياتها وقبر ولدها، وأوكل إليها تزويجه، فأشارت عليه بـ **سومة** ابنة بدير ابن سعد جاد المرجوشي، خاتلها جسدُها البضّ وفشخها لضبّها على الدوام فظنّت أنها قادرة على احتمال زوجها. لكن سومة كانت قاصرًا ضعيفة لينة لا تحتمل ألم الجماع البهائمي الغاشـم، فأثارت في عتيق مزيدًا من الرغبة فتبارى في نكاحها. نَدِمتْ جود وقالت لها:

- **ذنبك في رقبتي!**

وكانت **جود** من اللواتي وقفن إلى جوار **سومة** في زيجة أولى لم تتم. تهوّن عليها حسرة فشلها وتدفع عنها الملاسنات. وقد صارت تلك الزيجة سببًا لقطيعة كبيرة بين عائلة المرجوشي وعائلة الخشـاب جابر الوكيل، شررها ووقودها نساء العائلتين، يحرضن رجالهن على الردّ والمنازعة، ولم يرتدعن حتى أرسلت إليهن ستي **صبرنا** لتجمعهن في صعيد واحد، وتعلن فيهن أن إحداهن هي مَنْ حاكت هذه المكيدة طمعًا في الزواج بخطيب "سومة" وهدّدت بأن تقص شـعر من تخوض في هذه المسـألة من جديد، فأنصتن إليها وأطعن.

كانت إحداهن -كما قالت **صبرنا**- قد اندست في زمرة المحتفلين بزفّة العفش، تفرح مع الفَرِحات، تشاركهن الرقص والغناء، وتمد يدها حيث يضعن في بداري الخوص التي تحوي ملابس العروس، هنا جلابيب مخروطة، وهنا قمصان شفّافة بكوالف، وهنا سواتين وكيلوتات ملونة رفيعة مكانها

t.me/qurssan

في قعر البدارة مستترة تحت الملابس، لكنها صارت بقدرة القادر في أعلاها تطـير هفهافة خارج حافتها لم تلتفت إليها إحداهن، حتى إذا جاءت زفة الملابس إلى بيت العريس ابن الخشاب جابر الوكيل، وخرجت نساء البيت لاسـتقبال الزفة والتقاط البداري بما عليها من ملابس جديدة وبياضات يرددن في سعادة:

قالوا الزفر مالحمام، قلنا الرك ع الضاني

العرض زي القزاز، ما ينلحمش من تاني

ولا تشوف العجوز، يرجع صبي من تاني

شاهدن البداري وأطراف الملابس التحتانية الملوّنة على حافتها، فشهقن مفزوعات. رأتها عمّة العريس فأخذتْ تُلفت أنظار أخواته إلى الجرْسَــة، وتحرك شـفتيها يمينًا ويسـارًا. حاولت بعضهن إخفاءهـا في قعر البدارة واسـتكمال الليلة وإتمام الفرحة، لكن أمّه اسـودَّ وجهُهـا وغمرها همٌّ لم تُزحزحه الزغاريد ودقات الطبل. انقسـمن بـين قلّة مغمومة وثلة لائمة لامـزة، وبقية تواصل الغناء منقطعة الصلة بهؤلاء وهؤلاء. دخل الجميع صحن الدار فرأى العريس وجه أمه عبوسًا قمطريرًا، استنطقها فأخبرته بما رأتْ، وسـألت مستنكرةً كم ذكرًا في الدومة رأى لباس خطيبته وفكّر فيما تحته؟ انفضّت الزيجة ونشبت القطيعة. لكنها قطيعة لما تدُم، فقد رأى

t.me/qurssan

جابـر الوكيل، أنه لا يصح أن تـدوم القطيعة بينهم وبين أبناء المرجوشي، بينـما مازالت قطيعتهم مع أبناء **تخلو** متقدة منـذ أخذوا من أيديهم خدمة المقام، وسرعان ما تزوج ابنهم بإحدى أخوات سـومة. بينما لزمت سومة الـدار لا تغادر حوائطها حتـى طلبتها جود لزوجها **عتيـق** وأعطتها من حليها وقماشاتها.

وحين دوّت الدانة واهتزت أرجاء الوادي، سارعت لكي تنتزعها من تحته وتستُرها بعباءتها قبل أن تعدو بين النساء عارية فينفضح زوجها على رؤوس الأشهاد وينالها من فضيحته النصيبُ الكبير كما سينال كل قريباته، فيُقال "**عتيق خرجت امرأته عريانة!**".

***

خرجت **جود وسـومة** إثر نداء **عسـلة** وتركتا **عتيق** لحراسة الدور مع غـيره من الرجال، فشـاهدتاها تحمل عنزتها الصغـيرة تحت إبطها، تدفع أمامهـا الحلالَ والبنات، تهرولُ نحو مسـارب عين باجة ومواكرِ الضباع المهجورة، حين تسألها إحداهن عما يدور تقول "غارة"، يصدقنها ويجرين أمامها طائعات كما اعتدن.

وستعرف **عسلة** طريقها إلى وادي "بين الجبلين"، تجتازه بنساء الدومة وحلالها لتخفيهن في قلايات النصارى بالجبل الأسود وجبل الخشب، حتى

t.me/qurssan

لا تطالهـن أعين المغاوير وأيديهم. تمامًا كما فعلت سـتُّها **صبرنا** حين أغار البربر قبل ثلاثة عقود أو يزيد، وكما فعلت **عسلة** ذاتها قبل ثلاث سنوات، حين دفعتهن أمامها للهرب من غارة "التشادوة". لم يشر عليها أحدهم بما فعلت، ولم تكن قد جاوزت العاشرة، لكنها إذ سمعت طلقاتهم تئزُّ فوق طرمات البيوت وتمطرهم بالويلات، استدعت حكايات **صبرنا** يوم سارت بالنساء والقطعان تتسلّل بهن من حضيض الجروف إلى النواصب الصخرية إلى النقوب المؤدية إلى "بين الجبلين" لتحتمي بالدير والقلايات، وهنالك وعند فم الوادي كان أبونا **متاؤس** بانتظارهن بصليبه السـنطي الطويل، كأن أحدهم أبرق إليـه بقدومهن. أخفاهن في قرار القلايات المنحوتة في جوف الجبل، وبقيت قطعان الدواب تحوم حول الوادي. حتى إذا تلاشت سحابة الغارة وانسحب التشادوة سريعًا إلى الغرب، عدن من "بين الجبلين" محروسات بالبركة.

عُدّتْ **عسـلةُ** منذ ذاك اليوم كبيرةً راجحةَ العقل مسـموعة المشـورة، تستنصح بها البكر والعانس والمتزوجة، دون أن تتخلى عن "تورتها" الدُمية القماشية التي حَشتْ جوفها بصوف الخراف ووبر الإبل، وزرعتْ في رأسها شـعر عنز لم تنتزعه من أجسـامها، بل جمعت سـواقطه من مراقدها، ولم تخُط في وجهها عينين وشفتين، منعتها أمُّها بدموع متوسّلة حتى لا تسكن "التُورةَ" روحٌ ضائعة من أرواح الذين غمرتهم أمواج الرمل ذات دهر لم يكن فيه شيء مذكورًا.

t.me/qurssan

سمعتْ **عسلةُ** صوت الفرقعة مرتين فأدركت أن خطرًا يقع لا تدانيه أخطار الضواري والحيّات، كذلك الذي تحكي عنه ستُّها **صبرنا** في كل مرة تزورها كي تأخذ عنها وتتعلم، كما أخذت **صبرنا** عن باجة وتعلّمت. تحكي لها عن لصوص سود تسوقهم الريح كالجراد يسرقون الدواب والنساء ويختفون، وعن دراويش أنصار ومجاهدين إخوان، وعسكر ملونين يسقطون من السماء أو تنشق عنهم الأرض فيهتكون سترهم ويقضون أمنهم.

خرجتْ **عسلة** بعنزاتها، وتركت أمَّها وأباها مسنين لا يطيقان العدو هربًا من الرصاص. تركتهما يحتميان بالعجز والمرض من الأسر والسبي. خرجت دون أن تحرّر جسدها الصغير من زُنّار تحيط به صدرها منذ حولين كاملين ليطمس معالم دومتيها البازغتين، ويخفي تحته اكتمالها كأنثى تطيق المعاشرة، لتظل طفلةً هاربة من "فاتحة" أبرمها أبوها لمرتاض الشريف، لتتزوج به بعد أن تبلغ القرء ويأتيها أول حيض، آمِلًا في الاحتماء بها لدى المرتاض من أميلات في بئر "**صبّارة**"، التي تروي قراريطه القليلة، وسيارته التي تنقل غلّتها، رفضه الزيجة لن يمنعه مياه البئر طالما سدّد ما عليه لصاحبها، ولن يمنعه دوره في نقل "غلته" إلى تجار الداخلة، لكن موافقته ستعطيه فضائل على سواه في الري والنقل، وستجعل منه نسيبًا لموظف حكومي ابن موظف قديم من أولئك القلائل الذين عيّنتهم هيئة التعمير في وحداتها المحلية بالواحات بعد انسحابها من الدومة ومن عموم الصحراء أيام عبد الناصر. يعلم أنه كبر وأصبح مُسنًّا يأكله المرض، قد تأتيه منيته في نوبة سعال تحتدم بين ضلوعه، فيترك ابنته طفلةً وأمّها بلا رجل. أبو **عسلة** أسيوطي مسن

t.me/qurssan

جاء بين عمال البريمات في قوافل هيئة التعمير، واستوطن الدومة وعمِل في حفر الآبار، مات ولداه وأنجب بعد موتهما بعشر سنوات **عسلة** نابهة فطينة، حملت عنه وزوجته همّ المعيشة وتدبير الحال.

حملت إليها أمُّها نبأ خطبتها، وكانت **عسلة** تلعب مع عشيراتها "العزوبلة" بخمسة أحجار مستوية لا تتسع كفّها الصغيرة لالتقاطها، أخبرتها وهي تتحاشى النظر إلى عينيها القاسيتين اللتين تغوران في قرار مَنْ يطالعهما ولو كانتا تضحكان. سارت إليها وهي تأكل بعضها ندمًا وغيظًا، وتدعو لو كانت انشكّت في يدها أو انقطع لسانُها قبل أن تسايرها ذات يوم كانت فيه **عسلة** تحاكي ما يفعله المرتاض الشريف بمنخاره العظيم سواء كان ماشيًا وحده أو جالسًا بين جمع أو يقود سيارته إلى المدق الجبلي. تضع سبابتها في إحدى فتحتي أنفها الدقيق، تجول بإصبعها في جهد دؤوب بحثًا عن دفائن، ترفع حاجبيها حتى ليكادا يلتصقان بفروة رأسها، وتجحظ عيناها كأنهما ستقفزان من محجريهما. هكذا كان المرتاض، لم يُرَ إلا ومنجل خنصره في إحدى فتحتي منخاره يحفر بئرًا في حجر. تضحك **عسلة** وأمُها وتدعوان أن يعين الله المتعوسة التي تزوجته.

حملت إليها خبر خطبتها، وحاولت أن تُوطئ له بتبرير خِصلة المرتاض في نبش منخاره، قبل أن تصب في أذنيها الخبر، قالت:

- تدرين.. سفر المرتاض يوم ويوم يجعل منخاره يعبئ القَذَر من ترابة الطريق، الله يعينه!

t.me/qurssan

فتصيح **عسلة** وقد أدركت بفطنتها ما ترمي أمُّها إليه:

- لا أتزوجه ولو تبيعوني جارية مثل ستي صبرنا!

تشهق أمُّها وتكتم أنفاسها المتلاحقة بأصابع مغلولة حتى لا يسمعها آخرون فتكون معرّة. ص**برنا** ست الدومة وبركتها. كانت جارية، لكنّها ظلّت بكرًا عذراء لم يرَ رجلٌ طرفها قبل دليل النبي. هي من جعلت للدومة نسبًا حجازيًّا مبروكًا وهي أول مَنْ لبّى دعوة الحبيب "أبو فاطنة" بالحج المبرور في هذا الزمام، وصار يؤرّخ لحجتها كما يؤرخ بيوم الطليان ويوم السنوسي والغارة الكبيرة ويوم الهيئة وغيرها من أيام الدومة. أيام الرمل والحصى، أيام خشنة واقدة نُصِبت بها الموازين وشُدّتْ بها الصُرُط وانكشفت سرائر الناس، مَنْ يحبّون الأرض في كل لون، خضراء وصفراء وسوداء، وسماءها البيضاء والزرقاء والرمادية الداكنة. ومَنْ هجّوا بحثًا عن أي حياة في أي أرض!

استنصحتْ **عسلة** بـ"تورتها". شَكتْ لدُميتها التي طالما أنصتت إليها في سعادة وأسدتها النصح والمشورة، فأخبرتها ألا تحيض إن كان شرط الزيجة بلوغ القُرءِ! فرِحتْ **عسلة** ووجدت ضالتها، تخفّتْ في سنواتها العشر، ولوتْ دومتيها النابتتين في وشاح طويل تحت ثيابها الواسعة، تُخفي معالم أنوثةٍ كانت تصرخ في استجداء العتْق. ما إن شارفت على العاشرة حتى

t.me/qurssan

تمخّض وجع تحت سُرّتها كنصل صدئ في قلبٍ مصاب، وانساب خيط الدم ينبئ باكتمال الأنثى.

اختلت بنفسها تغالب ذعرها وتأكل الألم، تملأ بين رجليها بمِزَقٍ قديمة تتشرّب ما يسقط من بطانة رحمها، تغطيها بقطعة من جلد "ضبّ"(*) قنصه "المدين" ذات يوم، وسلخ عنه جلده السميك وأعطاها اللحم لتأكله مطبوخًا في الزيت وحَبّ الزعتر، فترُمُّ جسدَها الذي طالما رآه المدين هزيلًا ضعيفًا كأنها ما أكلت بعد فطامها، كما ردّد دائمًا مضاحكًا لها بابتسامة تخفي أكثر مما تبدي.

تراه كُلّما خرجتْ لرعي نعاجها، كحارس أمين لا يفارق ظلّها، حتى تضع قدميها في طريق العودة، ويستكمل هو الطريق إلى المعامر المهجورة في شعاف الجبال وسفوحها، بأسارير مبتهجة، وسعادة غامضة لم يستطع اكتشاف مصدرها.

حين صاد لها الضبَّ، أكلته ولم تترك لغيرها نسيرةً من لحمه، ملّحتْ جلده ودبغته لتصنع كيسًا لنقودها المعدنية ومن عظامه أزرارًا لملابسها. حتى عمدت إلى تبطين مِزق القماش التي ترتديها بقطعة من جلده كي لا تتسرب بقعة حمراء إلى ردائها فتفضحها ويضيع السرّ.

تخرج نحو الجروف في قطيعها الصغير تدفن آثارها في جوف الرمل

(*) الضبّ: حيوان صحراوى يبيض ويصنف من الزواحف، يتم اصطياده وأكله.

t.me/qurssan

وتكمرها بحجر حتى لا تنبشـها الريحُ فتقع في يد شريرة تلتقطها لتكتب عليها مـا يؤذيها. تُخفي ما يتبدّى في ملامحها من بلوغ، تحيل وهنها عافيةً، وخمولها نشـاطًا، ومزاجها السيئ مرحًا كاذبًا لا ينقطع، كل ما كانت عليه أمها في أيام القُرْءِ سـلكتْ خلافه وتحملتْ في سبيل ذلك مشاق. لم تنتفخ وجنتاهـا ولم تغطِ البثور ملامحها، لكنها اسـتدارت كجذع أرجانة تُرْوى من عينٍ فياضة. وكلما أحكمت تكبيل جسدها فضحتها المشية والالتفاتة ونبرة صوت رخيم تتسّرب في مجرى الأعصاب كمخرات السيل ينساب من أعلى جبلٍ. وحينما كانت البناتُ يشـببن كفروع أشجار باذخة، كانت تغسل خديها بماء نقعت فيه حبّات دوم مقشور ليخفي بياضها ونقاء بشرتها، تربط على جسدها ليالي متواصلة لا تفكُّ قيوده حتى في ساعات الليل عندما تنـام وحدها في "الطيّارة" غرفة السـطح الوحيدة التي لا تتركها إلا حين تتلظّى نار أبيب ومسري، وتدنو الشمس من رؤوس الخلائق حتى لا يحجز بينهما إلا سقف جريد شائط. وانطلت حيلتها على الجميع. لكنها لم تنطلِ على الشـيخ حرب الذي اعتادت مجالسته مع الحاج "أرنولد" الخواجة في تعريشته في بحري الدومة.

ذات مرة استدعاها حرب لتسمع ما يقوله الخواجة، أن أم أربع وأربعين هي أول مَنْ سكنت الأرض قبل أكم مليون سنة، أن الأرض ذاتها لم تخلق في ستة أيام كما يقول ربنا، إنما في "مليوميت" سنة، بعد فرقعات كبيرة تصل إلى السماء السابعة، أو ما بعد السابعة بسبع، فأجابت **عسلة** بما أدهش الخواجة وجنّ عقله، فكتب ما قالت في تصدير الكتاب الذي يكتب، إذ قالت:

t.me/qurssan

- وما فيها يا سـيدي؟ مَن خلق الأرض في يوم، يخلق المليون سـنة في نص نهار!

أبهتته إجابتها، وقد نظّرت في كلمتين لتاريخ خلق الأرض. أراد أن يذكر لها كيف أن الإنسان في أصله إحدى فصائل القرود، علّها تفسر في كلمتين أخريين تاريخ تطوّر البشر، لكنه أحجم خشية أن يلقمه حرب بحجر!

اعتاد سيدي حرب زيارته والاستماع إليه كما يستمع إلى "ترانزيستور" **الطيب** حفيد **تخلو**، بنصف أذن، ونصف ابتسـامة ذاهلة. وحين تمر **عسلة** بقطيعها قريبًا من التعريشة متجهة إلى الرُبى الغربية، يستدعيها لكي يعيد على مسامعها ما قاله الخواجة، ودائمًا ما كان شططًا عجيبًا مثيرًا للشفقة لا يُصدّق. بصر **حرب** مشيتها وتصنّعها وجسدها المكبول تحت الزنّار فحدس أنها تخفي أسرارًا ذات صلة بزيجتها المؤجلة. كان شـاهدًا على الفاتحة التي قرأها الشيخ **المأمون** لأبيها ومرتاض الشريف وباركتهم زغاريد الحريم، وهو من أشار عليهم بتأجيل ليلة "الشوار" حتى تبلغَ مبلغ الزواج. وأسرّ إلى **المأمون** بأن الزيجة لا تروقه، أن المرتاض جلف، مدباب، غليظ الرأس، بينما هي زلال البيض، لينة رقيقة.

وعندما تأخّر بلوغها وجاء المرتاض يسـتفتي الشـيخ **المأمون** في إتمام الزيجة وتأجيل "الدُخلة" حتى تبلغ، زعق الشـيخ **حرب** في وجهه وهدّد أن يفكّ الاتفاق. وكان ذاك هو نفسـه رأي الخواجة **أرنولد**، الذي عرف **عسلة** وشهد بنباهتها منذ لفظتْ اسم الجامعة التي أوفدته إلى الصحراء كما

t.me/qurssan

يلفظه هو واضحًا لا لبس فيه "ماساشوستس"، على خلاف كل الدوايمة صغارًا وكبارًا، بل تجرّأ الخواجة فأفصح لسيدي حرب في إحدى نقاشاتهما أنه سيعلن في ليلة "شــوار" **عسلة** التي يرتدي فيها المُعرّس ثياب الزفاف قبل يومين من إتمامه، ويضع يده في يد أبي العروس تحت السقيفة الكبيرة طالبًا إتمام الزواج على رؤوس الأشهاد، وحين يجيب أبوها بالموافقة، ويسأل الشيخ **المأمون** عمن لديه "شورة" يخبر بها قبل أن يعلن تمام الزفاف، سيقف الخواجة ويجاهر بـ"شــورته" ليفســد الزيجة. وضحك الشيخ حرب حتى دمعــت عيناه، وأخبره أن الزيجة لن تنفضَّ بـ"شــورة" خواجة يقيم بينهم مثــل طيور "أبو المغازل" التــي تمر بدومتهم وتحط حــول بحيرتها أواخر أسابيع الصيف ثم تغادر إلى مواطنها البعيدة، حتى وإن كان أسلم وصار على الملّة. لا يفسد الزفاف إلا بشورة شيخ من أشياخ الدومة حتى يرضى وتزول أســباب "شورته"، أو بشورة أحد أبناء عمومة العروس إن أعلن رغبته في أن يحفظ لحم نسائه عن نكت الغريب.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

13

شعرك محنّي احمر والعيون زرقات
حليوة متغندر ولغوة الخواجات
إلا الطباع دهبات بصُبغة الرملات

جاء الحاج **أرنولد الخواجة** قبل نحو أربع سنوات بين آخرين مصريين وأجانب، رجال ونساء، مُبعتثين من جامعة لم يعرف أحد كيف ينطق اسمها عدا **عسلة** الجنيّة التي لم يبلغ عمرها آنذاك تسعة، إذ قالت بلسان إفرنجي طليق "ماساشوستس" فأثارت موجة ضحك عارمة بين عشيراتها. جاءوا بصحبة مأمور مركز الداخلة وضباطه، ومكثوا سبعة أيام بلياليهم نصبوا خيامًا ملونة تعكس الضوء والحرارة، خيام خفيفة تَطوي الواحدةَ منها تحت إبطك وتحملها بيد واحدة ليست كتلك التي كانوا يصنعونها من

t.me/qurssan

الشعر والصوف ويحملها ثلاثة. تفقّدوا المناحيت المنصوبة في أول المنزلة، وبحثوا في عروق الصخور ومسطحات الرمل عن أحافير وبقايا، التقطوا الصور وأكلوا من تمور الدومة وعسلها ونزلوا العين الكبريتية الحامضة نهارًا وسويا رجالًا ونساءً، ولم يمنعوا أحدًا من الاقتراب والمشاهدة، بل تجرأ سالم ابن محمود حسن طنبور ونزل العين بلبوصًا لا يخفي غير سوءته بينما كانت العين تعج بالحريم. وفي الليل أضاءوا مصابيح كهربية مبهرة لم تشهد الدومة مثيلًا لأضوائها منذ غادرت هيئة التعمير قبل سنين، أضواء موصولة بمولد كهربائي يعمل بالمازوت ويهدر كالطائرات النفاثة.

عادوا سريعًا في سيارات الجيب وتركوا **جيرار أرنولد** وحده يقول إنه سيؤلف كتابًا. قيل: أسبوع آخر حتى يتوسّل إلى **المرتاض** صاحب سيارة الجيش الفورد القديمة ليذهب به إلى الداخلة ومنها إلى بلاده منيبًا تائبًا، وربما يُفرِغ المرتاض جيوب الرجل من أجل هذه المهمة، لكن "أرنولد" لم يفعل، توالت الأسابيع والشهور وظلّ جوّالًا كذئب جائع يتربّص بفرائس من حجر ورمل، تحمله سيارة المرتاض فيغيب يومين وثلاثة ثم يعود لهم بأشياء عجيبة كانوا كثيرًا ما يرونها فتركلها أقدامهم لتميط أذاها عن الطريق، عظامًا بالية وأسنانًا كبيرة وجماجم ضخمة لمخلوقات لا تشبه ما يعرفه أحد، سكاكين ومكاشط وأمواس من الظران البازلت قال إنها من أيام الفراعين، وشواكيش ومزالج من الخشب قال من أيام الرومان، وتركوه يقول ما يشتهي. لم يمنعه عن جولاته الصحراوية يومًا سوى لدغة عقرب

t.me/qurssan

أسـود تسلل إلى خيمته وجال في فتحة بنطاله، حملوه إلى مقام المهود ليقرأ عليه خليفة خلفاء الطريقة **بيومي الوكيل** "عزيمة" العقرب:

(أقسـمت عليكِ يا سموم، باسم الحي القيوم، اخرج من العضم إلى اللحم ومن اللحم للجلد ومن الجلد للشعر ومن الشعر للهواء) لم يستجب، فأعاد الخليفة **السيد ابن سيدي تخلو** القسم ولم ينسحب السمُّ أيضًا، فتعلّل سيد **تخلو** بأن الرجل نصراني لا تجوز عليه القراءة. نقلوه إلى ستي **صبرنا**، فقطعت موضع اللدغة ودعكتها بفصوص ثوم مهروسـة وربطت عليها بقطعة صوف ثقيلة، وأعدّت له صحن "معطونة" من زيت الفياش وعسل القصب والتوابل وكسرة خبز شمسي، فالتهمه وتعافى. وصارت "المعطونة" إكلته المفضلة يسقط من أجلها فوق بيت **صبرنا** حتى تعد له صحنًا وتدعو له بالهداية. إلى أن رأى **عسلة** تجمعُ بعر المعيز حول شجر الفياش أثناء الرعي، فسـألها عن سـبب ما تفعل، أخبرته أن بها بذور الفياش التي تكسر ستي **صبرنا** نواها وتستخرج منها "الزنينة" لتطحنه وتصنع منه زيت "المعطونة" التي يأكلها يومًا بعد يوم.

شـعر بأمعائه تتلوّى وحرارته ترتفع وأحس برغبة في القيء والتأوّه، لكنه أراد أن يتوثّق من ادعاء **عسـلة** فذهب إلى بيت **صبرنا**، وهناك قالت **صبرنا** إن عليه ألّا يرى في خلق الله قبحًا، ما تعاف أكله يتلهّف عليه الناس في بـلاد أخـرى بعيدةٍ نزع اللهُ منها البركة، رأتْ بـأم عينيها كيف يأكلون الديـدان والجراد وروث القطط، أما "البوليـزة" التي تخرج مع بعر المعيز

t.me/qurssan

وتستخرج منها الزيت فنظيفة نافعة شهية، قالت إنك يا خواجة تأكل العنز وتأكل ما يأكله العنز، وما يخرجه يتقوّت به النبات سمادًا ربانيًّا فلماذا تستقبح بعره، وأعدّت له صحنًا كبيرًا من "المعطونة" ورغيف قمح ساخنًا التهمه مبتهجًا وأخذ بقاياه إلى خيمته.

كلما عاد الخواجة أرنولد من جولاته الطويلة وفي جُعبته جديد بدا مرحًا مبتهجًا يرسل السلامات والتحيات من سيارة المرتاض إلى كل من يصادفه ويرقُص كالمطيور لا يستحي، وكثيرًا ما قصد مصطبة "بدير ابن سعد جاد المرجوش" فابتاع كل ما بها من صناديق كاكولا وعصائر وحلوى وأرسلها إلى مقام الشيخ **مهود** شكرانًا وعرفانًا ليوزعها أبناء سيدي **تخلو** على زائري المقام.

إلى أن سرقته الفرحة حين عثر على قشر بيض النعام في جبل "الراس"، فأرسل مَن يبتاع جَدْيًا بادنًا ليُذبح على عتبة المقام ويطبع بدمه الحلال على غطائه الحريري بأصابعه "خميسات". وقف له **بيومي الوكيل** شيخ الطريقة المهودية، وخليفة خلفائها، أقسم ألا يُسال دمٌ على عتبة الشيخ صاحبُه كافر بلا ملّة، لا يجوز. وقال أبناء **تخلو** إنه يجوز بالثلاثة طالما كان النحر بيد مسلمة تستقبل القِبلة ويردّد صاحبها البسملة والتكبير، وأصر بيومي الوكيل وأبناؤه أنه لا يجوز، وكادت تصير معمعة جديدةً بين العائلتين.

كانت تلك المرة الأولى التي يلتفت فيها الدوايمة إلى أن أرنولد الخواجة بلا ملة، فلم يأتِ الرجل من قبل بما يشي بعدم إيمانه، بل كانت مشاركته

t.me/qurssan

شيوخ الدومة جلسات السقيفة دائمًا بُرْهان إيمان وتقوى بما كان يلفظ من كلمات الحمد والتسبيح والصلاة على النبي بعربية فصيحة ذات لَكْنةٍ يحبونها، ولولا غيابه عن صلاة الجماعة لاعتبروه تقيًّا صالحًا ومبروكًا، بل بدا الرجلُ في صفّ مَن طالبوا بهدم الدير والقلايات التي قال أحد مريدي الطريقة المهودية، في إحدى جلسات السقيفة ذات مرة إنها الجدار الذي يصدُّ الملائكةَ من جهة الغرب فلا يأتي منه إلا الخراب العاجل. وكانت تلك آخر جلساتهم العديدة حول الدير والقلايات حين اجتمعوا لمناقشة غليان ماء العين الحامضة وفورانه في شهر "أبيب" قبل سنوات قليلة، ما أنبأ بصيف يشوي الوجوه وينضج لحم الحيوان بلا مواقد، فعَدّوا ذلك علامة نحسٍ وغضب من الله تستلزم رفع أسبابه. أمّا جلستهم الأولى في شأن الدير وقلاياته فكانت بعد رحيل السنوسية أيام سيدي **شاهين**، حين ادعى جابر الوكيل نفس الادعاء فأسكته **الشاهين** وهدّد بفقأ عينيه، ولم يصلوا بأيٍّ من هذه النقاشات إلى رأي اليقين.

كلّما نزلت بالدومة مُلمةٌ نادى أحدهم بهدمها وصرف آبائها إلى جهة بعيدة، ووقف **الشاهين** في وجه المنادي حتى إذا مات **الشاهين** خَلَفَه **المأمون** والمفلح وتخلو والسنوسي وحرب وبكر الفريج يذودون عن الدير والقلايات ومناحيت الصخر.

وحين حمل **بيومي ابن جابر الوكيل** مسألة الحاج أرنولد وذبيحته في المقام إلى الشيخ **المأمون** ليدعو إخوانه إلى جلسة السقيفة، كان أرنولد أول

t.me/qurssan

مـن حضر، واتخذ مقعدًا قريبًا من **المأمـون** وأنصت لما قال بيومي الوكيل وما ردّ به أبناء **تخلو**، كأنّ الأمر بعيد لا يعنيه. قال **المأمون** نسـتفتي الشيخ السنوسي، فاعترض بيومي الوكيل مؤكدًا أن الشيخ السنوسي يحب الخواجة وسيفتي له بما يخلّص رقبته.

فقال **أرنولد** بهدوء:

- **لا تستفتِ أحدًا، أنا أحلُّ لكم المشكلة ونذبح الشاةَ ونسكُت!**

- **كيف يا خواجة!**

- **أنا أريد أكون مسلمًا مثلكم وأصلي في المسجد..**

- **كيف يا خواجة؟**

- **أشهد ألا إله إلا الله وأن الرسول محمد نبي الله!**

ولم ينتزعهم من موكرة الصمت التي أظلّت الجميع سوى همهمة أبناء **تخلو** التي تحوّلت سريعًا إلى عاصفة تكبيرات لهجت بها حناجرهم وردّدها خلفهم الشهود احتفالًا بمعجزة اعتبروها كرامةً جديدةً للشيخ **مهود** الذي استجاب لدعائهم، بينما بقيت وجوه أولاد جابر الوكيل تنطق بالغضب والحيرة فلا هم يسـتطيعون المشـاركة في الاحتفال ولا هـم قادرون على الطعن في إسلام الرجل.

أشار الشيخ حرب على الخواجة أن يمضي إلى مِيضَأَة المسجد فيستحم

t.me/qurssan

بماء صرف ليغسل عن جسده الدرن ويدخل الدين جديدًا طاهرًا، وأمر **المأمون** أن تُجلب شاتان لكي ينحرهما أرنولد بيده وصار اسمه منذ تلك اللحظة **الحاج أرنولد**، لكن الأخير أوكل مهمة النحر إلى **السيّد ولد تخلو** كي لا يغشى لمرأى الدم. بشّره حرب بموافقته على أن يهديه جناح الطائرة المعلق في عريشة السقيفة هدية إيمانه، شريطة أن يحفظ بعضًا من سور القرآن ليصلي بها. وصعد عيال الدومة حواف الغرود الرملية وجروف الصخر يراقبون النجوم التي سيسقط أحدها مشتعلًا احتفالًا من السماء بإسلام الكافر وهدايته، ولم تكفّ السماء في تلك الليلة عن إشعال النجوم وإسقاطها في محيط الصحراء، ولم يكن العيال بحاجة إلى تسلق الجروف وصعود الغرود ليشاهدوا النجوم المشتعلة، فقد شوهدت من نوافذ منازلهم الضيقة وفتحات الأسقف وملقات الشوارع حتى أن **المأمون** تضرّع إلى الله أن يوقف اشتعالها كي تبقى للصحراء بعضٌ من تلك التي تضيء لهم الطريق وترشدهم في السفر والرعي. وفشلت حيلة أبناء جابر الوكيل للطعن في خدمة أولاد **تخلو** لمقام المهود خدمة السدنة الصالحين لاستعادة مكانهم ومكانتهم التي فقدوها بعد أن كشف **تخلو** استيلاءهم على صواني الرضوة.

***

t.me/qurssan

تخلو كان أول خادم للمقام وأول مَنْ ناداه سيدي **مهود** وأتاه بالوحي والنصيحة نائمًا ويقظان، فظلّ على خدمته حتى زاد عدد الأتباع والمريدين وأحباب الله وأصحاب الحاجات، وزادت مهام **تخلو** في مقام سيده فلم تعد تقتصر على تنظيفه وتبييض زخارفه وغسل كسوة ضريحه، بل صار يتلقى هبات النسوة وعطاياهن طلبًا لبركة الشيخ ورضاه، ويعيد منحها لمن يعرف بهم فاقة أو حاجة ويدعو لهم باسم الشيخ **مهود** بالذرية الصالحة والزواج المبروك وشفاء القلوب والرزق الوسيع، وحين يغيب في سفر أو كسل أو مرافقًا للشيخ حرب في مهمّة طهور أو إخصاء، فإنه ينيب عنه أحد أبنائه الذكور ليتعهّد المقام بالرعاية والاهتمام.

وهو وحده مَن عارض المجاهدين السنوسية حين شرعوا يهدمون المقام ويتوعدون من يُعيد بناءه بشرٍّ قتلة، لم يخشَ سيوف الله المغمودة في جنوبهم ولحاهم التي تُفْتَل من شعرها أطناب الخيام، ولو ما كانوا طيبين يدعون بالتي هي أحسن لحرقوا عظامه ونثروا رماده. بعد رحيلهم حاول وحده إعادة بناء المقام ونصب العمامة، فعارضه الخشّاب "جابر الوكيل" وكادت تنشبُ مقتلة بينهما، وكان الأخير قد شَرب علوم السنوسيين وتشبّع بها فرأى ما يرونه في مقامات الأولياء من شركيات وبدع، وجأر فوق منبر الخشب يتوعّد من يأتيها بالويل والعذاب. كفّ **تخلو** عن سعيه بعدما زاره الشيخ **مهود** -كما ادعى- وأمره أن يترك مقامه وشأنه وأشار عليه بالزواج من جديد.

t.me/qurssan

ونُسِيَ **مهود** ومقامُه إلى أن شوهدت أم جابر الوكيل تعدو مذعورة حافية تحمل سجايتها فارغة، تهرول النساء في ذيلها يقلن إنها رأت سيدي **مهود** جالسًا على صفحة الماء في بطن البئر يلوّح لها بعكازته ويتخلّل شعر لحيته بأصابعه، بينما كانت تدلي "السجاية" لتستقي. قال ولدها جابر:

- **خراريف وأفعال أبالسة.**

ثم تعالى صراخ أم جابر من جديد، وقيل هذه المرة إنها رأت سيدي **مهود** في طاقة الطابونة المشتعلة يجلس متربعًا يصوب عينيه إليها، بينما كانت تُخرِج أقـراص العجين المخبوز من بين الدخان، وتقسـم بحياة النبي أنه تحدث إليها وسألها أن تفتّ له رغيفًا شمسيًّا مرحرحًا في قعبة حليب وتأتي به إلى مقامه بعد أن يبنيه ولدها جابر فانخرعتْ، ولما أفاقوها قالت:

- **الشيخ مهود يحبُّ المحلبية!**

حملوها إلى سيدي بوسنة وستي باجة فأقسمت الأخيرةُ أنه المهود يحبُّ المحلبية، فقالوا في نفس واحد:

- **عليه السلام!**

واشتاط جابر وأرغى:

- **لا سلام إلا على نبي أو صالح.**

قرأ على رأس أمه الرُّقية والمعوذتين وفواتيح البقرة وخواتيمها وحرّق

t.me/qurssan

أعواد البخور في أركان البيت وطرد الجان والعفاريت والخبائث إلى الصحراء المترامية. هدأت النفوس، وانشرحت الصدور، إلى أن شوهد جابر الوكيل نفسُه يحمل خوص فراشه وبعضًا من عروق السنط والجريد إلى موضع قريب من المقام وحين سألوه عما يفعل، قال:

- **أبني مقام سيدي مهود عليه السلام!**

شارك جابرُ الوكيل **تخلو** مخلصًا في بناء المقام، لكنه لم يفصح بما وقع بينه وبين سيدي **مهود** فأبدل إيماناته. إنما قال **تخلو** ذات مرة للشيخ حرب أو لشروفة الفريج أو لغيرهما، إن جابر الوكيل بعد أن انتهى من تقطيع جذع سنطة إلى ألواح خشبية متساوية لتركيبها في مندرة بيت السيد حسن طنبور. وبينما كان يتوضأ من قعبة ماء صغيرة لدى باب دكانه، تتساقط قطرات المياه من وجهه وذراعيه فوق التراب لتتجمع كبِركة صغيرة راكدة بين مرفقيه، وبينما يسبغ ماء الوضوء على مكاره بدنه، طالع وجه المهود على صفحة الماء كأنه يطل من نافذة مشرعة انشقت عنها الأرض تحت قدميه، يقول بصوت رائق لا غمش فيه:

- **أنت تقول عن سيدك مهود شركيات يا واد يا جابر؟**

لينتفض جابر كطائر سمان فوق كافورة عالية أفزعته خرطوشة خائبة، فيوقظ أمه وأباه وإخوته وكل أقاربه، يقول:

t.me/qurssan

- زارني سيدي مهود عليه السلام!

صار الخشّاب "جابر الوكيل" ممن يحبون المقام وتتعلق قلوبهم بصاحبه، لا يُرى إلا رفقة **تخلو** يكنس الغبار ويملأ المزاير من مياه عين باجة، ويجمع ثمار الشجر الشيطاني الذي ترويه مياه الوضوء ثم يحملها إلى **شروفة** الفريج ليتولى الأخير مبادلتها على طرق الجمال، ويقيم الأسيجة وينظف القناية متطوعا لا يقبل هبة ولا عطية. وظلّ على حاله ذاك حتى سافر بعد الحرب العظمى الثانية مع كتيبة إنجليزية مدرّعة حملته إلى بور سعيد بوساطة من "الميجور زبير" الذي ظل يتولّى قيادة مركز "تبة الإنجليز" حتى انتهاء الحرب والجلاء. وبقي هناك حتى حلّ العدوان وانضربت المدينة وهُجّر أهلُها في جهات البلاد كافة، فعاد بأبنائه وزوجته وعدد من البورسعادوة والسوايسة كانوا يقصدون الداخلة فجنح ببعضهم إلى الدومة وقرّ بها حتى سُمّي باسمهم ضرب "السوايسة".

وسرعان ما وشم هؤلاء طبائعهم على مسالك الناس وحيواتهم، أدخلوا مهنًا جديدة وتجارات، فصارت ذكورة الصبيان لا تكتمل إلا بعد زفة الطهور السويسي، ولا تتم الأعراس إلا بزفة الحنّة السويسي، حيث يخرج "محمل" صينية الحناء بشمعاتها الإحدى عشرة من بيت العريس إلى بيت العروس مصحوبًا بالنساء والشبان معًا يرددون الأغاني والأهازيج. تتوقّف الزفة أمام نواصي الضروب وبيوت الأقارب، يصحبها المزين "إبراهيم الجريجي" ليحنّي الرجال ويتلقى نقوطهم.

t.me/qurssan

عاد **جابر الوكيـل** إلى الدومة، وأقام في جوار الضريح يخدم المقام بين أبناء **تخلـو** حتى حمل عنهم أعباءه جميعًا، ثم أقـام حضرة ربانية جُلّها من السوايسـة المهاجرين ومريدي الشيخ وصار رئيسـها. ثم أعلن يوم وفاة الشـيخ **مهود** يوم مولد يقام فيه احتفال مشهود. وأشرقت الشمس ذات صباح لينعكس ضوؤها فوق لافتة خضراء كبيرة تقول:

*(هنا مقام العارف بالله سـيدي الشيخ **مهود** صاحب الطريقة المهودية المحمدية في عموم القرى والبلاد)*

لم يُبْدِ أيٌ من أشـياخ الدومة وأهلها سـوى الدهشـة والحيرة أو عدم الاكتراث، حتى **بكـر الفريج** الذي اعتاد الوقوف وحده يصدّ كل جديد عـن حدود الدومة كي تبقى على ما تركها **الشـاهين** كأنها وديعة في ذمته، شغله موت **شروفة** بين أنياب الضباع عن حضرة بيومي الوكيل ومريديه وطريقته، وانشـغل **المأمون** وحرب ومفلـح وعبد رب النبي برجال هيئة التعمير وسياراتهم ومعداتهم وما يشرعون القيام به في أرضهم.

وسرعان ما ترقّى بيومي ابن جابر الوكيل إلى رتبة خليفةِ خلفاء ومنح "سيد ولد **تخلو**" رتبة خليفة دون أن يمرّ ببقية مراحل الترقي الأربع التي مـرّ بها مريدو الطريقة ونقباؤها، بعد خلاف محتدم بينهما توسّـط في حلّه كل محبي الشـيخ المهود ومريدوه. المراحـل الأربع التي قال جابر الوكيل إنه عثر عليها مدونة بخط يد سـيدي المهود على ورقة محفوظة بين ما قيل إنها أغراضه، وعلى الرغم مما أكّده سـيدي مفلح والمأمون مرارًا، وما قاله

t.me/qurssan

تخلو نقلًا عن سيدي المرحوم **شاهين** وبوسنة وستي باجة -رحمهم الله- أن المهود عاش ومات أُميًّا لا يقرأ ولا يكتب، وأن كل ما جاء عنه في دفتر الصاير كتبه سيدي بوسنة صاحبه وعشيره وزوج أرملته، إلا أن الأتباع جعلوا المدوّنة دستور الطريقة وكتابها بما تحويه من أوراد وأدعية وطرائق للترقي والتعبّد، حتى فوجئ الجميع بجابر الوكيل يخلع جِرده الأبيض وعمامته الخضراء ويعود إلى الصلاة في الجامع الكبير مأمومًا خلف الشيخ السنوسي والشيخ مأمون، يقول:

- **المهود لا يريدني رئيس طريقة!**

وصار ابنه بيومي رئيسًا لها ولطائفتها، وانقطعت صلة جابر الوكيل بالمقام وخدمته. وظلّ المقام مزارًا للمسافرين، ومقصدًا لأصحاب الحوائج من الدومة وما حولها، بل صار مولد "المهود" مبتغًى لغرباء بعيدين سمعوا بكرامات الجل من أتباع الطائفة الجوالين في عموم البلاد، كرامات لم يرها الدوايمة أنفسهم، أو يعلم كيف وقعت، عدا أن المقام لم يمس بسوء منذ أعاد **تخلو** وجابر الوكيل بناءه بعد رحيل السنوسية إبان الحرب العظمى. سبعون عامًا لم تسقط العمامة عن شاهد القبر، حتى حين دوّت أوّل "بازوكا" ضربها المجاهدون في بطن الجرف، وزُلزلت الأرض تحت الأقدام والجدران، ظلّ أبناء الطائفة الراقدون في باحة المقام يغطّون في نومهم القرير.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

14

عجبي على من سكن.. البهنسا الغرّا
شربوا من الدنّ لا كاس ولا جرة
وشجر الشوك يطرح كل عام مرة

هرع الحلال من مكامنه شـياهًا وحميرًا ودواجن، لم يتمهّل أكثرها كي يفُكّ أحدُهم عقالَه فيتمكّن من العدو. تقافز كالسحالي البيضاء فوق الرمال الملتهبة. وحدها الجِمالُ لا تغادر مراحها، لا يفزعها مرأى النار إلا إن شارفت على حرقها، تصطبر حتى يعلو اللهب وتتصاخب ألسنة النار فوق أعينها المتوثّبة حتى توقن اقترابها، حينها تعدو في الاتجاهات وتتخابط، وبينما هي تعدو شاخصة الأعين ترى السماء والاتجاهات الأربعة، لا تدهس جريحًا ولا تبقر بطن ميت، بل تتمهّل من عدوها ليعلق بخطامها مصاب أو يمضي

t.me/qurssan

في إثرها قعود. جمال الدومة التي اختلطت أنسابها بنسب "المجهم" الجمل الحجازي المبارك ذي الأصل القرشي الذي أتى به "دليل النبي" إلى الدومة منذ سنين مسترشدًا بوصفة تركها له سيدي **شاهين** فوق رقعة جلد، لكي يرشد من يرغب في الحج إلى طريق النبي في موسم "المطوّفين"، فسكبَ جملُه لقوحَه في نوق الدومة لتحبل بنسلٍ مبروك ملأ وادي الدوم بالمجاهيم.

كل أباعر الدومة ذات واشجة ونسب بجمل دليل النبي، عدا نسل تلك النوق التي حبسها سيدي **بكر الفريج** في مراحه، ومنعها عن المِجهم حتى رحل مع صاحبه جازمًا بأن جماله "مغاتير"(*) أصيلة لا تتلوّث بنسب الغرباء وإن كانوا حجازيين من الأرض المكرّمة. لكن الدوايمة اعتبروا رأيه ذاك نابعًا من بغضه لدليل النبي نفسه وليس لجمله الذي داست حوافره أرض الكعبة وتبرّكت بترابها، ولم يكترث الفريج بما قالوا، بل ظنّ هو نفسه أنه لم يبغض أحدًا كما بغض "دليل النبي" سوى عساكر الإنجليز منذ كان شابًّا عفيًّا يقود عصابة "حسونة" ويهرب الملح والحشيش، بل كثيرًا ما اختلطت عليه بنوّةُ المدين لدليل النبي و**شروفة** ابن أخيه. أخذ عن الأول ملامحه وعن الآخر خصاله. لم يكد يتم الثانية عشرة حتى صار راكبيًّا أصيلًا يمتطي الجمل في قفزة، وجفيرًا يميز الأثر على صفحة الرمل، وصيّادا يقنص الضباع والذئاب والثعالب الحمراء في معامرها المظلمة، علّمه **شروفة** كيف يحمل البارودة ويطلق خراطيشها قبل أن يتعلم لعب

(*) المغاتير: سلالة من الإبل ذات مواصفات متميزة تنتشر في عدة قبائل ومناطق عربية.

t.me/qurssan

"الخَنّانة" بين الصغار. وبعد موت **شروفة** "كما يعتقد عمّه بكر الفريج"، أو اختفائه "حسبما ترى زوجته **جلا**، أخذه الفريج بين بعض من أبناء الدوايمة اليافعين الذين يتعلمون على يديه استخدام البواريد في حضيض الجبل دون علـم آبائهم. أو هكذا اتفق الجميـع دون تصريح علني بفحوى الاتفاق. هؤلاء يتصنّعون جهلهم، وأولئك يتظاهرون بالبراءة. يجمع بكر الفريج عـددًا من أبنائهم، وينصب لهم نطاير الخشـب ليصوبـوا نحوها فوهات البنادق، مرة واحدة كل عام، ثم يعيد إخفاء البنادق وذخائرها.

ثـماني بنـادق جمعها مع ابن أخيـه **شروفة** في أزمنة مختلفـة، اثنتان منها "مارتيني" إيطالية، تعطّلت عن الضرب منذ بضع وثلاثين سنة يوم أغار الزُرْق على الدومة بالجمال والخيول، فتصدوا لهم ببنادق المارتيني حتى نضبت ذخائرها، ولم يفلح الفريج في العثور على طلقات تعمّرها منذ ذلك الحين، حتى لدى الطليان أنفسهم في الشطر الليبي بعد أن أخرجوها من الخدمة وتوقّفوا عن إنتاج طلقاتها. لكنه تحصّل على بندقيتي "باترن" إنجليزيتين، تحوي خزانة كل منهما ثماني طلقات، حصل عليها من الميجور "زبير" حين شرع في الجلاء عن مركز مراقبة "تبة الإنجليز" بعد مجيء عبد الناصر، وتَرَكَ كثيرًا من مشمولات "التبّة" هدايا لأصدقائه أشياخ الدومة، فكان نصيب الفريج بندقيتين أضاف إليهما بعد سنوات قليلة أربع بنادق "إيه كيه" روسية تحوي خزانة كل منها ثلاثين طلقة، استطاع أن يجمع لها عدة صناديق ذخيرة عـن طريق ضباط الاحتياط الذين أرسـلو إلى الكمائن والنقاط الحدودية

t.me/qurssan

الغربية، يعبرون طريق القوافل في سيارة نقل زل(*) تمر بأول المدق الجبلي الذي يصله بالدومة. وكان الضبّاط يدوّنون هذه الذخائر" *هالك تدريب فُقدت فوارغها*" . ولم يَرَ الدوايمةُ أيًّا من هذه الأسلحة ولم يسمعوا أزيز رصاصها، عدا قليلين منهم، هؤلاء الذين اصطفاهم الفريج ولم يجاوزوا أصابع اليد بينهم المدين، ولم يصرّح أيٌّ منهم بهذا السرّ، بقوا يتمرّسون على ضرب البارود في الخفاء تحت عين بكر الفريج وفاءً لقسم أخذه عليهم. وحين دوّت "الدانة" واهتزت أرجاء الدومة، أخرج "المدين" البنادق الملفوفة بكرانيف النخيل من تجويف الجدار القصير وحملها إلى بكر الفريج.

***

تعالى صياح "مزدان التوجالي" قادمًا من أعلى الجرف:

- **تارا أمسلاك أمردول!**

فأيقن من سمعه أن مصيبة وقعت، وإلا ما أفلت لسانه ينطق بالأمازيغية التي لا يفهمون كلمة منها، ولا ينطق بها التوجالي إلا دون قصد غاضبًا أو خائفًا أو مناكفًا أحدهم. ثم مازوا من خلفه صوت "عوض الفخراني" يصيح:

(*) زل: سيارة نقل روسية ضخمة كانت تستخدم في نقل الجنود والمعدات قبل أن تستبدل بها سيارات أمريكية.

t.me/qurssan

- **مجاهدين يا شيخ، مجاهدين!**

ظهر "مزدان التوجالي" يتدحرج من أعلى الجرف عبر مسار ترابي مطروق من أعلى قمته إلى حضيضه، يرفع راية باهتة تتوسطها دائرة بيضاء تحمل عبارة التوحيد بخط بدائي غير مستوٍ، يقبض على عصاتها بكلتا يديه خفّاقة لا تكف عن التماوج رغم ركود الهواء وغياب النسيم، كأنها تخفق بذاتها لا بفعل الطقس والريح. لم يتمالك الشيخ **تخلو** نفسه حين رآه قابضًا على الراية يحاول عوض الفخراني اللحاق به، فضحك حتى أوجعه بطنه، يقول:

- **يخرب بيت أبيك.. مالك تشبه التتار يا توجالي؟**

-**مجاهدين يا سيدي، يركبون سيارات "تايّوتا" بيضاء، يريدون أعود لهم حاملًا الراية حتى لا يجنصوني!**

قال "عوض الفخراني":

- **يريدون يدخلون الدومة ويأمّنونا.** قال **المأمون**:

- **كيف رحتما هناك؟**

- **كنا في "السروحة" وأمسكونا.**

- **اقعدا ولا تعودا حتى نشوف.**

"عوض الفخراني" و"مزدان التوجالي" هما أول من رأى سيارات التايّوتا

t.me/qurssan

البيضاء تمرُق بين الكثبان والحجارة فوق مدق جبلي مهجور يسلكانه ليصلا إلى جبل الطفلة، جبل صغير يبعد عن الدومة أربع ساعات ذهابًا وثلاثًا إيابًا مثلما هو حال السير باتجاه الغرب والجنوب، يستطيل وقت الرواح حيث ترتفع مناسيب أديم الأرض وتتجه إلى صعود، ويقصر وقت العودة حيث تتجه إلى انخفاض.

يأتي مزدان التوجالي جبل الطفلة لتفحيم خشب المشمش والسنط والكافور في مكامير الرمل القريبة من الجبل بعد أن يشعله بالقش والوغش ويطفئه بالماء ويتركه ليجفّ فيصير فحمًا يستخدمه في كور الحدادة، وعند انتهائه يحمله فوق "كاروسة" خشبية بعجلتين يجرها بغل أسواني، ويتبعه عوض الفخراني يجرُّ حمارًا بلديًّا فوق ظهره بدايدُ ممتلئة بأحجار رملية ناعمة يقطعها من جبل "الطفلة" ليصنع منها مواعين الفخار وأبراج الحمام بعد نخلها وتخميرها.

كانا يسيران على المدق الجبلي حين شاهدا سيارات نقل صغيرة محمّلة بالرشاشات والبنادق الآلية، يقف خلف كل منها فرد لم يستطيعا تحديد ملامحه خلف سواتر الفولاذ، ما إن شاهداها حتى أفرغ التوجالي حمولة الخشب المتفحّم عن عربة الكاروسة، وتبعه عوض الفخراني فأفرغ حمولة الطفلة من فوق ظهر حماره وعَدَوَا خلف الرتل ليتبيّنا مقصده. وحين اقتربا من منزلة الدومة كان قصف المقاتلين في أوجه فحاولا الالتفاف حول المنزلة والدخول عبر زراعات البرسيم الكثيفة بعيدًا عن أعين المسلحين، لكن

t.me/qurssan

ضوء الفجر الشحيح المتسلل من جهة الشرق كشفهما فأسروهما وحمّلوهما برسالة يبلغانها أهل الدومة:

– الدار لله.. وللناس السلام والنجاة.

قال التوجالي إن بينهم عربًا ذوي لسان فصيح وآخرين من قبائل الجنوب التشادية، يقودون سيارات "تايّوتا" بيضاء، سيماهُم حسنة يطلُّ النور من وجوههم وألسنتهم رطبة بذكر الله، مسلمون طيبون عبروا الحدود الغربية ليقيموا فَرْض التبليغ، واستطرد التوجالي "*سيدخلون الدومة ويرون ديننا وعبادتنا ويغادرون*". فأثار سخرية سيدي حرب فصاح:

– **الله يطفي سراجك يا مطعون، أنت ما تتوب!** وقال **المأمون:**

– **يرون ديننا ويغادرون يا توجالي؟** أجاب التوجالي:

– **مجاهدين يا شيخ، لو ماتوا يدخلون الجنة.**

– ...

– **ماذا أقول لهم يا شيخ؟**

انتفض "بكر الفريج" يقطع حديثهم ثائرًا:

– **ينعل دينك أنت وهُمْ يا توجالي، قل لهم هذا!**

وفيما يحاول سيدي **تخلو** كظم ضحكته، ويستغفر آخرون اللهَ مستنكرين

t.me/qurssan

سبابه لدين الله، يشيح الفريج بوجهه عن الجميع، ويبتعد وئيدًا تحت أزيز الرصاص نحو مقرّه في شونة الطحين حيث كان ينام لا يلتفت وراءه، ويتبعه المدين حاملًا لفافته الثقيلة بمساعدة الطيب الذي بدا يعرف ما بداخلها.

يوقنون أن كل من أتى هذه الأرض أرادها معبرًا إلى سواها دون أن يبرحها، جميعهم، عدا بعضًا من الجُرعان(*) الذين اعتادوا الجوسَ في الصحراء يقتاتون على ما يسلبون من إبل ترعى أو شياه تحوم. وعدا كتائب "التشادوة" المخلّطين بين عرب وأفارقة وقبائل شتى، أولئك فقط هم مَنْ عبروا سريعًا بعدما تزودوا ببعض من براميل الوقود وملئوا زمازم الماء وأرسلوا رُزمة معتبرة من الفرنكات الفرنسية تعويضًا عن موت ابن عتيق و"جود" الذي قتلوه مع غنمات **عسلة** حين جاءوا خطأً يقصفون وادي الدوم. أمّا هؤلاء الذين يقول التوجالي إنهم سيرون دينهم ويغادرون فهم -كما يقول بكر الفريج- أبناء تيه ووحشة، يلقون إليهم بزخات الرصاص لا يدرون أين ستسقط ومن ستقنص، كل الأرواح لديهم سواء، أرواح ضالة تائهة لا سبيل إلى هدايتها إلا مرورًا بجسور رضاهم وسبل هدايتهم، نذروا أنفسهم للفقد وأحبوا الموت كما يحبون هم الحياة، ملامحهم حلوة مُشرّبة برضا النفس وطمأنينة اليقين لكنهم لن يقنعوا بالماء الفُرات يخرج من أعصاب الحجر والنبات الأخضر وحليب الأضراع ودفء المجامر وعظام الأسلاف تحت

(*) الجُرعان: قبائل قديمة تنتشر في عدة مناطق في الصحراء الكبرى بشمال إفريقيا.

t.me/qurssan

لحاء التراب أسبابًا للتشبُّث بالأرض واستنشاق الحياة. يقول **تخلو**:

- ما يصير نتركهم يدخلون ويهتكون حرماتنا!

يجيب **المأمون**:

- تعرف الملك جورج يا تخلو، وربي وما أعبد يفهم عنك!

- أقول لا نتركهم يدخلون بيوتنا يا أخي، ما تسمع!

- كيف يدخلونها وأنت لا تعرف تعبر الطاروق فوق حمارتك!

- يهدمونها ويدخلون.

- لا العيال سيتصرفون.

يقول عبد رب النبي بمزيج من أسى وحسرة:

- العيالُ الذين يسيحيون في البراري ويزحفون للعمار واحدًا بعد واحد؟ أراهم يبغون أن تدفنها الرملة يا شيخ مأمون!

- لا، هذا شيء آخر يا عبد ربه، عيالنا بخير.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

15

ولا يغريك طويل البال
ولا يغرّك سُكاتَه
يردع البطّال حتى خيال المآتة

قال سيدي **تخلو** لأبناء ولده **الطيب**:

- **انصبوا النطاير!**

- **أين؟**

- **أي مطرح ترى منه أولاد الملاعين هؤلاء.**

رفع الشيخ حرب طرف عصاته في وجهه وزعق غاضبًا:

- **تُخرِج العيال كي تقنصهم المدافع؟ تعيدهم أو أنزل فوق نافوخك بهذي!**

t.me/qurssan

وقال **تخلو**:

- انت خاصي الجديان يا حرب ما تدري شـيئًا.. ينصبون النطاير كي يذهب هؤلاء المجاهدون في داهية!

تداخـل **المأمون** يقول إنـك يا **تخلو** انخبلتَ ولا بـد أن يعيد لك أحدٌ رأسك، وقال:

- المطيور يريد يرسل أنساله ينصبون نطاير الخشب ويكسونها بالجلابيب تحت ضرب المدافع.. تصرّفوا!

وما كان لأحد أن يتصرّف سوى بمحاولة إقناعه بالعدول عن رغبته، فيمنع هو أحفاده من الركض تحت الضرب إنقاذًا لأرواحهم.

راحتْ أيام لم يحصِها أحدٌ وجاءتْ مثلها وظلّ العيال على طاعة كبارهم، يفعلون ما يؤمرون ولو كان هدم دَوَّار كبير وإعادة بنائه وفاءً لقسم قطعه سيدهم على نفسه ساعة جهالة، تمامًا كما فعل سيدي **بكر الفريج** قبل ثلاث سـنوات، حين أقسم أمام الجميع أن يهدِم مراح الجمال ويعيد بناءه برمال حمراء وأحجار قديمة إذا لم يعد "الجاز" يتسرّب من فتحات الصهاريج بعد يوم واحد من لِحامها على يد **مزدان التوجالي**، يومها قال الفريج إن "كور" التوجالي لا يَصْلُح إلا لسنّ السكاكين وصبّ الفؤوس والمطارق، لا إصلاح صهاريج أصابتها طلقات مدافع التشادوة الرشّاشة، لكن الصهاريج قاومت

t.me/qurssan

انهيارها ليومين كاملين قبل أن تتفتّق لحاماتُها ويتسرّب ما فيها من جديد، فلم يتردّد بكر الفريج أن يبر بقسمه. ألزم أبناءه بهدم الدار وبنائها.

وكذلك سيفعل أنسال **تخلو** لو ما غلبه **المأمون** وحرب فتراجع عن أمره، لا بد سيصنعون "النطاير" أو خيالات المآتة كما يسميها أسايطة الدومة وينشرونها فوق الطرمات والقباب ولو أمطرتِ السماءُ فوق رؤوسهم حجارةً من سجيل، يطيعون "سِيدهم" مصدر رفعتهم ومبعث عزتهم ويفاخرون بطاعته وتلبية مطالبه، بل يصير الفخر التليد إن كان المطلب عويصًا بعيدًا عن منال غيرهم. الذين مات كبيرهم صاروا على طاعة مَنْ كان أقربهم إليه، ومَنْ طالت أعمار كبارهم صاروا الأطول أعناقًا بين الدوايمة، يصير العيال يافعين وتزدان وجوههم بالشوارب واللحى لكنهم حين يمرون بسقيفة يستظل بفيئها سِيدهم لا بد يخلعون مداساتهم تحت آباطهم ويمرّون، فإذا نودي باسم أحدهم تصنّع الرهبة وأسقط المداس فوق التراب ثم انحنى يلتقطه، ومن لم يفعل صغُر وهان وضاق به الناس.

وحين شوهد سالم ابن محمود نعيم طنبور في بنطاله الإسموكن وشيرزه الصوفي يتلهّى عن جمع الأشياخ تحت السقيفة بسيجارة مشتعلة يدسها بين شفتيه ويتجاوزهم دون اكتراث، تكاثر عليه عيالهم وكالوا له ما يوجع البدن ويمزق الهندام، وهو ابن مَن وحفيد مَن؟ لكن مَن ضربوه كانوا أنسال مَن جمعتهم السقيفة الذين لم يحِد عن تبجيلهم ذو نخوة. ولم تُعَدْ فعلتُه تلك معيارًا على تبدّل طباع أقرانه وتغيّر أخلاقهم، إنما اعتُبرتْ فسادًا في

t.me/qurssan

عقله وسوء تنشئته وعرقًا دساسًا امتد إليه من أبيه نعيم طنبور، كان يدفعه إلى التذمُّر من حياة الدومة وأهليها ويتطلع على الدوام إلى المغادرة ليعيش بجـوار أخيه مُحصّل الفواتير في شركة الجرارات الزراعية في "ديروط" أو لدى عمه صرّاف مكتب البريد في قنا، وربما شطح بخياله فتطلع إلى السفر إلى خاله الحارس على بوابة نادي رياضي كبير في الإسكندرية، ذلك الذي قال عنه الشـيخ حرب حين زارهم في الدومة منذ عدة سـنوات إنه صار مكشـوف الوجه بلا دماء أو حيـاء يتطلع في وجوه الحريـم بعين مجاهرة تتبجح في نظرتها ويرسـم ابتسامة ثقيلة باردة حين يمرُّ على محلّةِ غسيلهم بحافة البحيرة. وحين يعاتبه أحدهم يقول مستنكرًا:

- أنا أنظر إلى هؤلاء؟ هؤلاء لسن حريمات، تعالوا شاهدوا ما أشاهده عند أحواض السباحة!

هي عبارة قريبة بما صار يردّده الذين سافروا للعمل في بلاط والقلمون والقصر وأمهيدة وغيرها من واحات الداخلة لمرافقة السائحين في جولات السفاري والتخييم وقيادة سـيارات الدفع ولا يتذكرون الدومة وأهليها إلا عندما ينتوي أحدهم الزواج الحلال بإحدى بناتها، فيصير ملزما بزيارة كبار عائلته وأشـياخها ونيل البركة واستئذانهم في الزواج والسفر. هكذا فعل أبناء **تخلو وحرب وعبد رب النبي** وسـيفعل غيرهم ممن ينتظرون أن يصيبهم الدور في السفر والهجرة.

t.me/qurssan

أَمَرَ **تخلو** أنساله بنصب النطاير حتى تدفع المجاهدين، فأثار غضب **المأمون** وحنقه، لكن **المأمون** كبير الكبار وشيخ الأشياخ، لن يطعن الأصول ويقلّل كبيرًا فيأمر أحفادًا بما يخالف ما أمرهم به "سِيْدهم" حتى لو كان سيدهم هو ذاته **تخلو** المهماز ذو الضحكة الصفراء مَنْ يقتات على بيوض الحيوانات الحية التي يلقي له بها سيدي حرب بعد خصي الجديان والأحصنة، حتى إن أمرهم أن ينصبوا نطاير الخشب لمواجهة جيش لم يتبيّنوا مراده بعد. غاية ما يمكن أن يفعله **المأمون** أن يلزم **تخلو** بما يجب أن يأمر به أنساله، فإن لم يفعل نفذ أمرُه على ما أراد. هكذا تبقى الدومة، حتى هؤلاء الذين يتطلعون إلى المدينة والوادي والساحل ويجاهرون برغبتهم في الرحيل، ليس بينهم من يجرؤ على عصيان كبير، كبير العمر والعلم والمقام والمال. أربعة لكل منهم نصيب منها، عقد لم يبرمه أحد، واتفاق لم يُكتَب بمداد.

قال **بكر الفريج** باستنكار:

- تقول ننصب خيالات المآتة تقاتل المجاهدين يا شيخ تخلو؟

- نعم، كما قاتلت الزُرْق يوم أغاروا.

يصيح الشيخ مفلح، يقول بوجه أربد وكَيْلٍ فائض:

- هذولي الزُرْق كانوا يضربون بالرماح والمزازير والخراطيش، النطاير لا تصُدُّ المدافع!

t.me/qurssan

تتعالى قعقعة ضحكات الذين تذكروا ساعة جاء الطوارق "الزُرق" بالخيل والجمال، قبل مجيء رجال هيئة التعمير بثمانية أعوام كاملة، وبعد عودة ستنا **صبرنا** من الحجاز بأربعة، يحفظونها أعوام خير وبركة، مثل تلك التي جاءت فيها **صبرنا** أول مرة، صبيّة شافعة ابنة تسع برفقة قافلة مغربية تائهة. سدحت فيها السماء أبوابها بالمطر ثلاث مرات فامتلأت المخرات ونما الكلأ في سفوح الجبال وبطون الأودية، وفاضت أحواض الماء فربت الدواب وتكاثرت الجمال حتى ملأت بين الجبلين بأحوارها.

جاءت مجموعات من الطوارق بعمائمهم وألثمتهم الزرقاء من غرب الجنوب تقودهم جماهم التي اشتمت رائحة النماء، فحلّتْ يومئذٍ الأرواح في النطاير التي يُلبسونها جلابيبهم البالية وعمائمهم القديمة ويضعونها في النواصي المزروعة لتدفع الطيور والحيوانات الهائمة عن أحواض الجراوة والبرسيم والقصب. نُفختْ بها الأرواح فجأة فانخلعت من أوتادها وهرولت تواجه الغزاة كالهجّامة وتطير كالزرازير لا تكاد في عدوها تلمس الأرض، تقبِضُ على رماح مسْنونة من فروع الشجر وجريد النخيل برؤوس حادة مُدَبّبة تمرق في الحجر، ما رمت به حيًّا أو جمادًا إلا شجّت صدره، ظنّها الزرقُ مقاتلين خرجوا يلقونهم بعيدا عن حرمات البيوت ومحاجب النساء فسدّدوا نحوها أفواه بنادقهم الطويلة فثقبت صدورها لكنها لم تنزف سوى خيوط ضوء تعبر إلى الجهة الأخرى وظلت صامدة تلقيهم بالرماح. حتى إذا رَدّتِ المغاويرَ عادتْ إلى أوتادها واستعادت سيرتها تهش الطيور والهوام عن الزروع.

t.me/qurssan

أعادوا من جديد محاولاتهم تفسير الواقعة كلٌّ حسبما رآها، فقال **المأمون** ما قاله منذ نحو ثلاثين عامًا:

- عفاريت قديمة حسِبَت النطاير أجسادًا مُحنّطة فلبستها.

ويقول سيدي **حرب**:

- بل أرواح جنود مدفونة بالرمل منذ أغرقتها العواصف من قديم القديم.

قال الشيخ **جابر الوكيل** مصوبًا نظره إلى الشيّخ حرب:

- أولياء الله، أصحاب الشيخ مهود عليه السلام. هم من جاءوا يلبون نداءه، ولبسوا النطاير.

وهمّ سيدي **تخلو** يرد رأي جابر الوكيل، ثم كبح لسانه وقلّب ناظريه فيمن حوله يحث أحدهم أن يقول إنك يا جابر ما كنت زمنها تقيم بين ظهرانينا حتى تشهد على ما صار، بل مغتربًا في بورسعيد خلف لقمة عيشك وما عدت إلا بعد العدوان، لكن أحدًا لم ينتبه إليه، ومرّت كلماته بسلام، حتى أقسم الشيخ "عبد الله السنوسي" بأيم الله أن تلك النطاير ما كانت سوى ملائكة مسوّمين استجابوا دعوة "رحومة دليل النبي" حين عاد إلى الكعبة بأن يحفظ الدومة وأهليها. فأجابه **المأمون** سريعًا:

- هذي كانت قبل أن يجيئ دليل النبي!

t.me/qurssan

لفتت عبارته أنظار الجميع. بدا عدم اليقين في ملامحه. رجا لو استطاع شفط الهواء من جديد لابتلاع ما قاله. بينما خشخشت الضحكة في صدر **تخلو** كروحٍ تنازع، صائحًا:

- **اشهدوا يا إخوانّا! هو يقول أني مَن يخرّف!**

ولزم سيدي **بكر الفريج** الصمت ولم يدّعِ من جديد أن النطاير لم تبرح مكانها، وأنه هو من أطلق رصاص بارودِه مع ابن أخيه **شروفة** وبعض من أبنائهم الذين مرّسهم على ضرب النار خفيةً في حضيض الجبل، وأقسم عليهم أن يحفظوا هذا السرّ وفاء للمرحوم **شاهين** الذي عاهده على إعطاب البارود ونسيان أمره.

انتحى جانبًا وأشار إلى **المدين والطيب** وتهامس معهما، فانسلخ الطيب من بينهم متسللًا إلى خلف الدور والمسارب قاصدًا شونة الطحين التي اعتاد الفريج النومَ وحيدًا تحت قبتها منذ موت سيدي **شاهين**، ثم لازمها بعد موت ابن أخيه **شروفة**، لا يغادرها إلا لجلسات السقيفة بين شيوخ الدومة عندما يتناقشون في أمر جديد ويرسلون في طلبه، أو لمعاينة مراح الجمال وعماله، أو لمجالسة ستي **صبرنا** تمتد بهما الحكايات حتى تقول له:

- **فِزْ من مطرحك يالفريج، مالك متوى؟**

هي وحدها من تجرّأت على سؤاله لِـمَ لا ينام إلا في ضجيج الطاحونة ونهيق بغالها، دون أن تخشى احمرار شحمتي أذنيه وازروراق أنفه ولسعات

t.me/qurssan

لسانه، قال إن صوت الطاحونة أعلى من صوت فكره، وضجيجها يروح في ضجيج شواغله، الضوضاء كالحشيش كلاهما يغيّبُ العقلَ ويقطع عمله الدؤوب فلا يسـمح له بالاستغراق وإكمال الصور، صور الماضي الحزينة والحاضر الباهتة، يقول:

- كل ذكرياتنا حزينة يا صَبر، حتى التي كانت بهيجة مفرحة، صارت حزينة فاجرة وابنة لبؤة، لأنّها انتهت وما عادت تأتي سوى بغُصّة في الحلق.

استطالت الدومة ولم يعد يحيط البصرُ بأطرافها، دقّوا أنابيب حديدية في جوفها تجلب المياه قصرا إلى زراعات الحبوب والقصب، وصار لها طريق مُعَبّد يطرقه الأغراب، رحل **الشاهين** وما عاد يعزق الأرض ويفلق جذوع النخل، ما عاد يأخذه تحت إبطه ويناديه "**يا بكور.. وسّع صدرك يا بكور!**". ومات **شروفة** ولم يعد يحيك الألاعيب للإنجليز ويجوب الصحاري ويغني من أجلكِ ويقول بعيون لامعة "**أعشقها يا بكور.. أعشقها يا عم**"، أكلته الضباع نسائل وما كان على لسانه سوى اسمكِ يا صَبْر!

لـزم بكر الفريج الصمت وترك حرب والمأمـون وتخلو وبقية إخوانه يتجادلون في شأن النطاير يوم ضَرَبتْ الزُرقَ البرابرة. وظلّ الجميعُ بانتظار ما سيقوله **مزدان التوجالي** هذه المرة بعد أن تغيّرت شهادته عبر السنين، كلما بعُدت الذكرى واختلط ما جرى بما شُـبّه عليه، فلما رأى الأنظار مصوبة نحوه كأنصال الرماح المسنونة، قال:

t.me/qurssan

- لا أذكر أن النطاير جرت وراءنا!

- فلمَ جريتم كالفيران وأنت مِتّ في جلدك يا توجالي؟

- لا أعلم.. رأيت جماعتي يجرون مصروعين فجريت خلفهم وما وعيتُ إلا وأنا تحت السجيفة، وأنتم حولي متل الزبانية.

كلما أدلى بشهادته أصابتهم الخيبة فلا هي روت ظمأً ولا سكّنت ريبةً. ظلّ التوجالي رجاءهم ليؤكد المعجزة أو ينفيها. كان بين ثلة الأغوار الزُرق الذين جاءوا للسلب والخطف من أقصى الغرب على جمال كالبرق، يرفعون راياتٍ سوداءَ ويرددون عبارات التوحيد وهتافات النصر، يلقون بالمشاعل في أحراج النخيل وأشجار الدوم ويطلقون البارود في الهواء، قبل أن يرتدوا بغتةً كطيور داجنة اصطكت بأسلاك أقفاصها الضيقة، وحين سقط التوجالي تحت جمله وسط المعمعة وتركته جماعته فيما تركتْ ونقلوه إلى الدومة مغشيًّا عليه أقسم لمن تحلّقوا حوله يتطلعون إليه كعفريت صغير تائه، أنه ما جاء فيمن جاءوا إلا لأنهم قالوا عنهم كفارًا، أرضُهم محلٌّ للجهاد وأموالهم ونساؤهم حلال، وقال برجاء:

- إن كنتم قاتليَّ لا محالة فاجعلوا يهوديًّا يقتلني!

قال بكر الفريج:

- ومن أين نجيء لك بيهودي يابن القحبة؟

t.me/qurssan

- نصراني..يقتلني نصراني.

- لا نصارى ولا يحزنون! تمضي مع شروفة حين يخرج فيعطيك لقافلة عابرة، ولا نرى وجهك من جديد.

- إن عفوتم فأبقوني بينكم أبني كورًا وأخدمكم، أنا حدّاد فطين وأعرف ربنا!

أبقوه، لا لأنه يعرف ربّنا كما أكّد ولكن لأجل كور كانوا في حاجة إليه، بناه بعد أن باع جمله لسعد ابن جاد المرجوشي بتسعة عشر جنيهًا مصريًّا تحمِل صورة الملك المُعظّم، وشذّبَ عودًا من السنط موصولٍ بكُورٍ من جلد الجاموس يفُحُّ هواءه عبر فتحة ضيقة في جدار ذي فتحة ينفذ منها الهواء إلى وِجَاء الفحم المشتعل، وجلب سندانًا ومطارق ومنجلة، وخرج يحتطب من أشجار السنط والمشمش والكافور والزيتون اليابسة ويجمع خشبها ليصنع منها فحمًا يصهر الحديد ويملأ أحجار المعسّل في غابات الرجال بدلًا من كوالح الذرة التي تحرق الحجر وتكرف رائحة الشياط بعد نفسين.

لكن **التوجالي** لم يطمئن لأسباب رزقه الجديدة بل انكشف قلق نفسه وضيق صدره حين أفصح يومًا في إحدى جلسات السقيفة عن خشيته أن يموت على شعبة من النفاق بعد أن كفّت نفسه عن حثّه على الغزو،

t.me/qurssan

وحين احتدم الجدال قال:

- **ألم يقل الرسول جُعل رزقي تحت ظلّ رمحي!**

فالتفتوا جميعًا إلى الشيخ **المأمون** ينتظرون ما يقول، فسأل **المأمون** الشيخ **عبد الله السنوسي**:

- **هذا حديث يا سنوسي؟**

- **اسألوا ابن جابر الوكيل، أليس شيخًا بعمامة حمراء؟**

سألوا بيومي ابن جابر الوكيل فقال:

- **نعم، حديث.**

فقال بكر الفريج:

- **يعني نقتل الناس من أجل نسرق أرزاقهم؟**

- **أعود للكتاب وأخبركم..**

وحين مرّت أيام ولم يكن في جعبته جديد، وخالجت التوجالي لذّة انتصار فعاد يقول صائحًا:

- **جُعل رزقي تحت ظلّ رُمحي، هذا كلام سيدنا النبي، نطلع درب القوافل ونحصّل الرزق.**

وبينما تلهج ألسنتهم بالصلاة على النبي، يشير **المأمون** إلى أحد أنساله

t.me/qurssan

ليجلب له "صُرمته"، وما إن تطالها يدُه حتى يلقف بها التوجالي فتصيب عمامته وتطير بها تحت أقدامهم:

– تريد تجعلنا لصوصًا قطّاع طُرق يا بن السحالي، والله لو سمعك المرحوم شاهين لقتلك!

بينما يندفع بكر الفريج يقول:

– ليت النطاير فلقتك برمح صدئ يا مطعون، مات النبي ورمحه مرهون ليهودي بمقطفي شعير وأنت تجعله قاطع طريق؟

وكانت تلك المرة الأولى والأخيرة التي يشهد فيها **بكر الفريج** لخيالات المآتة بما فعلته، نافيًا ما ادّعاه ذات يوم بأنه هو مَن ضرب النار وأرهب الزُرْق ومعه ابن أخيه **شروفة** وثلة من أبنائهم، لكنه تراجع تاليًا يؤكّد من جديد أن بواريدهما وحدها هي من دفعت الزرق هاربين وأن النطاير لم تبرح أماكنها، مؤكدًا أن قسمه للشاهين بأن يُعطِب البواريد لم يشتمل حمل السلاح ضد المعتدين.

ولم يكفّ التوجالي عن تحريضه للدوايمة على الخروج للجهاد في طرق القوافل والجمال إلا بعد أن وردت الأنباء عن ضرب طائرات عبد الناصر للطرق والآبار التي تتسلّل منها غارات القبائل الغربية على الواحات وسكان الصحراء، ومجيء موظفي هيئة التعمير يمهّدون طريق الجمال بين الداخلة

t.me/qurssan

والعوينات وأبوبلاص لإنشاء طريق للسيارات، ويعبدون المدق الجبلي بين طريق السفر والدومة عبر النواصب الصخرية، وينقبون الأرض بحثًا عن الجاز.

***

حاول **مزدان التوجالي** استعادة ذكرى ذلك اليوم الذي أغارَ فيه على الدومة قبل ثلاثين عامًا، لكنها كانت خافتة بلا ملامح، بعيدة كيوم مولده، انمحت سنواتُ صباه من ذاكرته، وتبدل لسانه وملامحه وتزوج بإحدى نساء المهداوية. قال:

- **يمين طلاق لا أذكر شيئًا!**

انبعث -بغتةً- صوتُ خراطيش مكتوم من جهة قُبّة شونة الطحين يقطع سجالهم واجترارهم لهذه الذكرى البعيدة، سأل الشيخ حرب:

- **سمعتم؟**

أجابوا نعم. وحين أعاد السؤال عن مصدرها أشار أحد عيال الطيب ابن سيد **تخلو** جهة القبة، لكن نواظرهم الكليلة لم ترَ اليدَ التي تشير ولا حيث تشير. استلب صوتُ الخراطيش انتباههم كأن مدافع لا تدوي فوق رؤوسهم وزخات رصاص لا ترعد. تعدّدت جهات ضرب الخراطيش من فتحات المزاريب فوق الأسطح بينما خفُتت أصوات سيارات المغاوير وتراجع هدير مدافعها.

t.me/qurssan

تساءل بعضهم:

- **أين بكر الفريج؟**

وحين لم ترتد إلى مسامعه إجابة، قالوا إذن هي بواريد **بكر الفريج** تأتي من جهة شونة الطحين التي يرقد كل ليلة تحت قبّتها. هي ذاتها البواريد التي طالما شـيع أنه لم يفِ بعهده الأوّل لسيدي **شاهين** رحمه الله بأن يتلفها وأن ينسَى أنه حملها ذات يوم وجال بها البراري ليسرق العساكر ويُهرّب الحشيش والملح. وهو نفسه العهد الذي جدّده لسيدي **شاهين** بعد رحيل "الكابتن هاوارد" قائد تبـّة الإنجليز من الدومة أيام الحرب العظمى الثانية.

أيقنـوا أنها بواريده لكن أحدًا لم يوقن من يحملها ويطلق خراطيشـها من فوق الأسـطح وليس بينهم مَن يجيد رفْع السـلاح سيفًا كان أو حربة أو بارودًا، ليس سوى سيدي المرحوم **الشاهين** نفسه بعد أن عاد من أسر المهدية محاربًا صلدًا يلعب بالرمح والسيف كالظنون تلعب بعقل المهموم، وسيدي **المأمون** بعد أن عاد صبيًّا من رحلة العلم لدى السنوسيين في الكفرة، **وشروفة** قبل أن تأكله الضباع ولا تترك إلا نَعْليه ليستدلوا بهما عليه، وبكر الفريج يوم كان عَصَبًا عفيًّا يصعد غارب الجمل دون أن ينيخه بقفزة واحدة، ماهرًا كنطّاط النخيل، خفيفًا كبعوضة البحيرة، سريعًا كسيل الجبل، بينما هو الآن سـبعيني نحيل، عظامه كأعواد الخوص رفيعة ومدبّبة، وإن ظل خفيفًا لا يشكو آلام مفاصله وضعف بصره. لكنه لن يقاوم ارتداد البارودة في كتفه حين تطلق خراطيشها فهذه حكاية أخرى.

t.me/qurssan

سرعـان ما جاءهم **المدين** بالخبر وهو يحمـل بندقية "مارتيني" قديمة ويعلق في ظهره دبوسه الذي يروض به الضواري، يتصبّبُ عرقًا وسُخامًا، يقول:

- **وقع سيدي بكر الفريج عن عريشة الشونة.**
- **ومن صعد به إلى العريشة؟**
- **صعدنا نضرب النار.**
- **من؟**
- **كلنا، واحد يلقم والآخر يضرب، كما علّمنا سيدي الفريج.**
- فطست يا الفريج وجاء يومك!

***

t.me/qurssan

16

الدنيا عاقصة وراقصة،
ياجي ضربها في المفاصل
ترقص لكل حي رقصة،
ما دامتش لحد واصل

سـفينة يونانية يسمونها "باسيليكي"، تغادر ساحل اليونان تحت بصر حكومتها منتصف الشـهر الإفرنجي، رائحة وغادية عبر البحر لا ترسو بميناء، مواتيرها بخارية تصبغ السـماء بالرمـاد. تفرغ حمولتها في قوارب خشبية تبحر إليها لتقابلها بعيدًا عن الشاطئ، قوارب لا يحتاج رسوها إلى قيعان عميقة وعوارض صلبة وأوناش هائلة، تملأ بطونها بـ"اللون" وتعود ناحية الشطآن لترسو في وضح الشمس، تضع البضاعة فوق الرمال حتى

t.me/qurssan

يأتي رجال العصابات يعبئونها في أنابيب زنك تبتلعها الجمال ولا تهضمها، فيصير بمقدورهم استعادتها من بطونهم بعد الوصول، أو تُحْشى في أوبارها الكثيفة فتختفي عن أعين مفتشي الحدود إن قابلوهم. يسيرون جنوبًا إلى "عين دلّة" و"الفرافرة" و"موط" و"باريس" ومنها إلى أسيوط وبحر النيل وبلدانه الخضراء وسككه الحديدية. طُرَب حشيش لو تراصت متجاورة لَكَسَتِ الصحراء بالأخضر الشجري الفاتح ولانسلطت القوافل على دروبها. تغمر الصحراء من "جالو" إلى "جغبوب" إلى "النطرون" إلى الوادي قبلي وبحري، عصابات كبيرة زعيمها اسمه "عبد العاطي آل حسونة المغربي" رجل داهية، مصيبة سوداء حطت على عموم الصحارى، جزائري تعلّم في فرنسا وعاد بعلمه ليصير ربّ المزاج وإمبراطور الكيف في هذي الأرض، يشبه الخواجات، مثلهم تمامًا، ملوّن ونظيف لكن مخّه يزن قطارًا بقضبانه في المكر والدهاء، وكان **أبوبكر الفريج** على حداثة عهده وصغر سنه ذراعه اليمنى، كان يقول:

- الفلوس كانت آخر همّنا. كنا نحب التهريب لوجه الله، مزاجنا ملاعبة الحكومة والهجانة وحرس الحدود، وهم كانوا مثلنا يحبون مطارداتنا كالعيال.

فلما انقتل حسونة على يد الهجانة بعد انتهاء الحرب العظمى الأولى سُمي باسمه الدرب الصحراوي الوحيد صوب سيوة، وورث **الفريج** عنه بعض رجاله وصار بهم مهربًا عظيمًا كما شاء الله، ضحك على الإنجليز وألبسهم

t.me/qurssan

العمائم وشرابيش الترك. لم يعمل بالحشيش، قال الحشيش حرام، لكنه ما توقّف عن تعاطيه يومًا، وحين تسأله لـمَ تشرب حرامًا؟ يقول بل مكروهًا كالغناء والطرب، ولا يقول لك مَن صاحب الفتوى!

هَرَّبَ **الفريج** التبغَ والملح والذهب حين احتكر الإنجليز تجارتها، وصار على الفقراء أن يأكلوا طعامهم سامطًا لا طعم له، فأعلن الخواجة "دمريخر" قائد حرس الحدود عن مكافأة عظيمة لمن يشي بمكانه، كان رجلًا صعبًا عنيدًا أكثر من بكر الفريج نفسه، وضع الفريج في رأسه وجعله مواله وحكايته، ثم ضاعف المكافأة بعد أن استغفله الفريج وضحك عليه وتخفى في هيئة رجل دين بدوي يقطع الصحراء من جالو إلى الإسكندرية ليزور الكعبة، وذهب إلى "دمريخر" بكعبي قدميه يخبره أنه شاهد قافلةً محمّلة بالحشيش تغادر مطروح إلى قلب الصحراء، وأدلى لـه بأوصافه وأوصاف مَن معه ورسم له خط سير يقوده إلى حقل كثبان رملية خطر، فحرّك الرجل دورياته بعيدًا عن عصابته حتى بلغت غايتها، ولما اكتشف الخديعة طارده لأسابيع طويلة حتى الفيوم، ثم اكتشف بعدها أنه وابن أخيه **شروفة** وعصبة رجاله كانوا يقيمون بالغُرف المجاورة له باللوكاندة لكي يرصد تحركاته وأوامره إلى عساكره عن قرب ويدير تجارته بمأمن.

كانت البلاد حينها محرومةً من الملح بعد أن جعلته الحرب سلعة عزيزة غالية. شحّت السبخاتُ ونضب طرحُ البحر وندرت أماكن تجارته، حتى في وادي النطرون مركـز تجميع الملح الذي تأتي به قوافل درب الأربعين

t.me/qurssan

مهربًا من بئر السلطان في السودان، حلّت ساعةٌ لم تخرج منه حبة ملح واحدة بعد أن حاصرت دوريات الحكومة البئر التي تزود القوافل بالمياه في طريقها إلى الشمال فمنعتها من الوصول!

حكى **أبو بكر الفريج** الحكاية بلسانه وأطرافه الأربعة، حين جاء إلى الدومة شابًّا يافعًا، وهو يضحك كالصغار، يخبط كفًّا بكفٍّ. رجل ينفذ إلى قلبك كالكلمة الطيبة تقع في نفس المؤمن. تحبُّه، كما يحب هو الضحكَ على الإنجليز والهجانة السودانية. دفع الدوايمة إلى كرههم وكره الفرنساوية والطليان وكل أجناس الخواجات، فحاولوا، وقالوا له: "نكرههم ونكره أسلافهم". حكى لهم الحكاية بعد أن وصل الدومة بوصفة على رقعة جلد، فأيقنوا أن الإنجليز وراءه، وأن أدلاءهم سيتتبعون أثره حتى يصلوا وتصير الدومة تحت عيونهم مرة أخرى، بعدما تاهوا عنها ونسوها. لكنهم لم يخافوا! ما كانوا ليخافوا من دورية حرس، عساكرها اثنا عشر سودانيًّا يقودهم إنجليزي. غاية ما يفعلون سيضربون بارودهم في الهواء وأعلى الأسطح وحول مصابيح الزيت، وربما أصابوا واحدًا منهم أو اثنين ليعبروا "المَنْزَلة" إلى قلب الدومة، لكن **الشاهين** سيتصرف كما تصرف من قبل، لن يمكثوا بينهم وسيرحلون ويتركون لهما الأرض يزرعون ويقلعون.

جاء بكر الفريج بحصان وجمل لا شدادة على سنمه ولا خطام في فكوكه وإنما بدا مسلوبًا من قطيع يرعى، قال للشاهين:

- **أنا طرف الشيخ محمد بن الفضل علي.**

t.me/qurssan

ولم يكـن **شـاهين** بحاجة ليتذكّر صاحب الاسـم، فهـو منقوش على رخامة المسـجد منذ سنين، تسبقه صفة إمام الشرق وأسد الرمل المجاهد ابن المجاهد، وقال **الشاهين**:

- انت يالفريج على روسنا نعرفك ونعرف أفعالك السوداء، ربما تكون كبيرًا في عموم هذي البراري، لكني هنا كبير الدومة، تعيش بيننا وتسمع الكلام وتقول لي يا سـيدي! نُعرّش لك سـقيفة وتكون لك دار وزوجة، شريطة أن تدفن البارودة أو تعطبها، تنسى ضرب النار وأفعال النُّهّاب، ولو جاء الهجانة نخفيك عن أعينهم حتى يرحلوا، ولن نسـتقبل من عصبتك أولاد حرام.

وقال **بكر الفريج**:

- أسمع الكلام لكن لا أتزوج، هذا عقال لا أطيقه.

وأصرّ سيدي **شـاهين** أن يتزوج قبل أن يسقفوا له عريشة دار، بامرأة يسكن إليها وتنجب له عيالًا يربطونه، أعطاه ابنة جاد المرجوشي فسرّته، ومـرت أيام قليلة عتل فيها **الشـاهين** الهم الثقيل بعـد أن صارت الدومة تُطرق بالوصف على رقاع الجلود لا بالضرب في الصحاري، وعن قريب تصير نقطة فوق خرائط العابرين.

وكانـت دوريات "دمريخر" تنقّب الأرض حول الدومة نهارين وليلة بحثًا عن بكر الفريج. رأوا آثار حصانه وجمله مقطوعة فوق بساط الحجر

t.me/qurssan

الـذي يحيط بالدومة من جهـة الغرب جهة "بين الجبلـين" وأبو بلاص. غسلت الريحُ الآثار عن الحجر كما يغسل الموج رمل الشاطئ، حين اجتازوا مسـاحات الحجر قابلهم حجر نوبي أصفر يلاصق الغرد الرملي فسـاروا فوقـه، كانت ترابته ثقيلة تشي بمن سـاروا فوقه ولو كانت قمرة أو حمامة حطت لتلتقط قمحتين.

تتبعت الدورية آثار **بكر الفريج** حتى اهتدى أدلاؤها إلى مئذنة المسجد من فوق تبّة. اقتربوا بحذر يرسلون أمامهم زخات الرصاص وصياح الهجانة وجعير الجمال، وتهيـأ الدوايمة لحرب قريبة وهرع كلٌّ إلى مخبأ وسـلاح، لكن **الشـاهين** أغلق طواريق الضروب ومنـع الدخول والخروج. وحين اقتربت الدورية أُخِذَ "الخواجة" بمرأى الشـجر والنخيل بعد شـهور في القفر والجفاف فحظر على العساكر إطلاق الرصاص، وأرسل من رجاله من يُنبئ بوصول طليعة جيش إنجليزي جرّار يفرش الصحراء.

خرج لهم **الشـاهين** مُرحّبًا ونزل **دمريخر** عن ركوبته وصافحه بحرارة وسار معه إلى أحراج النخيل. سأله عن بكر الفريج ووصف له سمته بلهجة مصرية ركيكة. وكان **الشـاهين** يعلم أنهم قرءوا آثار الرجل حول الدومة ولا سبيل إلى إنكار مروره ومكوثه بينهم. فأشار ناحية مظلة الجريد التي تجاور عين الماء وقال:

- كان هناك لكنه غادر!

وفهم **دمريخر** حيلته فابتسـم وربّت فوق كتفه مشيرًا إلى مظلة الجريد،

t.me/qurssan

ثم إلى اتجاه معاكس يقول:

- صدقت يا شيخ، أنت لا تكذب! هو غادر من هناك، فأين ذهب، هنا أم هنا؟ أم أحد هذه البيوت المغلقة هناك؟

وضع **الشاهين** الرجل تحت إبطه وسار به إلى السقيفة كأبٍ طيب يبرّ بولدٍ طيب، وفي الصباح تحلّق عساكر الدورية حول موردة البئر الحامضة حتى ينتهي قائدهم من الاستحمام في مائها الكبريتي الثقيل بـ"مَحمّة زيتون" تثير رغاوي ذات رائحة طيبة منحها إياه الشيخ **شاهين** ليدعك بها جسده المغبّر بآثار الطريق، ولما فرغ ارتدي جلبابًا أبيض قصيرًا فضفاضًا توسّط به جلسة السقيفة حول الشاي الزردي المنكّه بالنعناع وماء الورد. وجلس بين شيوخ الدومة تحت السقيفة الكبيرة لا يتعرّف بأبوبكر الفريج للمرة الثالثة بعد لقائه به كحاج مغربي في صحراء الشمال مرة، وشريك سكن في لوكاندة الفيوم مرة ثانية، وجليس مضياف بين **الشاهين** وبوسنة وجاد المرجوشي والوكيل والشيخ المهدي والسنوسي، يجلس مطمئنًا أمام منقد الخشب برأس حليقة وبشرة نظيفة لامعة يدسُّ الحطبات المشتعلة تحت سماور الشاي ويصبُّ للرجال كصاحب بيت كريم.

يحكي **دمريخر** عن مغامراته الصحراوية العتيدة ومطارداته للمهربين واللصوص، يسرّ إليهم أن لا أحد أعجزه وأرهق بدنه مثلما فعل بكر الفريج الذي قطع البراري خلفه مطاردًا حتى اهتدى إلى الدومة، يحلف اليمين بعد اليمين أنه سيطاله وسيفصل رأسه عن جسده ويرسل بها إلى

t.me/qurssan

القاهرة في خُرج حمار، مجرم يجرّ في ذيله الخراب أينما يحل، لا دين له يتاجر بالحشيش والخمر والنساء. يستمع بكر الفريج بإنصات ويربد وجه الفريج ويتصاعد الدمُ إلى رأسه، تشتعل أذناه احمرارًا وتصطبغ أرنبة أنفه بالزرقة وتصير هاتان علامتي غضبه اللتين سيتحاشاهما من يعرفه لسنين بلا عدد ستأتي، ويلحظ **الشاهين** تبدل ملامحه وتيبس أصابعه فيخشى أن يأتي فعلًا طائشًا يؤذي الرجل وعساكره، فيسأل دمريخر:

- وإن قلنا لك مات بكر يا خواجة، هل تكفُّ بحثك؟

- أرى جثته وأكفّ، أرى جثته!

يشير بهدوء إلى أبوبكر الفريج الذي يواصل صبّ الشاي وإرساله إلى الجالسين كأن الأمر لا يعنيه. يقول **الشاهين**:

- هذي جثته يا خواجة!

ينتفض **دمريخر** ويصيح أنها مكيدة، خيانة عظمى ستتحرك من أجلها جيوش المملكة وستدك الصحراء دكًّا. يأخذه **الشاهين** تحت إبطه من جديد ويبتعد به ناحية المروج وأحراج النخيل، يجلسان فوق حجرين مسطحين شذبهما الشيخ **مهود** -رحمه الله- والشيخ بوسنة لجلستهما قبل رحيلهما ليراقبا واردي العين وبئر الماء. وتمر ساعة يعود بعدها **الشاهين** والخواجة بأسارير أكثر انفراجًا، يستعيدان مكانيهما تحت السقيفة، ويأخذ دمريخر من **الشاهين** يمينًا أن بكر مات، وأن مَن يجلس بينهم الآن رجل آخر

t.me/qurssan

سيزرع ويقلع أو يبني تجارة أو صنعةً يتكسّب منها، وستنجب له زوجته "ابنة جاد المرجوشي" أبناء يطيعونه، ويهديه **الشاهين** جثة حيّةً أكثر نفعًا من جثة أبوبكر الفريج، يعطيه الطيار الأسترالي الذي ضربهم وأنقذوه، فيهش له دمريخر فرحًا بالإنجاز الكبير.

ويأخذ **الشاهين** على **دمريخر** يمينًا ألّا يصادر ملحًا أو طحينًا من فقير أو جائع اضطر إلى تهريبه خوفًا من بطشهم، وأن يرسل إلى جماعته هناك في ديوان البوليس أن بكر الفريج انقتل وعصابته انضربت وتفرّقت في البلاد، فيعطيه دمريخر كلمته. وحين تنفض جلسة السقيفة بعد غداء الضأن والعصيدة، يستعيد الخصمان ذكراهما، دمريخر والفريج يفاخر كل منهما بما فعل بالآخر ورجاله، يسأله دمريخر عن قريبه شرف الدين، الفتى ذي العيون الملونة كأبناء أوروبا والذي لعب مع رجاله الورق في لوكاندة الفيوم فأفرغ جيوبهم وسلب مالهم، فيجيبه بكر أنه ابن أخيه الذي حاك لهم الشراك وأشار عليه بما فعل بهم، شرف الدين أو **شروفة** كما سيعتادون مناداته حين يلحق بعمه بكر الفريج في الدومة بعدما ينتهي من رد الأمانات التي أرسله بها إلى **"جالو"**، ويكشف كل منهما ألاعيبه وثغرات رجاله، ثم تطول أوقاتهما.

ويشرع بكر الفريج ببناء مراح للجمال يربي فيه الإبل والأباعر ويداوي ما يحتاج العلاجات ويتاجر بها وسيلحق به ابن أخيه **شروفة** بعد سنوات قليلة ليتاجر مع العابرين على دروب القوافل.

t.me/qurssan

ينقل دمريخر جسد الطيار الأسترالي ويكتب في تقريره المرفق، عُثر عليه رفقة مجموعة من البدو الجائلين على جانبي الحدود. يحب الدومة ويعتاد زيارتها. يقول في مرساله إلى قيادة الجيش إن تبّة رومانية قريبة من نقطة التقاء طرق سفر القوافل في قلب الصحراء، تصلح لأن تكون مركز مراقبة إستراتيجيًّا لخدمة جيش المملكة وأغراضها. تبة عالية تقع على مسيرة ليلة أو نهار من واد صغير تحفّه أشجار الدوم وواحة يسكنها الملائكة تُؤتى ماءها من عند الله، قريبة من واد (بين جبلين)، على قمة أحد هذين الجبلين دير قديم وقلايات رهبان لا يعلم بوجودهم أحدٌ. ويُذيّل رسالته بتوصية مزدانة بعلامة (سرّي) إن مركز المراقبة المقترح سيمنح المملكة ضرائب القوافل الهاربة من مكوس طريق النيل ويقيها الأشرار والمهربين وجيوش الأعداء المتسللين في الغرب. يبرقون إليه بالتوجه إلى قنا لاستلام عربات الجنود والمهمات والوقود والذخيرة لإقامة النقطة بعيدًا عن الدومة بخمسة عشر ميلًا.

وبقي **دمريخر** لسنوات يدير نقطة المراقبة لا يغادرها إلا لزيارة الدومة ومجالسة صديقه **بكر الفريج** في مراح أقامه لرعاية الجمال والخيول والبغال وعلاجها، وأوكل إليه دمريخر الاعتناء بخيوله، وظلا يقضيان الساعات يسترجعان تفاصيل المطاردات التي تغلب فيها كل على الآخر، يكشفان لبعضهما ماذا فعلا وفيم فكّرا ومن ساعد وكيف فعل، إلى أن ترقّى الخواجة وانتقل إلى مركز مراقبة فوق الجبل الأسود في "واحات البحرية"، مركز كان

t.me/qurssan

يديره الكابتن "كلاود وليامز" صاحب سيارات باترولز الإنجليزية التي استخدمت في الحرب العظمى، أول من جاب الصحراء الغربية بالأوتوموبيل وعمل خرائط ووضع اسمه على الجبل الأسود وأسماه باسمه.

***

لِحق **شروفة** بعمّه بكر الفريج بعد نحو ثلاث سنواتٍ فَشلَ خلالها في العثور على وادي الدوم حسب الوصف الذي خُطّ له على رقعة الجلد، إلى أن عثر عليه جنديان راكبان تابعان لدمريخر قريبًا من التبّة الرومانية التي تشرف على درب القوافل، فأمرهما الخواجة بتوصيله إلى الدومة وتسليمه للفريج يدًا بيد، وظنّ **شروفة** أن الخواجه لم يعرفه أو أن بالأمر خدعة أو مكيدة، حتى بلغ الدومة فألفى جنةً خضراء تنبعث الطيور من زروعها وتركض الدواب ريانة بادنة بين مرابعها، ورأى عمَّه بكر الفريج وامرأته وصغيرين آخرين يرفعون روث الجمال من ترابة المراح إلى عربة "كارو" فأدرك أن الثور الذي يحمل كُرة الأرض فوق قرنه لا بد نَطَحَها فخلط الشرق بالغرب وبدل طباع الفريج.

مكث في بيت عمه ضاجًّا بحياة الدومة ورتابتها ينتظر يوم يجيئه الفريج مُلثّمًا بيشماغه وبارودته خلف ظهره عازمًا على الرحيل إلى بحر الشمال، لكن انتظاره بدا أبديًّا لا طائل منه، فأيدي الفريج التي كانت تحمل التبر وسفاتج الأوراق المالية وتنثرها بلا رضا صارت تحمل البعر وتمسح تحت الدواب بسكينة الأولياء الواصلين. رأى **شروفة** أن يرحل وحده قبل أن

t.me/qurssan

تثقل خطوته ويعتاد الظل وجلوس الربعة، مكتفيًا من عمه الفريج بإرث اسمه ليفسح به مكانًا بين عصابات الدقّة الشمالية والصحراء، لكنه يتعثر في عيني **صبرنا، صبّارة، صَبر**، تحمل إلى زوجة عمه في صينية "نَفَثة" فتأسر لبّه وتصفد حركته وتكبله إلى جذوع النخيل وحواف البحيرة، وحين يتمرّد على أصفـاده ويحزم حاجته ليغادر لا تحمله عزيمتـه إلى أبعد من أطراف الوادي ونواصي النقوب المحيطة فيعود ملهوفًا يحوم حول ضربها ليحظى برائحة نسيمها، عَشقَها والتاع في عشقه وأعلن، فقالت له كما قالت لسائر خاطبيها:

- ما خلقت للنكاح والحبل!

حتى يعود ذات يوم من سفرة بعيدة فلا يجد لها أثرًا في الدومة، يقولون اختارها دليل النبي لمجاورة الكعبة! فيسـبُّ دليل النبي ويسـبُ الكعبة، يسعى خلفهما بحصانين حتى تتفتق رئة أحدهما بأنفاسه المكتومة وينصرع بين يديه ويعود بالآخر مكدودًا يزحف كالجريح. ثلاث سنوات أفرغ فيها آبار غضبه يحفر الصخر وحده دون مساعدة من أحد حتى تفجّر الماء بين عروقه بئرًا حلوة أسماها "بير صبارة".

***

t.me/qurssan

17

أنا جمل لكن علّتي الجمّال
غشيم مقاوح ولا يعرف هوى لجمال
ربي رماني حدا اللي مايعرفوش قدري
شيلوني الترابة بعد الحمول العال

التوتِ الطريق وغابت كثير من معالمها، المعالم التي عرفتها **صبرنا** قبل ثلاث سنوات حين غادرت مع زوجها دليل النبي إلى مكة مع مَن دعاهم الرسـول لزيارته، وكما عرفتها من قبل حين اهتـدتْ إلى الدومةَ في قافلة أضاعت الطريق ونضب زادها حتى رأت شواهد الحجارة في إغفاءة كأنها رؤيا الأولياء، هذه المرة لم تغفُ ليوحى إليها بطريق النجاة، ولم تلتقِ القافلة التي تحملها من الحجـاز بأخرى قادمـة من كردفان على درب الأربعين

t.me/qurssan

فيتبادلان النصائح والمعارف وجارية سمراء حبلت في صهريج مياه. هذه المرة بزغ من غرود الرمل مُلثم بشماغ من الصوف في يده رسنُ جمل مُحمّل بقرب الماء وجرار السمن والفواكه ليبيع العابرين ويبادلهم بريالات الفضة وحلي الذهب والشاي، ويحمل عنهم فائض حاجاتهم من العلب الفارغة والصناديق والورق وأقلام الحبر وزجاجات الأدوية والعلاجات، يسألونه عن الدومة لإيصال أمانة في أعناقهم فيخبرهم أنه من أهلها ويعدّد لهم أماراتها، حتى إذا استوثقوا أخبروه أن الأمانة هي ص**برنا** زوجة "**دليل** النبي" عبد الرحمن التي مكثتْ معيته ثلاث سنوات في مكّة حتى اشتاقت أهلها ولم تستطب البقاء بين زوجاته وأبنائه فاستودعها بينهم لإعادتها. فإن أراد أن يحملها إلى الدومة أقسم اليمين على الكتاب أن يؤدي الأمانة لا ينتقص منها شيئًا وأنّ لعنة الله عليه وغضبه إن هو رأى طرفًا منها أو آذاها أو لم يذُدْ عنها بدمه وأنفاسه. غامت في عينيه السماء ورجفت الأهوال في قلبه وضاقت بأنفاسه ضلوعُه. وقال في نفسه: (**سبحان الله**) مَن خلعت فؤادك يا **شروفة** وحفرت بين ضلوعك بئرًا فياضة بالشوق واللوعة وهاجرت على راحلة غيرك قبل ثلاثة أعوام تعود من أقصى الشرق لتلتقيها فوق رمال لافحة وتحت شمس أوّارة، تمامًا كما يلتقي طائران خرج أحدهما من جبال الهند والآخر من بحر الإنجليز ليلتقيا فوق أجمة على حافة عين صحراوية. أقسم **شروفة** على كتاب الله وردّد خلف شيخ القافلة ما أملاه دون أن يعيه أو يدركه!

t.me/qurssan

أخبروها بما عزموا فوافقت لتكفيهم سفرًا تسوخ فيه الأقدام وتتشقق الحلوق بالعطش، تعلمُ أن من يطرقون الصحراء يؤمنون بالعلامات التي يُلقي بها الله في طرائقهم ليتبعوها ويتطيرون بمن يتجاهلها، وقد بعث في طريقهم **شروفة**، هو بالذات دون سواه، تعرفه وتتذكّر نزقه وطيش فعاله، تلصُّصه المفضوح ونظراته الجارحة وتتبعه لها منذ جاء الدومة إلى عمه بكر الفريج، يافعًا يصغرها بسنوات عدة لكن رأسه شيطاني يلعب بالكبير والصغير، هو مَن أشار على عمّه بما فعل بالإنجليز ودوريات حرس الحدود، شيطان يوحي له بألاعيب تأتيه نائمًا ويقظان.

حكى عنه "نعيم طنبور" وكان يصحبه في بعض جولاته أنهما مرّا بواحةٍ تسكنها قبيلة صغيرة من "الجرعان" يقيمون بين "أركنو" و"العوينات"، واحة صغيرة تبعد عن الدومة نحو تسعة أيام، قريبة من الهضبة الكبرى لا ينبع ماؤها من باطنها، وإنما من سحاب ريّان تدفعه الريح وتصدُّه الجبال العالية فتنفتح صنابير المطر في المخرات. قال **شروفة** للكهم إنهما طالبا علمٍ يرتحلان من فاس المغرب إلى فاشر السودان ويلتمسان لديه الزاد والماء حتى البئر التالية، فالتمس الرجُل في علمهما النصيحة وقرر أن يستفتيهما في صيام رمضان، فما كان من **شروفة** إلا أن نزل به واديًا ضيقا بين جبلين وأمره أن ينادي بملء حنجرته "**هل نصوم رمضان أم لا؟**" فارتد صوتُ الرجل من جديد بلفظة ناصعة مدوية "**لا**" فتعالت صيحاته في سعادة وكرّر سؤاله ثلاث مرات ليستوثق الإجابة، وعاد الصدى بنفس الـ"**لا**"

t.me/qurssan

وعــاد إلى قبيلته يزف إليهم النبأ، وذبح شــاة للضيفــين إكرامًا لهما قبل أن يزودهما بزاد السفر. وحين سأله **نعيم طنبور**:

- **كيف فعلت؟**

قال:

- **رأيتهم في "الجبل الأخضر" في برقة يفعلون!**

وضحك الدوايمة حين سمعوا الحكاية، بينما أرسلت **صبرنا** من يُبلغ **شروفة** أنه سيبوء بذنب كل مَن أفطر رمضان في هذه القبيلة وأن مآله جهنم خالدًا فيها حتى يصلح ما أفسد. فأجابها:

- **أصلح.. وأجيئكِ بمهر لم تؤته بنات الملوك.**

ولم يكن بالدومة من لم تحادثه نفســه بالزواج بها منذ تركتها القافلة مع **توتة** زوجة **تخلو** صبية عليلة، لم يكن جمالها يخفى عن ذي عين، كلما مرّتْ السنوات اشتعلتْ حُسنًا وصبًا وفتنة وحين تغضّنت أساريرُ **توتة** وصارت جدة لحفيدين كان ميجور إنجليزي شاب في قوة حرس الحدود يجلس بين يدي **المأمون** طالبًا نسبه في **صبرنا**، بينما ظلت الأخيرة تردد:

- **لا أتزوج.. قرةُّ عيني مع الله لا سواه!**

ولولا ســيرة **شروفة** وما أُثير عن جولاته فيما حول الدومة من مفاوز تمتد وأودية تتمعّج، لقبِلت به خزامًا ذهبيًّا في أنفها الصغير تنزعه بأنملين

t.me/qurssan

وتعيده وقتما تشاء، لكنها رفضت وما كان لغيره من أبناء الدومة أن يتقدّم إلى خطبتها بعده.

حتى جاء دليل النبي وخرج بها في غيابه إلى مكة الشريفة، وكانت تلك أطول فترات غيابه خارج الدومة لا صاحب له سوى جملين يحملان متاعه، وحين عاد كان الجملان يجرّان سيارة "فورد" عالية محمّلة بإطارات السيارات بدا أنها تعطّلت بعساكرها فتركوها ونجوا بأرواحهم حتى عثر هو عليها، وكان ذلك رزقًا وفتحًا مبينًا وأعجوبة جديدة لم يعرفها سوى من ولدوا خارج الدومة ورأوا السيارات التي تسير على أربع.

علم **شروفة** بزواج "صبارته" فانقطع إلى وحدته يلوك أسى فقدِه ويمضغ مرارة عشقه حتى هزل وخط الحزن في ملامحه سنين لم يعشها، وصار يفرغ طاقة حزنه وفي نبش الأرض فحفر وحده بئرًا "بحري الدومة" في بقعة ليست بالخفيضة كما هو معتاد في حفر الآبار، مثل تلك البئر التي عكف **الشاهين** والوكيل الخشّاب وآخرون على حفرها لسنوات لتساعدهم في ري الزراعات لكنها كانت خفيضة لا تصل إلى مناسيب الأرض المرتفعة فظلّت معطلة لا تعمل إلا بساقية ذات قوادس(*) فخارية صغيرة لا تروي سوى الأحواض القريبة حولها، وحين نجحوا بعد سنوات أخرى في حفر بئر جديدة في موضع أكثر ارتفاعًا، كانت مياهها حامضة ثقيلة ساخنة صيفًا وشتاءً، بل كانت في مواقيت معلومة كافية لسلق البيض ونتف ريش

(*) قوادس: أوانى فخارية اسطوانية الشكل تستخدم في السواقى.

t.me/qurssan

الفـروج دون نار، ذلك أنها كانت تخرج من جوفٍ ملتهب وتمرُّ بشـقوق صخرية مالحة تكسبها مذاقًا مريرًا كما قال **الشاهين** وأكّد لجابر الوكيل حين اعتبرها أمارة غضب من الله تستوجب هدم دير النصارى وقلاياتهم. ولم يكُ بالدومة آنذاك غير عين باجة الروّاحة والبحيرة التي تتلقّف المياه الفائضة عن موردة العين في موسـم فيضها والبئـر الحامضة. بينما كانت البئر التي حفرها **شروفة** رائقة عذبة تنساب متدفقة من مرتفع إلى حيضان الحبوب والذرة عبر قناية مستوية. وأحاطها **شروفة** بسياج من إطارات السيارات التي عثر عليها وجلبها إلى الدومة.

تعرف **صبرنا** كيف أغرم بها **شروفة** وكم عانى بعد أن غادرت لكنها ما أحبّت غير الكعبة ومجاورة النبي وعدّت زواجها بالدليل عبادة تقرّبُها إلى صاحب الكعبة، وما كانت لترفض ما أقرّتْه القافلة بإيداعها أمانةً بين يديه بعد قطعه اليمين ويده مبسوطة فوق المصحف الكبير. تعرف أنهم يعدون لقاءهم به رسالة سماوية وشارة إلهية ينجون باتخاذها ويهلكون بإنكارها، هـي دروب الله لا ينجُو مـن أخطارها إلا من أريد لـه النجاة، لا بفيض المؤونة ولا عزيمة البعير ولا المعارف والتجاريب، كم من قافلة حُمّلت بما يفيـض عن حاجتها من الماء الزلال وانفجرت قرابها بسـقوط جمل زلّت قدمه بين الصخور أو باصطكاك جملين أفزعتهما عاصفة مباغتة! وكم من قافلة أوغلتْ باتجاه بئر قديمة فعثرتْ على أثره بعدما سفت الريح الرمال فردمتها عن آخرها، وأخرى هزُلت جمالها ونفقت في منتصف الرحلة دون توطئة، وغيرها تربّص بها اللصوص فقتلوا رجالها وأسروا نساءها وتركت

t.me/qurssan

بقاياها للعقبان تأكل نسيرها، تلك هي حال الصحراء لا يدفعها إلا إرادة مَن خلقها، فمن أنكر علاماته استحق وبالاتها.

تُرِكتْ فوق جملها وربط **شروفة** خطامه في سرج جمله وسار على قدميه من المغيب حتى مطلع الفجر، ولما كلَّ الجملان وتباطأت خطاهما أناخهما قريبًا من ربوة صخرية كبيرة وأقام خيمة وطلب إليها أن تأخذ نصيبًا من الطعام والنوم داخلها، وأمّن لها مسربًا إلى خلف الربوة لتقضي حاجتها إن أرادت، ورغم كلل جسده ووهن روحه لم يجد النوم سبيلًا إلى جفنيه، وصار متنازعًا بين قسمه ورغبته في فض خبائها وري شوقه السخين برؤيتها، وقرأت **صبرنا** هواجسه فلم تبادله كلمة ولم تنطق لفظة، استجابت لأوامره ولم تجب سؤالًا سوى بصمت مطبق، واستأنفا المسير واستأنفا المنيخ وشارفت شمس اليوم التالي على البزوغ، وعلِمت **صبرنا** أنهما يحومان حول الدومة وأن الدرب أقصر من قطعه في ثلاثة أيام، فنادت اسمه تسأله:

- **تريد ترى وجهي يا شرف الدين؟**
- **وللكِ صك رِقّي يا صبارة!**
- **تُقسم!**
- **بديني وملتي وغضب ربي!**

رفعت شالها وسمحت له بالاقتراب حتى يملي عينيه بملامحها، ونظرت إليه كما اعتادت نظرتها إلى حيوان داجن تبسُط له كفها بالعلف، لكنها طالعت

t.me/qurssan

وجهًا كهلًا وعيونًا ضاقت بلمعة حزينة مشوقة أثارت شجونها، قال:

- **أين دليل النبي يا "صبر"؟**

لسعت ظهره بطرف القمشة التي تحث بها الجمل على السير، وقالت:

- **اسكت يا شرف الدين، يهديك الله!**

***

t.me/qurssan

18

بعيدة بعيدة بلاد الرسول
بعيد يا طريقي لسيدي النبي
بعيدة بعيدة ونفسي أزور..
ويأخد بيدي دليل النبي

كان المطوِفون والأدلاء الحجازيـون يقصدون البلاد مع حلول مولد النبـي المصطفى، يطوفون بالمدن والقـرى يلتقون من دعاهم "أبو فاطنة" لزيارته، فلاحون فقراء معدمون وأثرياء أصحاب أطيان وبيع. ما إن يدخل الدليـل قريةً حتى يقصِدَ عمدتها أو كبير خفرائها أو أحد أعيانها فيجتمع الناس أمام دوار المضيف احتفالًا ببشير الخير دليل الغفران وطريق الجنة. لا تنقضي ثلاثة حتى يحزم الملبون أمورهم، بصحبته إلى البيت المعمور ومجاورة الكعبة حتى موعد الحِجّة أو الاتفاق على مكان وزمان للالتقاء بعد تقديم

t.me/qurssan

المشيئة، ويمضي الدليل مكرمًا محمّلًا بالخير والنذور والصدقات لأهل الله في أرضه. كانت زياراتهم مأمل الناس ومناهم، يرهنون أراضيهم ويبيعون دورهم وينذرون زروعهم لأجل هذه الزيارة، يستقبلون الأدلاء بالغناء ويودعونهم بالبكاء، هؤلاء الرسل المبروكين.

جاء رحومة **دليل النبي** البشير وجه الخير رسول الرسول على جمل مُسنّم يدعوه "المجهم"، ومعه وصفة من سيدي المرحوم **شاهين** لطريق الدومة، ومرافق صعيدي من أسيوط يعرف الطريق من قنا إلى بنغازي عبر دروب الصحراء كما يعرف أسماء أبنائه.

مرّا بمعكسر **الميجور زبير** فوق تبّة الإنجليز التي أقامها المستر **دمريخر** بعد حرب السنوسيين ثم نُقل بعدها إلى واحات الخارجة حكمدارًا لمحافظة الصحراء الجنوبية. تُشرف التبة على دروب القوافل وتسمح لمن يعتليها برؤية العابرين مسافرين ومهربين وجواسيس وإرسال الإشارات إلى رجال الحكومة في "الداخلة" لاتخاذ اللازم، ولم يتجاوز اللازمُ ضبط المتسللين وترحيلهم مكبلين في صندوق سيارة الجيب العالية ومصادرة المضبوطات، أو إرسال مبعوث من عساكره إلى قبائلهم لاستلامهم ومصادرة المضبوطات، أو قتلهم وتخليص الدنيا من شرورهم ومصادرة المضبوطات.

وحين جاء دليل النبي وصاحبه مارين بمعسكره في طريقهما إلى وادي الدوم استوقفهما فأطلعاه على مهمتهما المقدسة وخط سيرهما. أكرم ضيافتهما وأفرد لهما خيمة تعلوها راية الإنجليز، راية زرقاء باهتة كلما شخص بصرُ

t.me/qurssan

رحومة نحوها تراقصت ثلاثة صلبان ملونة فوق رأسه أصابته بالأرق فخاصمته السكينة وخرج إلى الخلاء يحاول طرد هاجسه يعيد النظر إلى العلم من زاوية لا يرى منها آيات الضلال، يراه الميجور زبير، أو "هوتسبير" كما اعتاد عساكره أن يلقبوه، يقول رحومة:

- يا ميجور، رايتنا خضراء عليها شهادة التوحيد، فماذا تحمل هذه الراية؟

يجيبه الميجور بأوداج منتفخة مفاخرًا بما يعرف:

- هذا الصليب الأحمر للقديس جورج شفيع إنجلترا، وإطاره الأبيض صليب القديس باتريك شفيع أيرلندا، وهذا المائل صليب أندرو شفيع إسكتلندا.

ولم يرَ **الميجور** في ملامح رحومة ما يراه في ملامح عساكره من إعجاب وغبطة، فحدثه عن نفسه بأنه رجل طيب ليس كبقية الإنجليز، وأن ناس الدومة الذين سيقصدهم حين يغادره سيشهدون له بطيبة القلب حتى أن المرحوم **شاهين** كبير الدومة وعمدتها كان يقول له: **أنت ابن حلال يا خواجة!**

حكى له الميجور أنه أحبّ ابنتهم **صبرنا** وطلبها للزواج، قالوا لا نزِّوج مسلمة بكافر! تمنى ساعتها لو كان شيخ قبيلة من قبائل التبو والجهمة الذين يغيرون على هذه النواحي لسلب الدواب والنساء والأطفال، فيحظى بها

t.me/qurssan

رغماً عن الجميع، لكنه مسيحي طيب يعرف الله ويحبه. ظلّ يتردد على الدومة ويودُّ أهلها ويجالس أشياخها، ويهديهم نصيبًا من "تعيين" الحكومة الذي يأتي من واحات الداخلة ويعطونه هم من خيرها وثمارها الشهية التي تُروى من ميضأة المسجد.

كان الميجور رجلًا طيبًا، إنجليزي كافر لكنه، يا سبحان الله، في وجهه قبول وضياء كالذي في وشوش الأولياء والبررة، الذين عرفوه دعوا له بالهداية، وكان يدعو معهم بوجه باسم منير، لو كان اهتدى لكانوا منحوه واحدةً من بناتهم، لكن ليس **صبرنا**، **صبرنا** لا تتزوج، وهبت روحها لله كما يفعل رهبان الكنائس. كانوا أعطوه واحدة من بنات ضرب السنيورة الجميلات، لكنها الخمر التي حالت دون هدايته وإبدال سيئات جاهليته حسنات. الخمر التي ترسلها إليه الحكومة في صناديق خشبية مبطنة بقش الأرز يجيئون بها مع الذخائر من مدينة "موط"، يتجرّع منها حتى ينسطل وينام عريانًا بين العساكر. أفصح ذات مرة لسيدي المرحوم **شاهين** بعد أن لعبت الخمر بعقله:

- لو تعطونني رخصة أشرب الخمر، ولا تقطعون ذكري، أهتدي على ملتكم!".

ضحكوا حتى دمعت مآقيهم. وأقروا أن المساطيل لا يقفون بين يدي الله مخمورين! وقال **شاهين**:

t.me/qurssan

- **بل تكف عن الخمر ونعطيك لابننا "حرب" ليطاهرك.**

فوضع الميجور يده بين فخذيه يتحسس حمامته وأطبق فمه.

أعطى دليل النبي صفيحة جبن أصفر لا يتلفه الحَرّ، وملأ خرج جمله بعلب سلامون ذات مفاتيح من القصدير المختوم، وقال له:

- **طعام شهي من مصانع الإنجليز في اليونان.**

فأعطاه رحومة رخصتين للهداية إحداهما للخمر والأخرى للختان، قال: "**مسلم عاصٍ خير من كافر طيب**".

لقّنه الشهادتين وأمره بالاغتسال بماء صرف. أسقاه من قربته ماء زمزم ونـاداه كما يناديه الدوايمة منذ تولى قيادة التبّة له: **زُبير**، لكنه أضاف إليها شـيخًا فصار مُذاك شيخًا، ولم يُنْطَق هوتسبير هذا مرة أخرى، إلا مقرونًا بصفته الجديدة، حتى عساكره صاروا يلفظونها بصعوبة "شيك سوبير".

صحـب دليل النبي إلى الدومـة مع بعض الهجانة السـود على ظهور الخيل وعندما بلغوا أقـرب النواصب الصخرية إلى الدومة طلب الدليل أن يقيموا الخيمة ويرسـلوا من يستأذن أهلها في الدخول. أذنوا وخرجوا لاستقباله بالمزاهر والطبول، يتقدمهم **المأمون** وتخلو وعبد رب النبي، وأقبل الميجور عليهم وأقبلوا عليه كابنٍ بار يؤوب من اغتراب، أحاطوا بحصانه والمجهم جمل رحومة دليل النبي، سـحبوهما إلى السقيفة الكبيرة. وضعوا قعاب الحليب والتمر بين أيديهم، ورقع الجلد والشـلات تحت أرجلهم،

t.me/qurssan

وقضوا النهار يستمعون إلى رسول الكعبة، يؤمّنون أدعيته ويعظّمون نحماته ويتحوقلون لقصصه وحكايات رحلته إليهم التي يسّرَها اللهُ فكانت على بساطٍ طائرٍ لا صحراء رمل وحجر.

يتيه المرء عندما يقصد قارة بينما هو يعثر عليهم لؤلؤةً في قاع محيط مائج كوليد يهتدي إلى ضرع أمه، حتى إذا بلغتْ حكاياتُه تفاصيل بلوغه تبة الإنجليز والتقاءه بالحاج زبير، وإسلام الأخير وتلفُّظه الشهادة بعربية سليمة لا شية فيها، ردّدوا الشهادة مكبّرين مهللين وراحوا يتعانقون يتبادلون التبريكات. يهديه أحدهم "تلفيحةً" من الصوف المشغول، وآخر شالًا أبيض مطرّزًا، وآخر مسبحةً من الخرز. تتبدّى سعادة مجنّحة في صوته وملامحه وضحكاته التي تتعالى كقرع الطبل وقد صار بينه وبين محبوبته أن يعيد مطلبه.

حلبوا ونحروا وأقاموا "ذِكْرًا"، وفي غمرة انتشائه وظنه أنه نال رضا رب هذه البلاد برضا أهلها الطيبين، تسحّبت أصابعه إلى جيب صدريته تتحسّس موضع زجاجة الخمر، لينتبه إليه دليل النبي قبل أن يأتي المعصية جهرة على رؤوس الأشهاد فيرمقه بنظرة تلسع وعيه حتى يستعيد أصابعه مرة أخرى ليمسّد بها ركبتيه، بدا كأن نسي ما أمره به رحومة قبل أن يبلغ موكبهم الدومة ألا يعاقِر الخمر في وجود مخاليق الله، قال:

- أنت لا يرضيك يا شيخ زُبير أن تجاهر بالذنب فيتبعك عبدٌ بلا رخصة كرخصتك، فتشيع الفاحشة وتبوء بذنبه وتنجرّ به إلى النار.. تريد تروح النار يا شيخ زبير؟

t.me/qurssan

- **ومن أين سيجلبون الخمر؟**

- **يعصرونه يا شيخ، هل لديهم أكثر من البلح؟**

- **تصنعون الخمر من البلح؟**

- **نعم، لا بد لك تجربه، يسطل أكثر من الكرم والشعير!**

ولم يكن **دليل النبي** -حين حطّ بينهم بعيره تحت السقيفة الكبيرة- كما صورته خيالاتهم فلا وجهه مستدير كبدر التمام ولا منير كطاقة الصبح، ولا رائحته تضوع من أردانه كما يضوع المسك من حانوت العطرجي، بل قرشيٌّ نحيل أسمر بلون قطعة جرانيت منطفئة، ضامر الصدغين كثمرة زيتون يابسة. في عيونه قلق السفر ودهشة الغريب وارتياب التائه، ذقنه مُدبّب بشوك كالشعر، تتبدّى تحت لثام كانت تسقطه حكايات البوادي ونوادرها فيعيده إلى موضعه ليخفي ثَمَّه. اللثام الذي سيأخذه رجال الدومة عادةً يخفون تحته أفواههم ليحبس اللسان مورد الهلاك ومنبت الذنوب، وستظل تلك العادة الوافدة حيّةً بين رجال الدومة لن يتخلوا عنها إلا بعد غارة الزُرق، حين يرون المغاوير يضعون الألثمة الزرقاء فيقررون ألا يتشبهوا بهم. بينما ستظل النساء بوجوه وضّاءة وملامح حيّة، لا يخفى منها سوى جانب الشفتين تحت "شنيفة" ذهبية كبيرة تتدلى من إحدى فتحتي الأنف.

***

t.me/qurssan

جاء رحومة الدليل يطوّق خصره حزامٌ عريض يخفي داخله فضته. على رأسه "غُترة" تدفع الأرياح عن مَنَافِثِه، لا بد كانت في الأصل بيضاء ناصعة وبهتت في السفر الطويل. خرطتِ الشمسُ تاريخها الأزلي في جبينه وتجلّط التراب في غضونه. تجول أسـابيع متتالية في صعيد البلاد يرشد الخلق إلى درب رسول الخالق على جمل كالبراق مكسو باليُمْن والبِشْر وملاءة حمراء مخطوطة بآيات قرآنية بارزة بخط الثُلُث لم ينجح سيدي مأمون في قراءتها عندما سـأله **تخلو** بسريرة نقية ظانًّا أنه سيسمع إجابته قبل اكتمال سؤاله، فهو أول من قرأ وكتب من مواليد الدومة، لكن **المأمون** قال:

- **أقول لك باكر!**

أمسـكها عليه **تخلو** وأصرّ أن يقرأ له الآية وأن يسمعها على لسانه توّا وقد أدرك بنظرة واحدة اختلسـها بطرف العـين أن **المأمون** يهرُب بجهله ينتظر فرج الله بالإجابة، وكانت فرصته لتحقيق نصر مبين. اصطنع **المأمون** غضبًا لائقًا وأقسم أن لن يجيب لا اليوم ولا باكر، وعندما خلا إلى **رحومة الدليل** في ذات الليلة حام حوله وحمحم ودنا ودندن وكلما همّ بسؤاله عن الآية المدونة فوق قماشة "المحوي" التي تغطي السنام من الأمام، ظهر نفرٌ جديد ألجم لسانه وجعله يصطبر حتى يمضي.

وفي صبح مشرق سـعيد وبينما يخرجون تباعًا من صلاة الشروق يقف **المأمون** عند منحر الجمل ممسكًا بطرف الكسوة متفرسًا في خطوطها المتداخلة ليقرأها بصوت جهوري رنّان اسـتعاره من قراءة دليل النبي للآية ثلاث

t.me/qurssan

مرات على أذنيه حتى يحفظها. وأشَاحَ **تخلو** بعيدًا كأنه لم يرَ ولم يسمع، بل ضحك حتى اشتعل صدره بسعال جاف صدئ، والمأمون يعرف كنه ضحكته فيستشيط على شياطه حتى ليكاد يخرج من وقاره فيلقفه بجريدة ليخلص روحه من منخاره ويريح الجميع من لسانه، ويقرأ **تخلو** خاطره فيسأله والضحكة تفر من فمه:

- تريد موتي يا شيخ مأمون؟

- الله ياخد روحك يا بقرة!

***

مكث في بيت سيدي **شاهين** -رحمه الله- وحده يتسع لضيوف الدومة غرباء ومسافرين وعابرين من جهات الأرض الأربع إلى جهاتها الأربع. يمُدّ **المأمون** لهم أكْلِمة الصوف ووسائد القش على أرضية المسطاح إن كانوا كُثُرًا، ويهيء لهم الرواق إن كانوا ثُلّة قليلة، يُخلي الدار من حريمها وأباعرها، ويجعل على خدمتهم واحدًا أو اثنين، لكنه هذه المرة يأمر أن يُعِدّوا لرحومة الرواق والمسطاح معًا إكرامًا لضيف الكعبة، بل أقسم أن يَنزل بعيره "المجهم" ضيفًا كريمًا بين أهل البيت لا في مراح الجمال أو مربض الدواب يخالط الروث وشخاخ الحيوانات، وأن يزينوه ويجزّوا وبره بمقص

t.me/qurssan

لحيته، ويمدوا تحت أخفافه مفرشًا أبيض يلتقط شعره المجزوز وأن يجلبوا له كل فتيلة تسقط.

استقبل دليل النبي ما يدور بأسارير رضا منفرجة بعد أن قابل في كل بقعة زارها في هذا الزمام من يتبرّكون بتراب نعليه وجواليص دابته. وجاء "إبراهيم الجريجي" المزيّن مرتديًا "جاكيتة" حلاقة الأعراس، وملأ قعبة واسعة بالماء وصلى على سيد المخلوقات وأزاد الصلاة وكررها، وغمس مِقص **المأمون** في الماء وتحسّس حدّيه فاستشعر برودتهما، أخرج "خرشوفة" مستوية من الحجر الرملي ليسنّ فوقها شفري المقص مرددًا ما يحفظ من أدعية وآيات.

شرَع **إبراهيم الجريجي** في جز الوبر بادئًا من المنحر، يترقب القادمين حتى إذا دخل أحدهم المجلس صاح:

- **كرامة لفلان بن فلان.**

فلا يكون من الفلان إلا أن يخرج قطعة فضة من سيالته ويلقي بها في قعبة الماء. أمّا الكبار الذين يحملون محافظ الجلد وورق النقدية ويضعون "الماليات" في جيوبها، فيخرجون ورقة يلقون بها في حجره فيهش لها مبتهجًا، وعندما تتعدّد الوريقات المالية يخيطها معًا بفتيل من الوبر ويُعلّقها في رقبة المجهم، ويُعْمِل المقص الباتر بهمة وعزيمة، ينظر بين الحين والحين إلى نقوط الرجال ليحسب نصيبه، نصف ما حوى حجره وما ترسّبَ في قاع الصينية،

t.me/qurssan

والنصف الآخر لصاحب العرس، وصاحب العرس جمل وصاحب الجمل حجـازي غريب سـيمضي وتكون آثار خُفي جمله أبقى مـن آثاره، هكذا حسبها إبراهيم الجريجي لكن **المأمون** خيّب حسبته.

أخرجتِ الرقبةُ نحو وزنتين من وبر، بني غامق ذي أطراف أشـاطتها الشـمس، **تخلو** الذي يجلس عند مشافر الجمل قابضًا على خطامه ليمنعه من حركة فجائية قد تغرس سِن المقص في منحره كان يتشمّمه ويحرص ألا يجزع لرائحة العطن النفاذة، كان لكل وبرة ملمسها ورائحتها وسماكتها، كأنها جُزّتْ من قطيع كامل لا من فرد مفرد. ولم يخفِ **تخلو** رائحة دهشته أن جملًا قد يُخرج كل هذا الشَّعْر، فقال وقد أفلح أن يبدي كلامه نابعًا من قلب صافٍ لا من عين حاسـدة، إن كسـوة الرقبة من منحرها إلى مشافر الفكين تكفي لفتل خيمة مُسدّسـة! فـيردُّ **المأمون** بجدية قاضٍ شرعي في مجلس الحكم:

- **إنها البركة، فصَلِّ على سيدك وسيد أهلك!**

يصلي الجميع على سيد الجميع. يصِلُ "المزّينُ" إلى جامدِ الرقبةِ ومنها إلى الغارب والسنم والشعفة. ينفضّ مجمعُ المزين ولا يتبقى في ضيافة **المأمون** وحرب إلا سعد ابن جاد المرجوشي والشريف المرتاض وتخلو وابنه السيّد. كلٌّ منهم يتلكأ في الانصراف، يرقب الآخرين بوجه عابث وشفاه مذمومة وكلمات مبتورة، حتى يبادر **تخلو** يقول بفظاظة:

t.me/qurssan

- قُوموا، حرّكوا مؤخراتكم الثقيلة!

يخمّن حرب أن لدى **تخلو** ما يسعى إلى إخباره به بعيدًا عن مسامعهم، فيما يقول الشريف مغاضبًا:

- يريدنا نغادر ليخرأ في نافوخك يا حرب! لا تسمعه، هذا لا يفكر إلا ببيوضه!

يجر ابنه المرتاض ويغادر ويتبعه سعد المرجوشي بعد أن يقول:

- أعرف ما يريد تخلو والله.

ينصرفون. يتصنّع **تخلو** الحيرة. يهمهم بكلمات متقطعة يتعمّد أن يصل بعضٌ منها إلى أذني حرب، فيجيب حرب:

- أخاف يغضب رحومة وتكون جُرسة؟

يجيبه أن لا أحد سيعرف، هذا جمل مُبارك من أصل مُبارك، يكفي أن حوافره داستْ حول الكعبة.

"نوقكم بطونها خالية بدلًا من الواحدة اثنتان وثلاث وأربع لا تكف عن الهدير، وجمله لهاته تتدلّى وتسدّ حلقه، ألم ترها؟ والله إنكم ستكسبون الثواب وتأخذون الحسنات!".

يقترح حرب أن يأخذوا برأي بكر الفريج فلا أحد مثله عايش الجمال وعرف أحوالها. يحذّره **تخلو** مؤكّدًا أن بكر الفريج معناد جامد الرأس

t.me/qurssan

سيفسد عليهم هذا النسل ولن يدع إبله تخالط جمالًا غريبة حتى لو كانت مبروكـة من جمال الحجـاز، وأن المجهم بعير النبي سـيدعو له وللمأمون وللناس أجمعين إن دعوه يبحر فرج الناقة الجدباء ويطفئ ظمأه من عينها. لو نظر إلى آلته لعلم أنه لم يطأ فرجًا منذ زمن.

سـأله حرب لو أدخلوا عليـه الناقة، كيف يضمنـون أن يأتيها، فقال **تخلو**:

- **أنا "ألقمه" وأجعله ينط عليها يفلقها فلقًا.**

ستحبل بأول بذرة يلقيها وستملأ الوادي بنسله، مجاهيم مباركة عفية حمّالة. المجاهيم السـوداء التي لا يفضح القمر سـيرها بين خيوط الليل، فيدعـو إليها اللصوص وأولاد الحرام. المجاهيم التي تخافها الجِنّةُ وتعدو من حوافرها العفاريت. قال حرب:

- **أستخير؟**

- **استخر!**

اختار **تخلو** بَكْرةً عذراء بالغة لم يتلوث فرجُها بماء جمل، ربط خطامها حول فكيها ليكتم جعيرها، وثنى إحدى قائمتيها الأماميتين وربطها، فصارت تسـير على ثلاث. خلع لباسـه ومزّقه وبلّل بعضه بالماء ومسـح به فرجها حتى عبقتِ الخرقة برائحته وتندّى فرجها ولان، ثم سـحبها من مسطاح الدواب وأدخلها إلى الجمل بعد أن مسح بالخرقة منخره ومشافره، فاشتم

t.me/qurssan

المجهم رائحة فرجها، وبدا بريق شبق حزين في عينيه المتعبتين.

أخضلَ **تخلو** الخرقةَ ببعض زيت اللبسان وعصرها فوق إحليله، دعك حـول خصيتيه بأطراف أنامله فأخذ يحرك ذيله القصير كسـعفة نخيل في دوامة هواء، يدور حول الناقة يتمسـح و"يحنّكها" يدفع رقبتها إلى أسفل حتى تبرك فيسهل ركوبها، تفحجُ قائميتها الخلفيتين وتبرُك على أربع تحت ثقله كأنّ مفاصل أرجلها تهتكت. يقفز المجهم بقائمتيه الأماميتين فيصير سنمها بينهما، وتصير سُرَّتُه في عكرةِ ذيلِها، يرفع **تخلو** طرف ذيلها ويقبض على إحليل المجهم ويلقمـه في فتحتها فتجعر الناقة، بينما يريم فم المجهم بريم كزبد البحر. يوقظ جعيره الدومة ويتوافد الناس إلى المسطاح، وتجول الظنـون في أذهانهم حتـى يعلموا بما صار، ويبدي دليـل النبي حزنًا على جمله الذي انفتحت له أبواب الاشتهاء، يذكّرهم بما تعوّذ منه سيدنا النبي المصطفى: **"الأيهمان السـيل والجمل الهائج"**، وها هو مجهمه يفور بالشبق والرغبة، فلينظروا أي منقلب ينقلبون.

كفّ الجمل عن الطعام، ولم يتوقّف جعيره عن إيقاظ سـبات كائنات الليل، هـاج كزوبعة وأربد كرعد ولم يعد في جعبهم سـوى فكِّ هجاره، القيد الذي يمنع ركضه في هياجه، وأدخلوه مسطاح الإبل فانذعرت ذكورا وإناثا.

حنّك أول ناقة دون أن يشـتمّ فرجها، ناقة "فاطر" توقفت عن اللقاح وتفطّر جسدها وتجعد جلدها، ركبها ففحجت بين قائمتيها وبركت ليرشق

t.me/qurssan

ذكـره، فأخذت ترغي وتضبح بينما كان يجعـر فوقها كعربة حربية تصعد تلًّا وعرًا.

ركب نوق الدومة، وصارت ركوبته النوق عادة لا يلتفتُ إليها سوى الصبيـة والمطيورين وتخلو. وأخفـى الدوايمة ذكور الجمال حتى لا تصير مقتلة. بينما كان دليل النبي يسـتقبل الرجال والشواب في رواقه عدا بكر الفريج الذي رفض لقاءه قائلًا:

– مثله كتجار التوابل والأقمشة وسماسرة القوافل، لكن بضاعته رائجة لا تكسد!

قالـوا اتـقِ الله ولا تأخذ الناس بسـوء نيتك، هو في هجـرة لوجه الله حتى يعـود. قال **الفريج** مثله مثل الدليل الـذي صحب النبي في هجرته إلى المدينـة، كان مشركًا ونال أجره! فأنكروا عليه هذا الادعاء وأكّدوا أنه لا بد صحابي جليل يتمرّغ الآن في تبر الجنة، فأقسم أنه لا يقول إلا الصدق، وأن زاهدًا مغربيًّا أخبره بذلك وذكر أن اسمه عبدالله بن أريقط، فأثار الفريج عاصفة لم تهدأ، زكّاها إجعام الشيخ السنوسي وجابر الوكيل والمهدي، وهم أئمة المسجد والزاوية، عن الإفصاح عن رأي اليقين، لكنهم تواصوا بألا يذكر أحدهم ذلك لدى رحومة الدليل لكي لا يحزن.

وحكى رحومة لزوّاره عمّا رأى في بلدان المحروسة أكثر مما حكى عن

t.me/qurssan

بلد النبي وكعبته. أخبرهم عن مشـاق الطريق وثواب اجتيازه والحوائج والملابس والدواب التي يحتاجون إذا عزموا تلبية الدعوة، طعامهم وأدوات زينتهم ونذورهم وأدعيتهم. جعله **المأمون** على رأس مجالسه، وخصّه بشلتته الموشاة ومساند الكتان وكليم الصوف السميك، وجلس على يمينه ينصت بين من جاءوا زرافى، جماعة بعد جماعة يستمعون إليه بنفوس وجلة وآمال تحلق في العيون والأفئدة كأنهم في حضرة مقدسة.

اجتمع **المأمون** بشيوخ الدومة يستفتيهم في مطلب نسائهم أن يجلسن في حضرة **رحومة** لتحل فيهن بركةُ الحرم، فأفردوا لهن نهارًا بعد صلاة جمعة، ولم تكن إحداهن حتى ذاك تحْجُب وجهها سوى بشماغ شفيف، وأخريات جئن الدومة بإرثهن من اليشمك المطرز. وفي المساء وبينما يتناولون العشاء الذي أرسل به أحدهم كما اعتادوا منذ حطت راحلة الرجل بينهم، واتفقوا أن تخرج **صواني** العشـيان كل مسـاء مـن بيت جديد لم ينـل البركة، بادر الأسيوطي رفيق دليل النبي، ولم يعلم أحد إن كان ما قاله خرج عفويًّا من نفس بريئة دون وازع أو محرّض أم كان اتفاقًا ومطلبًا نبع من شهوة أكلت قلب دليل النبي حين رأى **صبرنا** بين من حضرن جلسته، قال:

- لِمَ لا تُعرس من بيت الشـيخ مأمون يا شـيخ رحومة فيصير نسـبًا مبروكا؟

ولم يكن **المأمون** ممن سـمعوا فوعوا، وبدا لم يحسـب حسـبته على هذا النحو، ليس في بيته سـوى زوجات أبيه المرحوم **شاهين** وزوجاته وبنات

t.me/qurssan

حرب حفيداته، لكنه سرعان ما رحّب وقال أصل كريم ونسب مبروك، اختر البيت الذي تشاء نزوجك منه مَن تصلح. وأظهر رحومة تمنُّعًا لم يبدُ حقيقيًّا، ثم قال:

- نفعل ما فعله سـيدنا النبي يوم دخل المدينة، نترك جملنا يختار البيت حتى يكون أمر الله نافذًا، فمن لم تكن في ذمةٍ أدخلناها ذمتنا!

وأمّن الجميع وانتظروا أين ستحلُ البركة. فكّوا هجار "المجهم" وتهيؤا للمضي وراءه، لكنه رمح كالملسوع، إلى وجهة يعلمها، لحقوا به لدى بيت "ستي باجة" حيث تقيم **صبرنا**، رابط أمامه كصاري العلم فوق تبة الإنجليز لا يتزحزح. أطالوا النظر إلى رحومة يترقبون ما يقول فقال صاحبه الأسيوطي بصوت خطيب فوق المنبر:

- عروس رحومة هنا يا شيخ مأمون!

- هنا ابنتنا المبروكة صبرنا.

وأخذت الحيرة من يعلمون أن **صبرنا** عافت الزواج واعتزلته ووهبت نفسها لله، طلبها **شروفة** والميجور **زبير** و**نعيم طنبور** وغيرهم فأبت، وأوصى **الشاهين** بها أبناءه ألا تجبر على زواج. قال رحومة:

- سبحان الله العليم هي صبر**نا.. هذا من حسن تدبيره.**

وخرجت **صبرنا** تعلن موافقتها، ولم يجرؤ أحدهم أن يبدي رأيًا يخالف ما قضى الله به، وأهدى رحومة إلى الشيخ **المأمون** مصلى يحمل نقشًا للكعبة

t.me/qurssan

تحيط بها أربع مآذن شامخة، فعزم **المأمون** أن يبتنوا بالدومة مآذن كهذه يراها المسافرون على مسيرة نهار.

اشترطت **صبرنا** لمهرها حجة للكعبة ومجاورة للنبي، ولم تنقضِ الليلةُ حتى أُعلنت المشاهرة وانعقد النكاح، وظلّت **توتة** زوجة **تخلو** تجهش بالبكاء وتنتحب كما لو كانت تنعي صاحبتها، وجاهد **تخلو** ليسبر غورها ويجلب لؤلؤة سرّها فلم تقل سوى بأن **صبرنا** موهوبة لله.

وبينما كان المجهم يجعر فوق بكرة كوماء، تكوّم الشحم في سنمها، كان رحومة يجأر في حِجر **صبرنا**، تُنضِج له الشهوة في موقِد لذتها بفطرة حانية تقيّة ترى الله فيما تعطي، تغلبها دموع سخينة تغسل مآقيها لم تثر انتباه رحومة. وانقضت أيام المولد النبوي وأصبح على الدليل أن يذهب إلى الفرفرون ومنها إلى بلدات الفيوم للقاء المدعويين على طريق النبي، فتهيأ للمغادرة وتهيأت معه **صبرنا**.

***

t.me/qurssan

19

ولا كنت يوم خوّاف ولا في البلد خمّان
أنا ربابة طبع مانيش ربابة ضبع
عمي قتل ضبع كان حامي حمى البُنيان

اندفعت **عسـلةُ** والنسـاء والمعيز عـبر الملقة التي تلتقي لديها شـوارع الدومة وتقاطعاتها الضيقة وتتفرّق في كل ناحية، واجتزن طاروق ضرب "المهداويـة" القبلي الذي ينفتح على ضرب السـنيورة والفخارة والجامع والطريق إلى عين باجة، فـمازوا صوت المدين بين الضوضاء يصيح فيهن من سـطح شـونة الطحين أن يعدن ويسلكن "معبرة" سيدي المهود حتى لا تلحق بهن الضباع التي سيفتح محابسها حين يبلغ المسطاح، فعدن نحو المسارب الضيقة يسلكن المعبرة إلى الملقة.

أبصرت زوجة الطيب قوادسَ العيال المعلّقة على جانبي السـقيفة منذ

t.me/qurssan

يوم أول ربيع الأول، فانسلّت من بينهن وسارعت إلى نزع قوادس(*) أبنائها عن الجدار حتى لا تتحطّم فتكون فألًا سيئًا، تبعتها أخريات استطعن تمييز قوادس أبنائهن بعد أن أكلوا ما بها من الدحى(**) والأرز الأبيض وفطائر "القوز" وعلّقوا قوادسهم في خوابير مثبّتة فوق الجدران. بينما اكتفت **جود** بنظرة حسـيرة واستسلمت ليد **عسلة** تجذب طرفها إلى الأمام، مات ابنها صغيرًا قبل أن يتمكّن من منافسـة عيال الدومة في طقوسـهم الاحتفالية أيام المولد النبوي وعاشـوراء والوقفات والأعياد، لم تَصُر له **جود** سـتَّ بيضات ناضجات ينتقي أكبرها ليكسر بها دحاهم فيسـتولي عليها إلى أن يتمكن أحدهم من كسر دحيته، ولم تصنع من أجله فطيرة في شـكل ولد، أو تذبح له ديكًا صيّاحًا تحشوه بالفريكة المتبولة كما يفعلن جميعًا لأبنائهن، استسلمت ليد **عسلة** التي قرأت دواخلها بلمحة سريعة فأشارت إلى النساء تقول باستنكار مفتعل:

- حريم مخلولات، عيالهن بـبرابير يأكلون دنّونهم!

بينما كان المدين يعتلي عريشة الشونة ليطفئ ضوء "التيلة" التي تضوي كنجمة براقة حتى لا يسترشد بها المغاوير من بعيد فيضربون قلب الدومة. ركض إلى بيته ليجلب البنادق التي أوكل إليه سيدي بكر الفريج إخفاءها وحمايتهـا، موقنًا أن زمنها لن يغبر. وليفتح المحابس في مسـطاح **شروفة**،

(*) قوادس: جمع قادس وهو إناء من الغوص إسطواني الشكل له غطاء وقفل متعدد الاستخدامات.
(**) الدحى: البيض.

t.me/qurssan

محابس ذات مغالق نحاسية تتوسط المسطاح، **لا تخلو** من ضباع وذئاب وثعالب حمراء، أحياء جبلية تعلّم على يد **شروفة** فكّ طلسمها وعرف مكنونها ومَحْكَمَها فألِف أسرها وترويضها حتى عدّوه ملبوسًا بأحد غيلان البرّ. أطعمها من جيف الحمير الطازجة والدواب الممروضة ليعيد إطلاقها ترعى في أرض الله، أو ليبيعها مع ما يصيده من حيوانات برية وزواحف لعرّاف بحراوي يأتيه من أقصى الشمال يبحث عن "أواطر" لأحجبته وتعاويذه. قال عنه الناس بعد صيدته الأولى، يوم سعى خلف الضبعة التي قتلت **شروفة** وعاد يحملها فوق كتفيه مكبولة بالأحبال:

- **سخّر له سيدي المهود غيلانَ المعامر!** وقال آخرون:

- **هذي بركة أبيه رحومة دليل النبي!**

كان صبيًّا لم ينمُ -بعد- شعرُ عانته، كلما عوى ذيب أو جَعر ضبع قصده الناس لحماية حلالهم، فخرج متجاسرًا لا يصحبه سوى صبي من أنسال الفريج أو أنسال **المأمون**، يحمل "دبّوسًا" مدببًا بالمسامير وزوّادة وجارورة مياه، ويتتبع آثار الضباع حتى يعثر على معمرة ذات فتحة ضيقة لا تكفي لمرور "بسّة" برية، يحفر تحت صخورها حتى يتمكّن من المرور إلى داخلها، ويوصي رفيقه ألا يحاول الدخول وراءه، وأن يسدّ خلفه فتحة المعمرة بالحجارة حتى يخرج بفريسته ضبعًا كانت أو ثعلبًا أو ذيبًا، أو لا يخرج إليه أبدًا فيعود إلى الدومة يبلغهم بموته ويقيمون له مأتمًا ويصلون الغائب، تمامًا كما فعل **شروفة**.

t.me/qurssan

وحين يلج المدين من ثَمّ الموكرة، لا يطالع سوى ظلام قبر الكافر، ووميض نقطتين برّاقتين تتحرّكان في أرجائها كعينين نبتتا في وجه الظلام. يجلسُ هادئًا يطالع عيني فريسته، يشرع دبوسه في وجهها، عصًا بطول قامته غليظة مُسمّرة بالدبابيس وفي طرفها سكين حادة باترة، لا تكفُّ فريسته عن الحركة، يباغتها الاقتحام، لكنها لا تجرؤ على الانقضاض طالما ظلّت عين المقتحم مصوبة نحوها لا تطرف، ودبوسه مشرع إلى صدرها لا يني، ينقضي الليل والنهار وقد ينقضي ليل آخر ونهار قبل أن تتكوّر الفريسة خائرة في رُكنةٍ قصية، فينقضُّ فوق فكيها يكبلهما بكتاف من الليف، تتفلفص وتحاول الفكاك، فيصطبر حتى تستكين دون أن تعلم أي كائن سباها. يحملها على كتفيه ويعود إلى الدومة تستقبله نظرات الدهشة وكلمات التسبيح وشهقات النسوة. فيما يسكب أحدهم كلمةً يدري أين ستصب، فيقول:

- الله الوكيل، المدين شال خصال شروفة!

فتكون واحدة جديدة من المرات التي لمزَ فيها أحدهم في نسب المدين ابن ستنا **صبرنا** إلى **شروفة** الفريج. فعلها **نعيم** أخو السيد حسن طنبور، الثري سليل الأتراك ونسيب الفرنساوية، هو أول من لمز **صبرنا** حين عادت وحدها من أرض الحجاز بعد انتهاء الحرب العظمى الثانية، عادت دون زوجها "دليل النبي" الذي غادرت الدومة بصحبته وغابت ثلاث سنوات كاملات. عادت وخطام جملها معقود في ذيل جمل **شروفة**. خرجا من جوف ليل الصحراء لا ثالث بينهما إلا شياطين الفلاة وغيلانها، رجل

t.me/qurssan

وامرأة وجملان لا ينطقان حقًّا ولا باطلًا.

لو كان اسم **شروفة** ناصعًا نقيًّا كاسم **صبرنا** لما تجرّأ صاحب الفرية أن يطلقها، لكن **شروفة** جوّال شقي تربّى بين يدي عمّه المهرب العتيد سيدي بكر الفريج قبل أن يهتدي الأخير إلى الدومة وتنصلح سيرته. فيما ظلّ **شروفة** شقيًّا ذا روح هائمة تتطلّع بعيدًا إلى ما وراء جروف وادي الدوم وغروده الرملية. لا تستكين روحه إلا في حضور **صبرنا** التي أسرته وخلبت فؤاده مثلما خلبت ألباب كل من رآها من رجال الدومة ويافعيها، لكن أحدًا منهم لم يجرؤ على طلبها بعدما تقدّم هو لخطبتها حتى لا ينال أحدَهم جنونُه وطيش فعاله. كان مرهوبًا من الجميع ومُقدّرًا رغم خصاله الشيطانية. رأوا ما فعله بالإنجليز حين قادهم كابتن "هاورد" قائد تبّة الإنجليز لاحتلال الدومة، فأحال نهاره ليلًا قاتما وحبسه خلف جدران الدور القديمة، لا يرى طرف أحد جنوده حتى يمطره بالخراطيش. ورأوا ما فعله بالطليان حين تسللوا لزراعة طريق أبوبلاص بالألغام والديناميت قبل اشتعال الحرب الثانية، حاك لهم الشراك وأوقعهم بين أضراسها، واستعان به الخواجة **دمريخر** قائد قوة "**تبّة**" الإنجليز لردعهم.

وحده **نعيم** أخو السيد حسن طنبور تجرأ على طلب **صبرنا** بمهر لم تنله ابنة الوالي، فأجابه **الشاهين**:

- بكم تشتري شربة الماء إن انقطعت العين وجفّت البئر؟ لو قَبِلَتْ بكم حمّلناها بصواني العشيان حتى بوابتكم.

t.me/qurssan

وقالت **صبرنا** كما قالت لغيره: **وُهِبتُ لله، لا للنكاح والحبل!**

وقطع **شروفة** طريق نعيم وضربه وقتل حصانه، وقال:

- **تراك أحسن من شروفة لتقبلك "صبّارة" وتهمله؟**

وحمل السيد حسن طنبور ما فعله **شروفة** بأخيه نعيم إلى سيدي **الشاهين** وعمّه بكر الفريج شاكيًا مهدّدًا، فقال **الشاهين**:

- **هذه أفاعيل عيال، لا تعتلها همّك!**

وقال الفريج:

- **ولدنا شروفة يعرف مورد ذهبكم، تتركون صبرنا أو أتركه يتصرّف معكم!**

وأضمرها نعيم في صدره، حتى عادت **صبرنا** من الحجاز، يسحب **شروفة** رسن مطيتها، فألقى فِريته حولهما، لكنها لم تصادف آذانا تلتقطها، وحين تقبّبت بطنُها بعد أشهر من عودتها ثم وضعت حملها ولدا، ألقى الفرية من جديد وسرعان ما نمت وأفرعتْ، وكانت فتنةً كبرى خاض فيها الناس ولغَوا فتتبع الكبارُ منبتها، وأقسم **شروفة** أن يجز رأس صاحبها، وأسرّ **عبد رب النبي** خادم عائلة حسن طنبور إلى **شروفة** بما فعله سيده نعيم، وكان دافعه إلى ذلك غضبه مما فعله **نعيم** بـ"لقيته" الذهبية واستيلائه عليها دون أن يمنحه شيئًا منها.

t.me/qurssan

وكشف له **عبد رب النبي** عن سبب ارتحال السيد حسن طنبور وأخويه نعيم وجلال من الداخلة في الخفاء، حيث هرب حسن طنبور وعائلته بعدما اتهمته الحكومة بالنبش في مقابر الفراعين القديمة والاستيلاء على ذهبها، وقضت عليه بالسجن والمصادرة فهرب إلى الصحراء فرارًا من الحكم، لكنه قبل فراره حصل من رَمَّالٍ عرّاف على رسم يدوي قديم لموضع صحراوي يحوي خبيئة ذهبية، كان مرصودًا على حراستها جنيٌّ كافر انتهت مهلة رصده فانصرف مع رهطه إلى موضع جديد، فانتظر السيد حسن طنبور من يصحبه ليهرب إلى أقرب موضع إلى هذه البقعة المرصودة، حتى جاء جاد المرجوشي وأخذه إلى الدومة.

وظل طنبور وأخواه نعيم وجلال في سفر دائم إلى نواحي "مسندم" على طريق واحة "أبو منقار"، حتى اهتدى خادمهما عبد رب النبي إلى بقايا كنيسة رومانية قديمة فوق إحدى الرُّبى الترابية. هدم حوائطها فعثر في أحد تجويفاتها على أكياس جلدية ممتلئة بالعملات الذهبية القديمة. حيث كان الرهبان الأوائل يخفونها في حوائط كنائسهم بعيدًا عن أعين اللصوص والمغاوير والمضطهِدين. استولى **نعيم طنبور** على الخبيئة التي عثر عليها خادمه ولم يعطه منها "نكلة"، بل ألزمه بهدم كلّ حائط قديم يصادفه في كتمان. فعزم عبد رب النبي على البحث عن خبيئة لا يخبر بها سيده، فلم تتعثر قدمه في حجر إلا نبش حوله، ولا جدار إلا هدمه. لكنه كان كالكهل يبحث عن صباه الغابر.

***

t.me/qurssan

حُكِـمَ بإخراج **نعيم طنبور** من بينهم، ولم يجرؤ السـيد حسـن طنبور وأخـوه جلال على الدفاع عنه بعدما ثبُتت عليه فعلته المشـينة، ولم يتمهّل نعيـم في الرحيل، بل سرعان ما أعدّ حقيبة كبيرة وخرج بحصانه دون أن يحمل ما يكفي من الماء والزاد، خرج مُتسـلِّلًا بالمخبوءات التي عثر عليها **عبد رب النبي**، والمدخرات التي يحتفظ بها أخوه السـيد حسـن طنبور في خزانتـه، حتى أقعدته الحسرة بعدما سُـلبَ رأسُ ماله واضطر إلى العمل مع أخيه وحميه المزيّن إبراهيـم الجريجي وابنه بيديه كالأُكريين. وانطفأتْ سيرةُ نعيم وخبتْ ذكراه، ولم يعلم أحدٌ هل بلغ مأمنه أم ابتلعته الصحراء بما يحمل.

وحكم بكر الفريج على ابن أخيه **شروفة** بالزواج ليُلجمَ ألسنة الهمّازين، ويقطع عليه رجاءه فيمن أحبها، فتزوج **شروفة** بـ **جلا** ابنة الشـيخ مأمون وأخت حرب الصغـرى، كأنّهما قدماها عوِضًا له واعتذارًا عن موافقتهما على زواج **صبرنا** ورحيلها رفقة دليل النبي، وما تركه فعلهما في نفسـه من حزن وألم.

أنجبت له **جلا** ابنته **شامة**، وظلّت في عداءٍ لا تحاول ستره مع **صبرنا** قبل موت **شروفة** وبعده، كونها رفضت الزواج بشروفة سيد الرجال وزينتهم وتزوّجت بغريب قصير تتيه كلُّ خصالِه في شجاعة **شروفة** ومروءته.

نُسـيت فرية نعيم وطعنه في نسب **المدين**، لكن الأخير لم يُرَ إلا صحبة **شروفة** في دروب الجمال والقوافل ومعامر الجبال ومحاجرها ومراح الجمال

t.me/qurssan

ودكانــة المزيّن وحقول الزراعة. علّمه الصيد والتجارة وأورثه الأميلات التي يملكها من بير "صبارة" وأوصى له بمسطاحه المسيّج بحجارة الجرف، بعد مقتله مأكولًا بين فكوك الضباع.

يومها أصابت الحيرة **المدين**، ولم يدرِ أيقبل الميراث أم يرفضه وقد طفت شائعة نسبه من جديد حتى بلغت مسامعه، ركبه الهم وشعور الخزي والعار، وكان يعلم أن ما يبديه الناس في وجهه ليس هو ما يضمرونه، لكنه لم يجرؤ على سـؤالهم أو سـؤال **صبرنا**، وداهمته المنامات المفزعة فلجأ إلى سيدي **مفلح** ابن الشـيخ **مهود** ليفسّرها كما كان يفعل **شروفة**، فأخبره المفلح أنه مقبل على زواجٍ مبروك ونسـل ممدود، فقرّر المدين أن يصدّق على تفسيره وباغت الجميعَ بطلبه من **صبرنا** أن تخطب له **شـامة** ابنةَ **شروفة** من جدّها بكر الفريج، وقد قرّر أن يعد رفضها إعلانًا بيّنًا عن دنس منبته وعكر نسبه، وعلمت **صبرنا** بمقصده فأطلقت الزغاريد وأعلنت مشاهرة الخطبة قبل أن ترسل في طلب جدّها بكر الفريج لنيل موافقته.

كان إعلان الزيجة وأدًا للوسـاوس الخبيثة والأفكار السوداء، كما كان دَهْشًا للقريب والبعيد، كأن بنوّة المدين لشروفة الفريج كانت أمرًا قضي فيه وانقضى، وتمت الزيجة لم يقف في سبيلها سوى **جلا** أم شامة التي حاولت إفسـادها انتقامًا لرفض **صبرنا** الزواج بالمرحوم **شروفة**، لكنها استجابت لأمر سيدها بكر الفريج وأبيها الشيخ **المأمون** وتوسّلات شامة التي أعلنت غرامها بالمدين ورغبتها إتمام الزيجة.

t.me/qurssan

وأضمرت "جلا" زوجة **شروفة** سعادة تختلج بين ضلوعها، وشوهدت -على غير ديدنها- تتردد على بيت **صبرنا**، كأنها -بدورها- كانت ترتاب في نسب المدين، فجاء زواجه بابنتها تبرئة لزوجها ولصبرنا من فرية قديمة أطلقها ذو نفس ممروضة.

وكانت **شامة** حسناء يكسوها بياض كالسحاب ونعومة كنتف القطن، وخيوط الحرير، "تذبح من دنا يومه". غبطه المحبّون وحسده الكارهون، وانتظر الجميع انقضاء الأشهر التسعة ليشهدوا أثرَ فِعَال العصب النافر في الجسد اللين. لكن التسعة انقضت، وانقضت بعدها تسعات. وكان العصب جافًّا والماء صديانًا فلم تبدُ على جسدها أمارة. كانت الحسناء متقدةً فأطفأه ضياؤها، ولم يكتمل اشتعاله في الليلة الأولى وما تلاها، تأكله بعينين راغبتين وشفاهٍ تئزُّ، وكلما ازدادت اشتعالًا خمدتْ جذوته. حاول مرارًا فتقاطعت أنفاسه وتلاحقت وتصبّب العرق البارد على جبينه العريض، ولهث حتى نشف ريقه وتجدرت شفاهه. ما إن تلتئم الروح في عصبه حتى تبدأ تتسرب مياه مخرات سيّالة بلا سبب ولا علة.

حين تأخّر حبلُها وضعت ستي **توتة** زوجة سيدي **تخلو** وأمُّها جلّا في فتحتها فصّ ثوم مهروس وربطتا عليه ليلة كاملة، وفي الصباح اشتمتْ خمس من النسوةِ فمها، فأعلنت اثنتان منهن عن فوح الرائحة وأنكرت ثلاثٌ، فأُعلنت **شامة عقيمًا** مغلقة المسالك وصار عليها أن تتداوى.

تغضّنتْ أسارير **المدين** وراحتْ النضرة وانطفأت اللمعة، وزحفت

t.me/qurssan

الهموم زحفًا على أطراف الشعيرات البيض التي كستْ لحيته. سارت الأيام ساطة لا ملح فيها ولا سكر، ثقيلة متجندلة مثل تلال الوادي ومعتمة، لا شيء يدفعها لتخفّف من رزحتها وتتسارع قليلًا حتى ينشقّ عنها فجر. عبثت في رأسه الظنون وطفا من جديد وسواس نسبه، كما عبثت برأس جلا فانقطعت مرة أخرى عن زيارة **صبرنا**، فلو ما كانت **شامة** أخته بنت أبيه لدخل بها حلالًا طيبًا، ولأنجبت له ثلة عفاريت صغيرة!

يخرج المدين في طلعة النهار بحثًا عن مواكر الضباع ومحاجر الضباب، يقفو آثار الأصابع الأربع والخمس ذات المخالب أو ذات الأظلاف والحوافر، يتتبّع بقايا الشعر والفضلات ويعتبر للريح وحركة الرمل. تتبّع آثارَ ضبعة وفراغلها الصغار، وقضى نهارًا يرقب كيف تكون الضبعة بين الذكور، قحبة وسخة لمّامة آكلة جيف، ينط عليها كل عابر ولو كان قطيعًا بكامله، وهي تفتح قائميها الخلفيتين بجسارة وترفع ذيلها مرة بعد مرة دون تمنّع. اللبؤة لا تفعل، والذئبة لا تفعل، لا أنثى غيرها تفعل فعلتها المشينة. جزّ رأسها ولم تأخذه الرأفة بصغارها، حنّط جسدها وجعله مسخًا عند باب داره. ولما رأى إناث فصيلتها لا يشذذن عن فعالها قبر جسدها المحنط وواراه. وصار يتلذذ بمشهد التكاثر وخنين النشوة المفترسة وزمجرة الضبعة المتطلبة. تلذّذ حتى انتصب ذكره ذات مرةٍ كصاري العلم، وقبّت بيضانه فاتسعت عيناه دهشة، ولما عاودته الرغبة نزل إلى الدومة وفتح على شامة ابنة **شروفة** بعزيمة القائد الغازي، شهقت فرحانة وساح جسدها استعدادًا للنكْت،

t.me/qurssan

لو وضعه في غير مكانه لانغرس من طراوة الجسد وصلابة الوتد. ما إن استلقت على ظهرها وثنت ركبتيها تدعوه بعينين ضجّتا بلمعان الشهوة المكنوزة حتى خارت العزيمة، ولم يجد في موضع القبّة أثرًا لأي حي.

ولمّا عاد فصعد التلة واستند بظهره إلى وجه صخرة وفرد قدميه أمامه يختلي بهمه يلوك وجعه بحرقة المنهزم، نفر قضيبه من مكمنه وصار يتلوى ويتقوى، لكأنه إحليل الجمل في أول ضراب. التقف حجرًا من جواره وهوى به على رأسه الأعور يصيح:

- **اخسا يابن الكلب!**

طالت أيام خروجه في السروحة بين الجبال والتلال والنواصب البعيدة، لا يتبدّل سمته إلا إن رأى **عسلة** ابنة السنوات التسع، خلف قطيع نعاجها تبحث عن بقعة معشوشبة. يرافقها ويرشدها إلى مواطن كلأ متناثرة، ولا يتركها إلا عند أول طريق عودتها. صارت تبقى في عينيه ويشتهي رؤيتها. يستحي أن يحملها لتقتعد بردعة حمارها، أو يأخذ بيدها لتتسلّق جندلًا وعرًا كما يفعل مع اللواتي في مثل عمرها. حين ابتسمت له بعينين منّاحتين، استبان مكنونه واستجلى شعوره وهرع إلى بكر الفريج مضطرب الفكر، يسأله:

- **كيف يشتهي الرجلُ "شافعة" ابنة تسع يا سيدي؟**

- **ويشتهي حمارة أو كلبة أو ذكرًا مليح.. تقع الفتنة في قلبه لا يدري مِنْ أين كان مَقْذَفُها.**

t.me/qurssan

- ما أصدقك يا سيدي!

يقول الفريج ممازحًا:

- تعرف! سيدك المأمون يركب الملك جورج!

يضحك المدينُ لدعابته، يقول:

- سيدي المأمون تجاوز التسعين، وما يركب سوى حصيرة صلاته.

ويضيف بجدّيّة وتوسّل:

- ما أفعل كي ما أكون طيّاشًا أحمق؟

- اصبر، وأعد لقلبك مرقدًا حيث يتقلّب.

يمضي المدينُ لا هو اطمأن إلى رأي أو سكن إلى مشورة، كُلّما عاثت في نفسه الأفكار استعاذ وردّد:

- بنيّة صغيرة، وأنا رجل تزوّج بابنة أبيه!

يتذكرها يوم حملها من "المزفر" الذي علّقته أمُّها فوق ظهرها، صغيرة رضيعة لم تنطق سوى بكلمات قليلة الحروف، يقول:

- لعلني أراها كابنتي!

يجالسها في حضيض تبّة معشوشبة قريبة من جبانة الجبل، يفتل لها خاتمًا من القشّ ويهديه لها ممازحًا، فتبسط له أصابعها ليدسّه في أحدها.

t.me/qurssan

يتناول خنصرها ليضع خاتمه. تسـدّدُ نظرتها الواهنة إلى صدره فتشـجُّه، يترك إصبعها كمن أمسك بجمرة ملتهبة. يكمش رداءه بين قدميه ويهرع إلى بيت زوجته.

يدخل على ابنة **شروفة**، فتتهيّأ لوطءٍ تأخّر، ترقُد تحته بعينين متوسّلتين، تنشـب أظافرها في لحم ذراعيه، فلا يرى في وجهها سـوى أختٍ من أبٍ أكلته الضباع وأورثه بئرًا باسم أمّه ووصمة يقرؤها في عيون الناس. تفتر همّتُه، ويتسرّب الدم من شيئه، فينهض مهزومًا ويغادرها.

وبقيت **شامة** صابرة راضية محتسِبة، جابتْ النواحي بأثر منه لأصحاب العمائم مسلمين ونصارى، أظافر قدمه التي قلمتها بسورة الفلق، وماء حمومه الذي نفخت فيه مرة وبصقت مرة وبالتْ مرة، شعره المتساقط الذي جمعته كصياد اللؤلؤ من قعور الخلجان. ولما أضناها السعي، قالت:

- **أزوّجك!**

***

وحين لحقت **شـامة بعسـلة وجود** وبقية النساء ناحية الجروف، وبينما يصّاعد صوت الهرج والفوضى وتوسّلات النجاة، سألتها شامة عن حال زيجتها، فسبرت **عسلة** غورها بنظرة واثقة وقالت:

- **لا أتزوج المرتاض!**

t.me/qurssan

- ترضين بالمدين؟

- نعم.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

20

جمل المحامل برك
ما بانت له عين
كترتْ حموله ما اشتكى
وما نشفت لعينه عين

انتهتِ الحرب العظمى، لكن حربًا بلا نيران ظلّت متّقدة بين أطرافها على امتداد الصحراء، وبقيت الدومة بين حجري "المرانة" طليان الغرب وإنجليز الشرق، بل ظهر الفرنساو في الجنوب التشادي يتربصون بانتظار اللحظة الملائمة للانقضاض، ونوبيون استعادوا ذاكرة غاراتهم القديمة.

أُعْلِنـت الصحراءُ الجنوبية محافظةً تحت إدارة حرس الحدود وصارت "الخارجة" عاصمتها واتخذتها الإدارة مقرًّا لقواتها وقيادتها، وبدأ الإنجليزُ

t.me/qurssan

بتسيير دوريات الحراسة من باريس الخارجة إلى موط الداخلة، ومن موط إلى أبومنقار شمالًا وأبوبلاص غربًا مرورًا بطرف المدق الجبلي الذي يصل الدومة بطريق السفر. أقاموا نقطة مراقبة دائمة فوق عند التقاء طريق القوافل، وتسلّل الطليان من الكفرة إلى العوينات وأقاموا مراكز مراقبة ومحطات للوقود، وأرسلوا فرقًا سرّية خفيفة أسموها "سرايا الصحراء الشرقية" تزرع الألغام على طول الحدود والطرق المؤدية إليها وتتتبّع مسارب تهريب السلاح إلى السنوسيين الذين تزعّمهم سيدي عمر المختار.

وكلما خرج **الشاهين** إلى طريقٍ طالَعَ آثارَ السيارات التي عَبّدت المدقّات الجبلية في اتجاهات متباينة، ولم تعد حيلة طمس الآثار بتعليق شواشي الكافور في ذيول الدواب بالكافية لإخفاء معالم المدق الجبلي إلى الدومة، خاصة بعدما عرِف الإنجليز الطريق جيدًا وصارت مقصدًا للمستر دمريخر الذي جاء هذه الناحية خلف بكر الفريج وصار قائدًا لمركز مراقبة "**تبة الإنجليز**" وصديقًا قريبًا إلى **الشاهين** لا يغيب هلال الشهر حتى يزوره ويزور بكر الفريج وابن أخيه **شروفة** في مراح الجمال، ولم ينقطع عن هذه الزيارة طوال سنوات خدمته حتى استُدعي إلى الانضمام إلى قيادة حرس المحافظة في واحة الخارجة، وعقب استدعائه بقيت التبة خاوية وتوقفت دورياتها فصارت المنطقة عارية مكشوفة أمام المتسللين والمهربين.

أرسل الإنجليز ضابطًا شابًّا يدعونه كابتن "هاوارد" مع قوة مسلحة مزوّدة بالسيارات والخيول، وأعادوا تنظيم "التبة" وأوكلوا إليه قيادتها،

t.me/qurssan

فنصب نفسه "**مكّاسًا**" يفرض على قوافل الحج والتجارة العابرة المكوس الباهظة وصادر الكثير من بضائعها وأموالها وسيّر دورياته ليلًا ونهارًا في كل أنحـاء المنطقة، وحـين رأى دواب الدوايمة عائدة من الرعي في "بين الجبلين" قنص بعضها ورابط عند زور المدق الجبلي ليشوي صيده، فأرسل **الشاهين** في اليوم التالي من يتتبّع الدواب التائهة فقصّوا آثارها حتى أدركوا ما فعله بها الضابط الإنجليزي.

صعد **شـاهين** التبّـة لمقابلته، فلم تجـرِ المقابلة كما تمنّى، كان يغدق على جنودهم من ماء الدومة وزروعها، لا ينتظر مقايضة أو ثمنًا أو هدايا كالتي كان يجلبها **دمريخر** في زياراته، تبين **الشاهين** في الملازم الإنجليزي الشاب نفّاشًـا متكبرًا لا يرى في خلق الله إلا عسـاكر سـودًا لا يجيبون إلا بكلمة "كوبيد" التي خمّن **شاهين** أنها لا تعني سوى الطاعة.

طلـب هاورد أن يأتي له **الشـاهين** بمن يحفرون لأجله بئـرًا قريبة من التبّـة وأن ينقلوا له بعضًا من أشـجار الدومـة ونباتاتها وضأنها، وأفاض **الشاهين** يتحدث أن الآبار لا تُحفر في الحجر الأسود وأن الدواب لا ترعى في الصخور الملساء تحت الشمس اللاهبة، فهدّده الضابط باحتلال الدومة وإقامة معسكره في قلبها.

أمر **الشـاهين** الدوايمة بإغلاق المنزلة أمام عسـاكره فلا يعطونهم من مائها أو مأكلها حتى يعود من مدينة "باريس" التي قرّر السفر إليها لمقابلة "دمريخر" أو أي عاقل آخر هناك يفهم أن ضابطًا مخلولًا كالذي أرسلوه إلى

t.me/qurssan

زمامهم سيؤلّب عليهم زواحف التراب وطير السماء. وحين رجع بعد عدّة أسـابيع وجد الملازم الإنجليزي مُحاصَرًا داخل الدومة مع اثني عشر من رجاله بعد أن اقتحم الدومة وأقام في عدد من بيوتها الخالية طوال أسابيع غيابه، تاركًا التبّة لثلاثة حراس يتناوبون على حراستها.

ما إن دخل هاوارد الدومة حتى بدتْ وضاعة خُلُقِهِ ودناءةُ نفسِه وشرع يعيث فسادا في أرجائها، فرض على كل بيت من بيوتها إطعام جنوده يومًا حتى يحظى الجميع بشرف خدمته، وعيّن **عبد رب النبي** خادم السيد حسن طنبور طاعما له ولجنوده، فلا تمتد أيديهم إلى طعام حتى يسـبقهم إليه عبد رب النبي، يختبره ويتذوق من أصنافه خشية أن يُدَسَّ لهم السّمُ في أطباقه. وسيبقى الدوايمة يتذكرون تلك الأيام كأيام كالحةٍ لم تعش مثلها دومتهم قبلها أو بعدها عدا **عبد رب النبي** الذي سيظل يتذكرها كأيام خير وبركة ذاق فيها ما تشتهيه النفوس وخبر بروع النساء في طجْن أصناف الطعام حتى صار مردًّا للرجال المقبلين على الزواج لمعرفة أي البيوت أشهى طعامًا.

وحين جـاء دور بيت بكر الفريـج في إطعام الملازم وجنوده، تسـلّل **شروفة** إلى شعاف الجروف ورابط ببندقيته المارتيني القديمة خلف سواتر الحجارة وأمطرهم بالخراطيش، وتبعه المزيّن إبراهيم الجريجي وعمُّه بكر الفريـج بعد أن نقل زوجته ابنـة جاد المرجوشي وعياله إلى بيت أخوالهم، وثلاثة آخرون من أبناء **المأمون** والمفلح وحسن طنبور. وكان دافع إبراهيم الجريجي لقتال الملازم، كُرهًا مستوطنًا للإنجليز الذين اضطروه إلى الهرب

t.me/qurssan

بعائلته مع زوج ابنته السيد حسن طنبور بعيدًا عن مستقره.

حاصروا عساكر هاوارد داخل الدُور التي استولوا عليها، وكلما حاول أحدهم الهرب أطلقوا خراطيشهم باتجاهه فأعادوه إلى مكمنه، لكن نفاد الماء والطعام حاصر الفريج وجماعته فوق الجروف، وكلّما حاول أحدهم التسلل لجلب مؤن وذخيرة انطلقت باتجاهه زخات الرصاص، وظل الحصار المتبادل مضروبًا في المعسكرين، حتى فوجئت جماعة الفريج بأبينا الشيخ **بشندي** في جرده الأسود وصليبه الخشبي، يجرّ حمارته العجوز محملة بأخراج الطعام وقراب الماء متجهًا إليهم من جهة الكثبان الرملية، بعدما أرسلت إليه **صبرنا** أحد الرعاة لمساعدتهم، وبقي هاوارد وعساكره تحت عيون بنادقهم الطويلة.

ولم يستطع هاوارد استدعاء المساعدة بعد أن ترك جهاز "شفرة مورس" في مركز التبّة، وحين وضع **الشاهين** شكواه بين يدي المستر دمريخر أبرقتْ قيادة الخارجة إلى "التبّة" بضرورة اعتبار الدومةِ منطقةَ "تماسٍ" مع عدو افتراضي يُحظرُ ارتيادُها إلا بأمرٍ عسكري مباشر لكن "الكابتن" لم يطّلع على فحوى البرقية بينما كان محاصرًا، وكان **الشاهين** يحملُ "مكتوبًا" عسكريًا من القيادة بمضمونها، وما إن حلّت قدماه بمنزلة الدومة حتى أرسل من يوقف الأشقياء الذين يقودهم الفريج عن الضرب وأطلع هاورد على المكتوب العسكري وسمح له ولرجاله بالمغادرة فارّين بجلودهم.

وسرعان ما أرسل الإنجليز الميجور **هوتسبير** ليقود مراقبة التبّة بديلًا

t.me/qurssan

للكابتن هاوراد، فأسماه الدوايمة زبير تيسيرًا على ألسنتهم، وكان على عكس ما كان عليه سلفه زاهدًا ليّنًا يكتفي بزجاجة الخمر عن سواها.

وعُدّ **شروفة** بطلًا وتحسّنت سيرته على ألسنتهم إلى حين، وحُمّلت إليه صواني العشيان تباعًا، صينية من ضرب السنيورة أعادها بهدية، وأخرى من بيت الشيخ المهدي أعادها بهدية، ومن بيوت أخرى أقبلت بناتُها على الزواج. كان العشاء دعوةً صريحة ممن أرسله يطلب تزويجه بإحدى بناته لكن إعادته للصينية مزودة بهدية أجابت بعدم قدرته على تلبية المطلب، واغتنم الفرصة ليعيد طلب الزواج بصبرنا فرفضت.

***

تمدّدت الدومةُ وأُتخمت بالبيوت والمضارب واتسعت أحواض الزرع ومرابع النخيل، وصارت لها عربتا كارو تسافران إلى "موط" لبيع الفوائض وجلب النواقص، وبينما كان الشجر الشيطاني الذي ترويه مياه الميضأة في المسجد الكبير ينمو كالضأن في موسم العشب بادنًا ريّانًا بلا سماد فيأكلها التراب والنمل دون أن يجرؤ أحد على انتشاله، أعلن **تخلو** أن سيدي المهود عليه السلام جاءه في منامه يخبره بما خفي عليهم وأعيا نفوسهم، وأمر بأن يحملوا الثمار إلى مَن لا يعلم أصلَ منبتِها من العابرين على طرق السفر ودروب الجمال فرادى وجماعات، حجيجًا وتجارًا وعبيدًا وعساكر، ذلك أن

t.me/qurssan

الشياطين لن تغادر مواطنها في البراري وترحلُ إلى مواطن هؤلاء الأغراب حين تحل في أجسادهم. أمّا عساكرُ الإنجليز والأستراليين الذين يستوطنون هذه الأَزِمَّة فهم شياطين لا تلبسهم الشياطين.

أُوكل إلى **شروفة** مقايضة الثمر، وسمح له الميجور **زبير** أن ينصِب "خُصّةً" قريبًا من "التبّة" تحت حمايتهم، فنصبها تطل على الطريق بانتظار المسافرين فيستبدل القماش والأواني والحلي بالفواكه والحبوب والماء، أو يبيعها بقطع من الدولارات الإسبانية التي يسمونها "المرأة البدينة" أو ببعض من الريالات المجيدية والأوراق المصرية التي تحمل صورة الخديو ثم السلطان فالملك، ولأنهم عابرون أغراب يجهلون أصلها فإنهم يأكلونها بشهية أرانب برية تخرج من بياتها.

***

شرع السيد **حسن طنبور** يبني أوّل طابق علوي في بيت من بيوت الدومة، بعدما أنجب عيالًا من زوجته "السنيورة". وأنجب أخوه **نعيم** من أختها، وتزوّج أخوهما **جلال** بأصغر بنات **المأمون** وأجملهن. وكبُر ابن حميه المزيّن إبراهيم الجريجي وطلب الزواج **بالبيضاء** ابنة سعد جاد المرجوشي، كأول زيجة لأبناء ضرب السنيورة من خارج ضربهم. فبنوا له طابقًا فوق دكانة المزّين التي أقامها أبوه إبراهيم الجريجي في ضرب السنيورة.

t.me/qurssan

كان نسلُ السيد حسن طنبور وأخويه نعيم وجلال، وحميه الجريجي وابنه، نسلًا ملوّنًا يشبه أولئك الخواجات الذين مرّوا بالدومة منذ وُلدت في أحضان الجروف، عيون كحبات العنب وشعر كشماريخ الرُّطَب وأجساد لينة مثل عجوة الأمهات، أثارت أحلام اليافعين والشوّاب عدا **تخلو** الذي كان -كلما تغزّل أحدهم بنساء ضرب السنيورة- يصكّ كفًّا بكفٍّ متعجّبًا من فساد الأذواق وعمى الأنظار، وتساءل مجاهرًا: كيف يسيل ريق الرجل على تمرة في طور "الخلال" لم تصبح رُطبًا بعد. هكذا كان **تخلو** يرى شقراوات الضرب كالبلح الرامخ، بينما كانت سمراوات الدومة رُطبًا يقطر العسل. وظلّ هو وحده على هذا الرأي بينما كان الجدعان يترقبون نمو شعورهم ولحاهم ليذهبوا إلى دكانة "إبراهيم الجريجي" ليحلق لهم رؤوسهم علّهم يصادفون بعضًا من بنات السنيورة يلعبن في المسارب الضيقة أو يجلسن في عتبات الدور، متحمّلين في سبيل ذلك مصفاةً من الجروح الغائرة والدماء التي تُخضّب رؤوسهم بشفرة الجريجي ومقصه البارد. فيما كان المتزوجون منهم يرسلون أحد صغارهم لاستدعائه بعدِّة الحلاقة في مندرة بيت أحدهم أو تحت سقيفة الملقة فيُحرمون من هواء الضرب.

ولم تتزوّج أيٌّ من نساء السنيورة من خارج ضربهن إلا مرات قليلة من بينها زيجة السنيورة ذاتها بسيدي **شاهين** بعدما صارت أرملةً لحسن طنبور، ذهبت إلى السقيفة الكبيرة بعد موت ستّي شمس ابنة ملك وادي البخت زوجة **شاهين** واقتحمت جلسته بين الأشياخ وقالت أخطبك كما

t.me/qurssan

خطبت خديجة النبي محمد، وكان حينها عند الستين، تزوجها صورة قديمة للأجنبيــة ذات العيون القططية التي لم تغادر مخيلته منذ طبعت قبلتها على صدغه وكي لا يرد مطلب امرأة سيكسر رفضُه خاطرها. كذلك كانت زيجة امرأة نعيم طنبور التي طُلّقت من زوجها قبل أن يغادر الدومة ويختفي أثره، أخذهــا **الشريفُ المرتاض** كزوجة ثانية، بعد أن عيّنته هيئة التعمير موظّفا في مديريــة ري الداخلة، وصار واحــدًا من الذين يـرون العمار، فرضي به الطنابرة. ولم يكن ســوى أرامل ضرب الســنيورة مَن يقبلن الـزواج بعد موت بعولهن.

وحين تزوّج ابن إبراهيم الجريجي **بالبيضاء** ابنة سعد جاد المرجوشي، عمّت السـعادة رجال عائلة المرجوشي وصبيانهــم، إذ أصبح بينهم وبين ضرب السنيورة نسبٌ يشفع لهم طلب الزواج من نسائه. يستلبون نظرات الحسد والتقدير أينما ساروا، فينتفخون كالديوك الشركسية. لكن سرعان ما خابت آمالهم وتهدمت أحلاهم، حين رُفض أول طلب للزواج بعد هذا النسب من بدير ابن سعد المرجوشي. ورأى بعض الدوايمة أن صلةَ النسب التي تجمع بين **بدير ابن سعد المرجوشي** وإحدى بنات **عبد رب النبي** هي علّة رفض الطنابرة لهذه الزيجة، فلن يقبل الطنابرة بنســب يجمع عائلتهم بعائلــة "عبد رب النبي" العبد النوبي الذي قام على خدمتهم منذ وُلد بين ظهرانيهم إلى أن مات سيده حسن طنبور، لكن هذا الرأي لم يصمد طويلًا بعد أن تزوج ابنه بابنة جلال طنبور وسافر بها إلى أسوان.

***

t.me/qurssan

الأسطول الملكي أغرق ناقلة الوقـود الألمانية في ميناء طبرق، ضربها بالمدافـع والطائـرات. أتى عليها في غمضة عـين، وأصبح أمام "روميل" قائد قـوات المحور ثلاثة أيام فقط قبل أن ينفدَ آخرُ جالون من الوقود في خزانات دباباته. أرسـل إلى "هتلر" يحكي له الحكاية بصراحة، قال له إن الدبابات ستصير أهدافًا ثابتة جليّة مثل تلال الجير في الصحراء المكشوفة إذا لم يرسـل له قوافل الجاز. خـاف هتلر أن ينهزم في هذه المعركة الكبيرة حتى لا يأكل الناس وجهه ويعايره أعداؤه بالهزيمة، هذا الرجل كان صعبًا وكان الجميع يخشاه، حلفاؤه قبل أعدائه.

اتصل هتلر بالطليان على الحدود الغربية وقال لهم ترسلون الجاز للجيش في العلمين أو أترك عليكم "الحلفاء" يأكلونكم. ارتعد الطليان الموحولون في ليبيـا، فقرروا اسـتخدام المراكز التي أقاموها لجيشـهم في "العوينات" والأكواخ التي أنشـئوها لتخزيـن الوقود والذخـيرة في كركر ومور وفي نقـاط على امتـداد الحدود وداخلهـا. أطلقوا قافلةً مسـلّحة من فناطيس الجازولين والعربات المُجنزرة باتجاه صحراء أبوبلاص تسترشد بخرائط حديثة سرقوها من الإنجليز عن طريق جواسيسهم، وتستعين بأدلاءٍ من قبائل التبو والجرعان.

لم يكـن للإنجليز في هـذا الفضاء الصحراوي الشاسـع غير دوريات متحركة ومراكز مراقبـة محدودة تنتشر من غرب الواحات إلى شرق بحر الرمال الأعظم، لكنها دوريات صغيرة ذات تسليح خفيف لم يكن بمقدورها

t.me/qurssan

الاشتباك مع قوات معادية في معارك كبرى. مهمتها الرئيسية مراقبة الحدود وإرسال البرقيات إلى قيادة الجيش في الإسكندرية قريبًا من ميدان معركة العلمين.

صار "وادي الدوم" بين أضراس حرب عظمى ثانية لا يعلمون أسبابها، لكنهم يعلمون أن أحد أطرافها ضرب الكُفرة بالطائرات والقنابل فاضطر أهلها إلى مغادرتها رافضين البقاء تحت حكم الطليان. كانوا ناسًا شرفاء لا يرتضون الدنيّة ولا يطاطون للظلمة، حزموا حاجاتهم وضربوا في المفازة يقصدون ثلاث جهات، بحيرة تشاد، والسودان وجبل العوينات، والذين قصدوا العوينات، كان عليهم اجتياز بحر الرمال وهضبة الجلف الكبير، الهضبة التي قال سيدي **الشاهين** يومًا إن الله سيوقد فيها نار جهنم للمشركين يوم الحشر. حجر صلد أحمر كألسنة اللهب لا تسوخ قدمك في رمل ناعم، لكن حركتك تصير بطيئة وجسدك ثقيلًا، تحمل سنطةً عجوزًا على كتفيك وتجر قدميك وعطشك إلى تيه بعد تيه، لا أثر لذرة غبار أو نبتة جافة. هي سيرة الحياة الأولى أو موات الآخرة، شمس النهار لا تغيب إلا قطعًا من اليوم وحرُّها يلفح لا يهدأ، تشرق كأنها ترتفع من أذنيك كبيرة كاملة، وتغيب كأنها تستريح هنيهة لتعود عفيّةً قاسية.

لكن الفارين من الكُفرة قطعوها بعزيمة المؤمنين حتى بلغوا "العوينات" بلا ماء أو طعام، وهناك فوجئوا بأن القارة جافة لم تسقط بها الأمطار منذ سنين ولا أثر لحيٍّ مِن عشب أو حيوان. مكثوا في محلهم وأرسلوا منهم

t.me/qurssan

ثلاثة أنفار أشـدَّاء إلى أقرب عمار مأهول ليجلبوا من ينقذهم، فعاد إليهم الثلاثة في سيارات الميجور **زبير** ليجدوا أكثرهم جثثًا هامدة عجز من بقي حيًّا عن دفنها، ومن بقوا أحياءً تحرّكوا ناحية الدورية زاحفين على أيديهم وأرجلهم، ونُقلوا جميعًا إلى الدومة ليتزودوا بالماء والطعام ويستردوا شيئًا من عافيتهم ويقصّوا على مسامع الدوايمة معاناتهم في رحلة الموت ويملئوا صدورهم بما يغلُّها تجاه الطليان ومن يكاتفهم.

تناقلت الصحف أخبارهم شاهدًا على قسوة الطليان وبشاعة أفعالهم، وعظمة الإنجليز وإنسانيتهم. وحين عثر **شروفة الفريج** على قافلة الوقود الطليانية تُرابط ليلًا عند جبل "الزُقْمة" لتلتقط أنفاسها قبل أن تعاود سيرها لنجدة جيش روميل في العلمين، سارع إلى الدومة ليخبر سيدي **الشاهين** بأمرها فقال **الشاهين** إن حربًا وشيكة ستقع قريبًا من وادي الدوم ودعاهم لإعداد أنفسهم، وأرسل **شروفة** إلى تبّة الإنجليز ليبلغ الميجور **زبير**.

وهناك قال **شروفة** للميجور إنه لا يشي بالطليان حبًّا في الإنجليز فهم أيضا أبناء كلب قتلة يفترون على خلق الله ويسرقون أقواتهم، لكن الطليان فجرة ملاعين خلعوا الناس من أراضيهم وتركوهم لضواري البر والعطش. وسمع الميجور الشتيمة وابتلعها غير مبال. يعلم أن **شروفة** يكره الإنجليز جميعًا لكنه يحمل له كرهًا خاصًّا منذ تجرّأ وتقدم لخطبة ص**برنا**، لكن حُسْن صنيعه يشـفع له طول لسـانه. ولم يَدُر بخلد الميجـور أو **شروفة** أن دليلًا حجازيًّا سيأتي بعد سنوات قليلة ليختطفها من بينهما بأمر إلهي لا يُرد!

t.me/qurssan

أرسل الميجور برقية عاجلة إلى قيادة الجيش، لترسل بدورها طائرات "الهوكا" تضرب قافلة الطليان بالقنابل وتقنص عساكرها عن آخرهم، وانتقل **شروفة** وحرب وعبد رب النبي وإبراهيم الجريجي وجلال طنبور وآخرون من رجال الدومة إلى موضع القافلة المدمّرة ونزعوا القلائد المعدنية التي تحمل أسماء القتلى وبياناتهم وواروا أجسادهم ووضعوا شواهد فوق قبورهم وتركوا فوق كل شاهد القلادة التي تحمل اسم صاحبها، وأطلقوا على هذا الموضع "جبانة الإنجليز". وعكفوا على نقل حطام القافلة والصهاريج المدمّرة لأسابيع. ثم جاءت طائراتٌ أخرى قال الميجور زبير إنها "ستوكا" رومانية تحارب في صفّ الألمان والطليان، طائرات مخيفة أصواتها مرعبة، عبرت الحدود الغربية ووصلت إلى موضع ضرب قافلة الوقود في غمضة عين، وأطلقت من القنابل ما دكّ التلال المحيطة والطرق المعبّدة والمدقات الجبلية وأشجار الدوم المتناثرة على نواصي الوديان ورقوق الرمل، وطالت إحدى قنابلها أبناء **سيدي مفلح** الثلاثة وقطيعهم وأصابت معهم قدم **حرب** وقتلت مطيته، ومضت من حيث جاءت في سلام.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

21

أيام بنشرب عسل وأيام بنشرب خل
وأيام ننام ع الفراش وأيام ننام ع التل
وأيام بتيجي على الجدعان تنذل

بلغــتْ أصداءُ الدانة "بين الجبلــين" فخرج أبونا **متاؤس** من قلايته في جبل الخشب دون قبّعته السوداء وصليبه السنطي الطويل وخلفه "الحاج أرنولد" الخواجة يمسح زجاجتي نظارته السميكة في طرف قميصه، يتبعهما **مرتاض الشريف** سائق سيارة الدومة، يبحثون في المدى البعيد عن مَبْعَث الصوت، فلا يبلغهم ســوى جفجفة الهواء في صخور الجبل، يظنُّها أبونا متاؤس توهُمات شيطان يصرفه عن مغالبة النفس ويدفعه لمغادرة القلاية وقطع الحكاية التي يُمليها على مســامع **الحاج أرنولد** ليســتعيده في قطيع

t.me/qurssan

الرب، حكاية قلايته الصخرية التي جلبها أبونا "**حنا الزمّار**" في غابر الزمن بحبـل من ليف النخيل يجرّها بقدمين عاريتـين من الدير الكبير في أقصى شرق جبال البحر الأحمر ويصعد بها إلى هنا في جبل الخشب.

يناجي أبونا **متاؤس** أبانا الربَّ أن يجعلها سـلاما في أولها وسـلامًا في آخرهـا، يدخل قلايته ويتبعه أرنولد الخواجة الذي اعتاد زيارته وتدوين مروياته، زائغ العينين يقرض أظافره ويحك فروة رأسـه ككلب أجرب لم يَعتـدْ مرضه بعد، لا يصدق أن حدثًا كالـذي يدور الآن هناك في الدومة يتفلّتُ من بين أصابعه كسفيف الرمل في خف الجمل، يتذكّر تلك المرات التي غادر فيها الدومة بحثًا عن "أحفور" في حاشـية درب قديم أو حول بئر مهجور، ما عاد إلا كانت هناك حكاية، يخشى لو كانت هذه المرة حكاية معتبرة، بل ربما كان يومًا جديدًا من أيام "وادي الدوم"، تلك التي يؤرخ بها الشـيوخ لدومتهم كأنهم عاشوا منذ حطّت السفينةُ بعد انحسار الماء، لا منذ تسعين عامًا منذ وجدها سيدي **شاهين** في حضن الجرف فأعمل في مفاصلها معوله لتتمدد وتتسع حتى يغيب في أطرافها البصر.

لا يريد أن يعود إلى الدومة فيأتي الشـيخ **حرب** إلى خيمته هادئًا يحمل ابتسامة انتصار ويكرع كوبًا من راووق(*) المياه القائم عند باب الخيمة ثم يزيح قبعته وقميصه عن مسـندي مقعده الهزّاز ويضطجع فوقه مثل والي بين رعيته يقول شامتًا:

(*) راووق: فلتر.

t.me/qurssan

- **ليتك رأيتَ ما صار يا خواجة!**

فيتوسّل الكلمات من بين شفتيه ليقصّ على مسامعه حكايةً فاته حضورها، مثل حكاية أسنان الغول التي عثر عليها واحد من أبناء "إبراهيم الجريجي" في البئر المهجورة، والتي تفحّصها أرنولد أيامًا طويلة ثم قال إنها أسنان فكٍّ علوي لديناصور "سيراتوسورس"، ليقهقه الشيخ حرب ضاربًا كفًّا بكفٍّ حتى تدمع عيناه ويعدو إلى خارج التعريشة فيصادف **عسلة** خلف عنزاتها تقودها نحو المنزلة فيناديها ويطلب من **أرنولد** أن يعيد على مسامعها ما قاله فيفعل، وتضحك **عسلة** كما ضحك سيدها "حرب" وتغمر الخواجة بنظرة مشفقة عطوف. ويتناقل الدوايمة الاسم الجديد للديناصور العملاق متندرين باختراعات الرجل وأسمائه العجيبة، ويطلقون على إبراهيم الجريجي الذي عثر أبناؤه على البقايا "إبراهيم سيراتوس"، ويتطور الاسم شيئًا فيشئًا ليصير **ظوراتة** وعلى أبنائه أبناء إبراهيم ظوراتة.

لا يريد أن يعود فيجد بيد **حرب** خوذة معدنية جديدة أو سترة من السلاسل المعدنية الصلبة تزغلل عينيه وتجن عقله ولا يفصح حرب كيف عثر عليها وأين فعل. وحين يسأله:

- **هذه خوذة يونانية يا شيخ حرب؟** يجيب:

- **بل بارساوية من جيش جمبيز يا خواجة!**

t.me/qurssan

يتذكّر الحاج أرنولد الخواجة هذه الساعة وتفاصيلها، يوم باغته الشيخ حرب بإجابته فظن أنه أساء سماعه حتى أعاد عليه نفس العبارة يقول:

- من جيش جمبيز يا خواجة!

قالها هكذا يسيرة سهلة وهو يدس بين أسنانه المتآكلة قشّة خشب التقطها من التراب لينقب بها عن فَتيت ثمرة دوم تائهة بين أسنانه، يقولها عفوية متعجّلة كمَنْ رأى وسمع فتحدث عن يقين، كأنّه لا يعرف أن زرافات من أصحاب العلم على مرّ القرون حاولوا الكشف عن سر اختفاء هذا الجيش العارم منذ أكثر من ألفي عام وخمس مئة فلم ينالوا سوى الخيبة، تتبّعوا مساراته وطرقوا رقوق الصحراء ووديانها ولم يكن هناك من أثر، قالوا غَمَرَتِ الرمالُ الجيشَ ودفنتْه العواصف، خمسين ألفًا من المدججين بالسلاح والعتاد أرسلهم ملك الفرس من كوش "النوبة" إلى غرب النيل إلى الداخلة واختفوا في صحرائها كأنهم ما وجدوا من قبل، اختفوا قبل أن يتمّوا مهمة هدم المعبد في واحة "آمون" التي تنبّأ كهنتها بهلاك الجيش الغازي ومقتل ملكه، تلك الواحة التي ستسمى بعد عدة آلاف من السنين الواحة الأقصى وواحة سيوة.

الخواجة نفسه أضاع سنين متنقلًا بين الهضاب والكثبان والرمال المتلاطمة باحثًا عن حصاة تعلقت بنعل أحد الجنود ولم يجد، بحث في رفوف الكتب وأروقة المتاحف فلم يزده البحث إلا حيرةً وارتيابًا، ليأتِيه الشيخ حرب

t.me/qurssan

مستلقيًا في مقعده الوثير يعبث في فلوج أسنانه يقول:

- **من جيش جمبيز يا خواجة!**

يشتعل رأس الخواجة وتتبدل ملامحه وترتجف أحبال صوته ويحاول استنطاقه ليدلي بما يعرف عن الخوذة وأصحابها وأين عثر عليها، لكن الأخير لا يقول شيئًا، بل ترتسم ابتسامة ماكرة فوق ملامحه يغادر على إثرها الخيمة ولا يفصح بشيء. يطوف وراءه الخواجة من بيته إلى المزيّن "إبراهيم ظوراتة" إلى مصطبة بدير المرجوشي إلى مراح بكر الفريج إلى المسجد الكبير فيستجدي الكلمات على لسانه حتى يعترف الشيخُ حرب أن **الشاهين** هو من عثر على الخوذة قبل الحرب العظمى الثانية ودخول الطليان ليزرعوا البلاليص المتفجرة في الطريق إلى الغرب ويطمروها بالرمال والحصى، يوم ظنّها **الشاهين** واحدةً من هذه المتفجرات فقضى نهارًا يترقّب انفجارها ويُلقي فوقها الحجارة كي ما تقتل الدواب والرعاة، وحين استعصتْ اقتربَ منها ونبش حولها ليستخرجها ويجلو عنها الصدأ ويهديها لأكبر أحفاده حرب ابن **المأمون**.

بينما عثر حرب على السترة المعدنية حين جاءت هيئة التعمير وموظفوها أيام عبد الناصر يحفرون الآبار ويصلون الدومة بالعمار وكان يصحب المسّاحين ومهندسي البترول في حفرهم مواضع البرّيمات وتعبيدهم طريق الداخلة وطريق الفرفرون. عثر عليها بين عظام آدمية وجماجم فاحتفظ بها

t.me/qurssan

سنة بعد سنة بين أشيائه الثمينة حتى طلع عليه عفريتها ذات ليلة يقول:

- هذي من جيش جمبيز يا شيخ حرب!

وكانت تلك هي المرة الأولى التي يسمع بها ذلك الاسم.

يسأله الخواجة من جديد:

- وبما أخبرك أيضًا يا شيخ حرب؟

- لا شيء، ما أخبرني بشيء!

يحكي له الخواجة قصةَ جيش قمبيز الفارسي الذي غزا البلاد وأذل أهلها ونبش قبر فرعونها، وكيف تحرّك من النوبة وعَبَرَ النيل إلى شمال الصحراء الغربية فهبّت عاصفة رمال ردمت جنوده، ترتسم ابتسامة رثاء ساخرة على وجه الشيخ حرب مجددًا ليقول بيقين لا يتزعزع:

- أحسبك تعرف النواة واللبابة يا خواجة! جيش أوله هنا وآخره عند "بين الجبلين" يقتله العُفار؟ قل شيئًا زين يا شيخ!

- أومال يا شيخ حرب؟

- أخذهم الأدلاء المصريون لبئرٍ مسمومة ليرتووا فمات الثلث، وشرب الأدلاء مثلهم وتصنّعوا الوجع، وأُهلكت الشمس والعطش الثلث، ومن

t.me/qurssan

تبقوا قتلهم عساكر الواحة، عملوا لهم أكمنة وأسقطوهم بها كالثعالب في أكنان الرمل.

– أي عساكر؟

– عساكر الداخلة، كان عليهم ملك سبع اسمه.. نسيتُ اسمه يا خواجة!

– والأدلاء أضلّوا الجنود؟

– يعني يأخذونهم يهدمون المعبد فينتقم منهم ربهم ويروحون في داهية؟

– العفريت قال لك هذا يا شيخ حرب؟

– أي عفريت والعياذ بالله؟ هذه روح يا خواجة.

– أنت قلت عفريت.

– أنا ما أعرف شيء.

وحزم أرنولد حقائبه واستدعى مرتاض الشريف ليحمله بسيارته إلى الداخلة، ثم سافر منها إلى القاهرة، وغاب شهرًا كاملًا عاد بعده بأكداس من المراجع والكتب والصور الفوتوغرافية، وسعى من جديد إلى الشيخ حرب يقول:

t.me/qurssan

- نريد نوثق ما تقوله حتى يعرفه الناس!

- ما أعرف شيئًا.

- ستعطيك الجامعة مبلغًا طائلًا يا شيخ حرب.

- ماذا يشتري المال في الصحراء يا خواجة؟

- احفرْ بئرًا وازرع حوله ما تحب. ألا تحب المال؟

- لا أكرهه يا خواجة، عندنا الماء والزرع والحلال، رحم الله الشاهين! ماذا تريد مني؟

- الملك الدخلاوي الذي قتل جيش قمبيز...

- ما به؟

- كان اسمه بيتوباستيس؟

يضحك الشيخ حرب وتبدو السعادة في أساريره يقول:

- تمام، هذا هو، باطسطس، من أخبرك يا خواجة؟

- أنا أيضًا تأتيني روح تقول لي الأسرار يا شيخ حرب.

- لا، هذه أرواح طيبة لا تطلع للكفرة!

- أنا كفرة يا شيخ يا حرب؟

t.me/qurssan

- أنا ما أعرف شيئًا.

ولم يكن من سـبيل ليتيقّن الخواجة مما يرويه الشيخ حرب، بل ظنّ أن ما يقوله فرضيات ذكرها أمامه باحثو هيئة التعمير الذين صحبهم حرب حين جاءوا الدومة دون أدلة علمية توثقها أو تدعمها، وأن الخوذة وسترة السلاسـل ربما تعودان إلى أحد الجيوش التي عبرت هذه المفارق في عصر قريب حين كانت تلتقي طرق السفر قريبًا من هنا.

هنا عَبَرَ الجيش اليوناني والروماني، وعبرت جيوش النوبة لقرون متوالية في محاولاتها الاستيلاء على الواحات أرض الخير والنعم، وعبرها المسيحيون الفارون من اضطهاد الكنيسـة، والعرب الفاتحون والمسـلمون المبشرون والعثمان التراكوة والبربر، فلماذا لا تكون الخوذة التي لا تحمل نقشًـا أو علامـة من بقايا أحدهم؟ بـل لعل هذه القصص جميعًـا أضغاث أحلام ابتكرتها دواخله دون أن يشـعر جرّاء القصص التي سـمعها على ألسـنة الباحثين والسـيّاح. أنكر أرنولد ما قاله حرب ولم يكترث الأخير لإثبات صدقه وتبديل قناعة الرجل، بل اعتبرها علامة أخرى من علامات شطحه وعدم تصديقه بالكرامات، حتى بعد أن آمن وتشـهّد وصام وصلى، بقي يردُّ المعجزات الربانية إلى غير الله حتى تلك المعجزة التي نبت فيه السمكُ في قلب الصحراء بعدما توحّمته **صبرنا** في حملها بـ **المدين**.

t.me/qurssan

وحين تناهت أصداء البازوكة إلى "بين الجبلين"، قَرَّرَ أرنولد أن يعد حاله للعودة مع بزوغ الشمس، وتبع الشيخ **متاؤس** داخل القلاية وأخبره بما قرّر، وخُيّل إلى الشيخ متاؤوس أنه سمع نداء "الملك جورج" في أسفل الجبل، فأشرك الخواجة والمرتاض في ظنّه، هبط السفح ووجد الملك جورج يلهج بين صخور الوادي، تناول رسالة **المأمون** وقرأ تحذيره للخواجة أرنولد من العودة حتى يتلقى رسالة جديدة باستتباب الأمر، كما حثت الرسالة الأب متاؤس على الاحتماء في إحدى المغارات المهجورة بعيدًا عن الدير.

ولم يقنع **أرنولد** بتحذير الشيخ **المأمون**، وقرّر أن يخرج في سيارة المرتاض ليجلب المساعدة من أحد أكمنة الجيش على الطريق إلى "أبو منقار"، لكن المرتاض خشي أن يعثر عليهم المهاجمون، فرأى أن يتجهوا إلى كمين "الرميلة" في الطريق إلى حدود الغرب. قائلًا:

- **لا نلقي بأروحنا للتهلكة يا ابونا!**

فلما رأى أبونا متاؤس إصرار المرتاض على المغادرة إلى الغرب، قرّر أن يسير هو إلى الشرق مُرجحًا أن تكون **عسلة** وبنات الدومة في طريقهن إلى بين الجبلين هربًا من الغارة، ويحتجن إلى من يمد إليهن يد المساعدة. ولم يكن رفض **المرتاض** السير باتجاه الدومة إلا خوفًا أن تُسلب السيارة أو تتأذّى، فهي وحدها وسيلة النقل من الدومة وإليها، يحمل عليها منتوجات الدومة من الخوص والبلح والدوم وكيزان العسل، وبها يوصل بيومي

t.me/qurssan

ابـن جابر الوكيل ليتلقى راتبه الشـهري من مديريـة الآثار كحارس على أثر تاريخي ذي رقم مدون في دفاتر مخازن المديرية منذ عشرين عامًا، وهي وسيلته ليتسلّم معاش أبيه "الشريف" موظف الإدارة المحلية الذي عينته هيئة التعمير بين من عينتهم في وظائف تعويضًا لهم عن انسحابها المفاجئ من صحرائهم المديدة. السيارة هي رأس ماله ومدعاة احترامه وحيثيات وجاهته ولن يخاطر بفقدانها.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

22

بكرة نموت ونندفن تحت دار طينة
والدود حياكل حواجبنا وعنينا
وتركب الوجه غبرة بعد دار زينة

عـاد الحـمار بالأخراج ممتلئة كـما ذهب بها لم يُنتقص منهـا حبّةُ زيتون أو نُتفـة قَرِيش، فقرّر **الشـاهين** أن يذهب إلى "بـين الجبلين" وقد أيقنَ أنّ مكروهًا وقع لأبينا الشيخ **بشندي** والشيخ **مينا المنسي**، وإلا لأفرغ أحدهما ما في الأخراج من مؤن وطحين وسـقى الحمار والكلب الحارس حسـوة ماء كما اعتادا.

قالوا لشاهين إنهم لن يتركوه يقطع هذه السفرة الوعرة وحده وما زال جسده خائرًا لم يتعافَ من رحلة حجّه التي آب منها قبل أشهر قليلة، رحلة

t.me/qurssan

قطعها **الشـاهين** مع قافلة حجيج ليبية بعد انتهاء الحرب العظمى، بعدما أحـسّ أن ماء الحياة يجفّ في مفاصله، وأن المـوت صار أقرب من زفرته التالية، خشي أن تتسرّب الروح من بدنه دون أن يقطع هذه الصحراء لوجه الله ورسوله وهو من جاب الصحراوات على قدمين بلا وجهة.

مخرتْ بـه قافلةُ الحجيج من وادي الدوم إلى موط ومنها إلى الخارجة، وركبتْ قطار الفحم إلى أسيوط وعبرتْ بحر النيل إلى ميناء عيذاب، وهنالك ركب **شاهين** سفينة عملاقة تصّاعد أبخرتها الرمادية فتلبّد السماء بالضباب، ورأى البحر المائج وضحك للماء والموج. وحين أتى الكعبة ضايفه "رحومة" أحد أدلاء الحجاز المطوفين ممّن يرتحلون كل عام إلى تونس الخضراء أو برقة وطرابلس ومصر المحروسـة أدلاء لطريق النبي، فترك له **الشاهين** وصفًا للدومة يزورها متى يشاء ويرشد أهلها إلى طريق الكعبة.

انتهت شعائرُ حجته فأحسّ بها سهلة يسيرة لا عناء فيها ولا كدّ، فقال إن ثوابـه منقوص، قرّر أن يعود وحده بجمل وقربة ماء متحمّلًا مشـاق الطريق ووحشته.

عاد إلى الدومة نحيلًا واهنًا يابسًا كعشبة حنظل. وحين عزم على المضي وحده إلى بين الجبلين ليطمئن على رهبانه بعد أن عاد حماره بأحماله، اضطر إلى أن يغافـل الجميع حتى لا يصحبه أحدهـم، وقطع نصف الليل حتى صعد جبل الخشـب إلى قلاية الشيخ **بشندي** فوجده في نزعه الأخير، بينما

t.me/qurssan

كان الشيخ **مينا المنسي** يقرأ على رأسه "عزيز في عيني الرب موتُ أتقيائه". سأله **الشاهين** عن اتجاه قبلتهم أو الورد الذي يقرءونه على مرضاهم قبل طلوع أرواحهم فقال أبونا مينا المنسي:

- **عملوا لنا طقوس الدفن يوم ارتدينا هذا الرداء واعتزلنا الدنيا.**

فسأله عن شهادتهم ليردّدها على أذني بشندي، فأفلتتْ ضحكةُ **الشيخ بشندي** الواهنة ومدّ إليه يده بصعوبة ليصافحه ومات. حمل **الشاهين** خطابًا من أبينا مينا المنسي توسّل إليه أن يُرسله إلى كنيسة أسيوط ليبلغهم فيه تنيُّح الأب بشندي واقتراب موعد تنيحه، راجيًا منهم أن يرسلوا آباءً جددًا يسكنون الدير والقلايات كي لا تخرب بعد انتقالهما.

اتخذ **شاهين** طريق عودته يسبقه جملُه. فكانت تلك المرة الأولى -منذ خمسين عامًا أو يزيد- يأتي بها الدومة من الغرب مع إشراقة الشمس، يطأ أشعة النور الذهبية المنبسطة أمامه كأنّه يسير على مياه البحيرة خفيفًا ليّنًا يسبق ظله الملقى وراءه في وداعة، ينحرِفُ إلى المدقّ الجبلي فيميز آثارًا حديثةً لعجلات سيارات ضخمة، يحُثُّ جمله على التوقّف:

- **هِيييه!**

يتوقف الجمل ويعقص رقبته فيرى **الشاهين** انحنى فوق آثار العجلات الكبيرة يقيس اتساعها ويحدد اتجاهها يقول:

t.me/qurssan

- هذا الأثر جديد لم أشاهده من قبل!

يمضي باتجاه قرص الشمس ينبش الأرض بعينيه ويقلّبُ حصاها يقارن بين ألوانه وتشكيلاته. تتبدّى له التلال الصخرية البعيدة وقد كَسَت الرياحُ الباردة سطوحها بالصدأ وضاعتْ في الأرجاء رائحةُ الحديد. يقول:

- هذي الرائحة ما شممتُها من قبل!

ينجلي بصره وتزول الرؤية الباهتة عن نواظره فيرى المدى متسعًا واضحًا كأنّ عينه لنسرٍ جارح لا مُسنّ واهن. تلمع حباتُ العرق فوق جبينه متلألئة كقطع الزجاج المنثور، ينادي جمله: **هيييه!**

ينحني إلى التراب ويفرُك حفنةً بين أصابعه كمن يتكشّف ملمسه للمرة الأولى يقول:

- هذي الترابة لم أرها من قبل!

ظلّ مقرفصًا على ركبتيه لا يقوى على النهوض، أتاه الجملُ ونخّ إلى جواره فتعلّق بسرجه وتسلّق غاربه، وسار به إلى الدومةِ وئيدًا كأنّه يعبر أرضًا موحلة لا صحراء صلدة جافة. حين بلغ الدومة كانت الشمس في الغروب تسقط خلفه في بحر الرمال برتقالية دامعة. نخَّ الجملُ عند عين "باجة" كما اعتاد قريبًا من الموردة، لكن **شاهين** لم يبرح السرج، كان مات، وكان الجمل أحسّ بموته فلم يشأ إيقاظه، وحين لمحه "عوض الفخراني"

t.me/qurssan

من بعيد، وضع عن كتفيه العارضة الخشبية التي يتدلّى من طرفيها حبلان يحملان صفيحتي مياه ممتلئتين يخمّرُ بهما طينة الفخار، وخلع مداسه ووضعه تحت إبطه واقترب ليُلقي إليه بالسلام، فلمّا لم يلتفت إليه باسمًا يسأله عن حال الصفيحتين اللتين تعددتْ ثقوبهما وصارتا تنزّان الماء يبلل هندامه، صاح مهلوعًا:

- **مات سيدي شاهين!**

وانطلق في مسارب الدومة وضروبها يعلن الخبر، بينما اكتنف الوجم كل من بلغتهم صرخته، ولم يتعالَ صراخ النسوة اللواتي يتحلقن حول الموردة يملأن جرارهن، ولم يفزع الرجال الذين يروون دوابهم من حوض المجراة، إنما تسللوا واحدًا واحدًا إلى حيث ينكفئ **الشاهين** على السرج بانتظار من يدركون ميتته فيحملونه إلى مرقده الأخير، وجاء بِكْرُه **المأمون** لا يشغله سوى أمر وحيد، إذ تبادر إلى ذهنه أن **الشاهين** مات قبل أن يخبره سرّ كيف عرف سليمان بغياب الهدهد، فقرّر أن يفضي بالسرّ إلى أحدهم كي لا يُقبر معه عند موته.

وسيبقى **عوض الفخراني** يحكي عن تلك الساعة التي رأى فيها سِيْده **شاهين** متيبّسًا فوق السنم ما تبقى من سنين عمره، في البداية سيحكيها بحسرة وحزن ومصمصة شفاه متأسّية، ثم يحكيها مفاخرًا متحديًا كل من يأتي على ذكر ذلك اليوم كأنه بكونه أول من اكتشف موت **الشاهين** قد

t.me/qurssan

أعاد إليه الروح تدبّ في أوصاله، وحين تتكرّر روايته وتتعدّد مناسباتها سيشوبها شيءٌ من المرح والفكاهة حتى تصير فردة مداسه عامودًا للحكاية، حين جرى ليبلغ الناس بموت **الشاهين** فانخلعت عن قدمه فأكمل عدوه بدونها، وحين عاد يفتش عنها حول العين لم يجد لها أثرًا.

***

قُبِرَ **الشاهين** في جبانة الجبل، ورحلت **صبرنا** برفقة دليل النبي، وانكفأ **شروفة** على نفسه يحفر بئرًا في الصخر، وأغار الزُرْق الملثمون وطاردتهم النطاير. رجعت **صبرنا** من الحجاز وأنجبت المدين، وانطرد نعيم طنبور بعد أن سرق ذهب عائلته. أكلت الألغام اثنين من أبناء حرب، تزوّج **شروفة** ليُسكتِ ألسنة الهمازين. جاءت الأنباء عن رحيل الملك المعظّم وإعلان الجمهورية وتولي عبد الناصر رئاسة البلاد.

قيل عبد الناصر ضرب المدقات الجبلية بالطائرات ليقطع طرق الإغارة من الغرب والجنوب، لكنّهم لم يرَوا طائرةً ولم يسمعوا دويًّا، إنّما قيل وسمعوا. ندرت حركة القوافل على الطرق القديمة، وازدادت سفرات الدوايمة إلى خارج دومتهم بالجمال والمطايا وعربات الجرّ، وحين ترك الميجور **زبير** إحدى سيارتي "تبة الإنجليز" بين ما ترك عطايا لأصدقائه الشيخ مفلح والمأمون وحرب وتخلو والشريف المرتاض بعد اتفاقية الجلاء

t.me/qurssan

وورود تعليمات الإخلاء، صارت سيارة "الفورد" وسيلة النقل الرئيسية إلى واحـات الداخلة، تركها الميجور زبير في وِداعِـه الدومة بعيون دامعة وقلب مفطور، أقسم عليهـم أن يتذكروه وأن يدعوا له في مقام الشـيخ **مهـود** أن يكفّ عن تناول الخمر، ليس تمامًا، إنما يتناولها بقدر، وأن يعود إليهم ويمكث بينهم من جديد. أعطى **المأمون** قلادة ذهبية في شكل نجمة ثمانية تحمل صورة لرجلٍ قال إنه الملك جورج الخامس، حصل عليها بعد انتهاء الحرب العظمى بانتصار عريض للحلفاء، وقَبِلَها **المأمون** **مُمْتنًّا** وعلّقها في رقبـة حماره مع "تاج" حديدي له رأس هُدهد أهداه إياه شـيخ القافلة الليبيـة التي جاء معها من الكفرة، يصطك التـاج بالقلادة فيحدث رنينًا يعلـن مجيء حماره أو رواحه. صار حمـارُ **المأمون** "حمارَ الملك جورج"، ثم سقطت لفظةُ "الحمار" ليصير "الملك جورج" اسمَ عَلَمٍ لحمار سيدي **المأمون** دون غيره، ذهـب الملك جورج وعاد الملك جورج وانعلف الملك وتمرّغ الملك جورج. وأهدى الميجور زبير إلى سيدي **تخلو** "بيادة" جلدية جديدة بها كُرات نفتالين بيضاء نفاذة الرائحة تحفظها من القوارض والزواحف، لكن سيدي **تخلو** ارتداها بحبات النفتالين ظانًّا أن هكذا تُلبس الأحذية، فأوجعت حبّاتُ النفتالين أصابع قدمه وأعاقتْ خطواته الخفيفة الواسعة فعلّقهـا في مجلـس داره. بينما تـرك الميجور **لحرب** إحدى سـيارتي الفورد العسـكريتين، وبقيت السـيارة الأخرى معطوبة ومطمورة تحت الرمال، ستسـتخدم أجزاؤها كقطع غيار للسـيارة المتبقية لثلاثين سنة مقبلة على

t.me/qurssan

الأقل. لكن حرب أبى أن تكون السيارة هي منابه من العطايا، قال إنه لا يجيد القيادة وطلب أن يعطيه الساعة "الأورينت" التي يرتديها، فأعطاه الساعة وأخذ عليه -دون غيره- عهدًا وقسما أن يحمي المناحيت القديمة من معاول الهدم التي تترصّدها، وذلك حين استشعر -في أوقات مختلفة- رغبة بعضهم في تحطيم المناحيت تحطيمًا، كونها من أسباب النحس وجلب الخراب، وارتدى **حرب** الساعة ولم تفارق معصمه، وظلّت سببًا لمناكفات لا تنتهي بينه وبين الشيخ مأمون، إذ اعتبرها الأخير مبطلة لوضوئه تمامًا كالذي يتوضّأ مرتديًا قفازًا من الصوف والوبر.

أعطى **الميجور** السيارة **للشريف المرتاض** فقبلها بسعادة غامرة، وركبها بعدما لقّنه الميجور شيئًا حول تشغيلها. قادها وعدّها رأس ماله ومهنته. انقلبت به عدة مرات وانغرست في سفيف الرمال مئات، لكنه أصرّ على ركوبها وقيادتها حتى أورثها ابنه المرتاض وصارت وسيلة انتقالهم بين الدومة وخارجها، ثم جاءت طائرة مروحية عظيمة حطّت في أرض منبسطة ونزل الميجور وبقية عساكره من التبّة فأقلّتهم وطارت وأثارت تحتها عاصفة ترابية سرعان ما سكنت. ذهب الميجور وعساكره الإنجليز ولم يُروا في وادي الدوم مرة أخرى.

وسرعان ما عثر الدوايمة على وسيلة انتقال أخرى حين بدأت سيارات "الزلّ" العسكرية تمرّ ثلاث مرات كل شهر، تحمل تعيين الجنود على نقاط

t.me/qurssan

الحدود. يخرج واحدهم عبر المدقّ الجبلي مارًّا بالنواصب الصخرية إلى طريق القوافل القديم انتظارًا للسيارة التي اعتاد سائقوها من العساكر وصفّ الضُباط انتظارهم وتقبُّل عطاياهم من فاكهة الجامع الطازجة والخبز الشمسي والمنين وحليب الإبل.

وحَدَثَ أن حادَت سيارة "الزل" عن طريقها في أحد أيام "كياك"، وانعطفتْ إلى المدق الجبلي الذي يصل الدومة بطريق السفر تحمل عدّادين جاءوا يحصون بيوت الدومة وساكنيها ويبلغونهم أنهم صاروا تابعين لمحافظة "الوادي الجديد"، بعدما كانوا تابعين لمحافظة "الصحراء الجنوبية"، ويبلغونهم كذلك أن دنياهم ستتغيّر وستصير عمارًا كعمار موط وأسيوط وبلاط والقلمون، بعد أن تبدأ هيئة تعمير الصحراء نشاطها. أحصوهم وجاءوا بآلات تقيس المساحات المزروعة والأراضي الرملية واتجاه سريان الماء تحت الأرض. لم تكن العين آنذاك دفّاقة فياضة، إنما كانت في موسم انحسار لا يتجاوز منسوبها في قاع الموردة ذراعًا، ولم يخبرهم **المأمون** أن للعين مواسم فيض تنساب فيها إلى القناية وتملأ البحيرة وتسقي الزراعات حتى لا تصيبها عين الحسد. وسيعلم تاليًا أنه خيرًا فعل، وإلا فرضت عليهم الحكومة ضرائب مياه، وجلبت آخرين غرباء يعملون في "بريمات" الجاز وأسكنتهم أرضهم.

جاءت تريلات كبيرة بعجلات عملاقة ومقطورات أكبر من سيارات

t.me/qurssan

"الزل" التي يقودها العساكر، وسيارة الشريف المرتاض الإنجليزية، تحمل عمّالًا دخلاويين وأسايطة، وبريمات وطوايل حديدية وأوناشًا ومهندسين يرتدون كابات معدنية كالخوذات التي يخفيها سيدي حرب في مشيل المسجد، قافلة كبيرة بعثتها "هيئة تعمير الصحاري" لتحفر آبارًا جديدة وتزرع المساحات الصفراء.

وعاد **جابر الوكيل** من سفره الطويل ومعه ابنه **بيومي** بعد أن صار شابًّا يرتدي قفطانًا وعمامة حمراء يصطحبان عددًا من السواحلية البورسعادوة والسوايسة المهجرين من مدن العدوان، وأقاموا بيوتًا بامتداد ضرب السنيورة وضرب "المقام"، وسميت بيوتهم "ضرب السوايسة". وفي إحدى جلسات السقيفة التي حرص جابر الوكيل وابنه على حضورها منذ رجعا إلى الدومة، قال بيومي ابن جابر الوكيل إن المحافظة الجديدة التي يتبعونها أُنشئت لكي يقول عبد الناصر للسوريين لا تخافوا، المصاروة لن يهاجروا إلى بلادكم بعد الوحدة هربًا من الزحام، عندنا أراضٍ خالية ومياه فرات وواد جديد يتسع لخلق الله أجمعين. أعجبهم كلامه وأعجبهم أن بينهم من يعرف عبد الناصر وسوريا والوحدة والوادي الجديد، ودعا جابر الوكيل لابنه أن يفتح الله عليه ويزيده علمًا ونفعًا، فقالوا: **آمين!**

جعلوه إمامًا للمسجد وأعطوه مساحة في جلستهم، فحرص أن تخرج عباراته دائمًا مزدانة بآيات قرآنية أو أحاديث تدعمها، وغالبًا ما كانت

t.me/qurssan

استشــهاداته بعيدة عن موضوع حديثهم. ثم صارت آراؤه وفتاويه بعيدة عن ذوائقهم، حتى قال له بكر الفريج ذات مرة:

- نكبّرك لأجل العمامة التي على رأسـك، لا من أجل خراريفك التي لا تنطلي علينا!

كان سنّه الصغير وزواجه بواحدة فقط أسبابًا كافية لأن يجلس خارج القوس الذي يجمعهم تحت السقيفة مثل بقية الشبان والصبية، لكن العمامة الحمراء والشــال الأبيض الذي يحزمها أكســبته وضعًا لائقًا، بل صارت العمامة هي رأس الجلســة يتطلع إليها من يتحدث ومن يستمع. حتى أنه حين طال الحديث ذات يوم وزال آخر ضوء للنهار ونهض الشيخ حرب لإيقاد تيلة القنديل، شعر **بيومي** بوطأة العمامة فوق نافوخه فخلعها ووضعها في حِجْره وأحاطها بكفيه، فاستلب رأسه الحليق أنظارهم وقد بدا ضئيلًا غريبًا منبعجًا مثل بذرة الدوم، فأفلت بكر الفريج ضحكة ســاخرة يغيظ بها أباه جابر الوكيل، فما كان من الأخير إلا أن أمسك بالعمامة وحشر بها رأس ابنه.

ثم حرّض سيدي **تخلو المأمون** ليمنعه من الجلوس بينهم حتى لا يثير غيرة عيالهم ففعل، لكنه لم يحظر عليه إمامة الصلاة، حتى تركها وحده فارًّا من تحكُّماتهم وسبابهم، فمرة ينهرونه للتطويل وأخرى للتقصير، وبعضهم يسبّه لسرعة قراءته فلا يسمح لهم بالتدبر والتأمُّل، وبعضهم لبطئه حتى يجلب

t.me/qurssan

عليهـم النعاس، وذات مرة رأى اعوجاجًا في الصف فألحّ يقول ويكرر: "**القدم في القدم يسـتوي الصف، لا تتركو للشيطان فرجة بينكم**". كرّرها مرارًا حتى زعق حرب يحثه على تكبيرة الإحرام "**يا أخي دع الشيطان يقف بيننا علّه يهتدي ويصلي**". ولم يكررها مرة أخرى في صلاة جهرية أو سرية، وحين تأخّر سيدي **تخلو** عن صلاة عصر ذات يوم وأمره سيدي **المأمون** أن يقيم الصلاة ويبدأ في الركعة الأولى إلى أن يلحق بهم **تخلو**، خشي أن يجادل أو يتباطأ فأقامها وانتهى سريعًا من ركعاتها، ثم رأى **تخلو** في بوابة الجامع يخلع مداسـه تنطق في وجهه عبارات السُـباب والتوبيـخ، فنهض سريعًا واتخـذ اتجاه القبلة وشرع يقيـم الصلاة مرة أخرى. وأخـذ جابر الوكيل يسـتعيد مكانه في مقام المهود قبل سفره بمساعدة ابنه بيومي، وأزاح أبناء **تخلو** شـيئًا فشـيئًا عن خدمة المقام إلى أن أعلن الطريقة المهودية المحمدية وأعلن نفسه خليفةً لها وجعل ابنه بيومي نقيب سجادة، وبعد مشاجرات ومشاحنات بين بيومي وبين سيد واد **تخلو** نصّب بيومي نفسه خليفة خلفاء بعد أن أصرّ سيّد أن يصبح مثله خليفةً. ولم يقف توظيف بيومي أمينًا على آثار وادي الدوم عائقًا أمام تبوء مكانته في الطريقة المهودية.

***

جـاءت هيئة التعمير بدخلاويين وأسـايطة من الصعيد وأخذت من

t.me/qurssan

سوايسة الدومة ومن أبنائها فواعل للعمل في بريمات الجاز وبئر الماء وترصيف الطريق. وسارع الكثيرون لتسجيل أسمائهم لينالوا اليومية الحكومية المعتبرة: عشرين قرشًا لليوم، ستة جنيهات للشهر، في أعمال سهلة يسيرة لا تفتح مسامات العرق أو تكلُّ الأبدان. كلّما خرج **المأمون** بحماره "الملك جورج" ومعه **تخلو** وحرب والمفلح لمتابعة أعمال الهيئة، قال:

- **عمل بلا همّة!** عشرة أنفار لعمل ثلاثة ولا ينجزون إلا اليسير.

الذين يجلسون تحت المظلات أكثر ممن يعملون خارجها. أغلق **التوجالي** كور الحدادة وأغلق أبناء الفخراني فاخورتهم وأغلق أبناء جابر الوكيل نجارة أبيهم، وأغلق آخرون مصالحهم لا يفتحونها إلا عرضًا لأعمال سريعة ليشاركوا في العمل الحكومي المضمون ويبيتوا في كامبات الهيئة. بينما وسّع سعد ابن جاد المرجوشي دكانه الذي يطل على الملقة الكبيرة وبنى إلى جواره مصطبة للشاي والمعسل كانت تفتح قبيل الغروب لساعة أو اثنتين ثم امتدت ساعات عملها، إلى أن أعلن بكر الفريج في الجميع أنه سيقطع رقبة من يراه بمصطبة المرجوشي بعد صلاة العشاء، فعليت كلمته على الرقاب. وكان دافع بكر الفريج من إخلاء المصطبة من روادها مبكرًا، أن تظل نساء ضرب السنيورة على عادتهن في التجوال ليلًا يروّحن عن أنفسهن دون تحوّط للعيون المتربّصة.

وجاءت الهيئة برجال آثار يبنون قواعد أسمنتية عالية مزدانة برقعة رخام

t.me/qurssan

"بريشيا بيضاء" لتماثيل المنزلة وأعطوها رقمًا مسلسلًا قالوا إنه سيكون رقم اعتمادها بمخازن الآثار بعد نقلها إلى "قصر" الخارجة، وطلبوا من الشيخ **المأمون** أن يزكّي لهم مَن يوظفونه على حراستها وحراسة بضعة جدران قديمة أخرى قريبة من الدومة، براتب شهري معتبر إلى أن يتم نقلها، فأشار عليهم بابنه الشيخ حرب الذي تعهّد بحمايتها للميجور زبير لقاء ساعة الأورينت، علّه يكتفي براتب الحكومة الجديد عن الساعة التي لا تفارق معصمه فيصلح وضوءه، لكن حرب رفض متأثرًا بما عاد يردّده جابر الوكيل وابنه بيومي بأن هذه المناحيت هي مردُّ النحس الذي يجلب الخراب مثلها مثل الدير وقلايات النصارى في جبل الخشب، لأنها كانت ذات يوم معبودات يسجد لها الناس ويدعون ويذبحون قرابينهم تحت أقدامها. حتى فوجئ الشيخ حرب بأن الهيئة عيّنت بيومي ابن جابر الوكيل نفسه على حراستها بخمسة جنيهات وثمانين قرشًا يقبضها من مديرية آثار المحافظة طلعة كل شهر إفرنجي.

ولم يشاهد بيومي يومًا قائمًا بمهمة حراستها أو مارًّا إلى جوارها، ولم تُنقل إلى مخازن الحكومة. بينما حرص بيومي على السفر في سيارة المرتاض الشريف ليتلقى راتبه بانتظام لا يمنعه عارض أو مرض.

***

t.me/qurssan

نصَب رجال الهيئة طوايل الحديد والبريمة في الجهة البحرية من الجروف وجاءوا بأنابيب مفرّغة ودقّاق وملوينة وبدءوا الحفر. كان دولاب حفر الهيئة لا يشبه الدواليب التي عرفها الدوايمة، الدواليب القديمة بأربعة قوائم خشبية تثبّتُ كالهرم فوق نقطة الحفر وبكّارة يتدلى منها طوايل خشبية من جذوع السنط يتشارك أصحاب البئر في تكاليفها، ويشارك كل منهم بأميلات معلومة من ملكيته فيقسّمون البئر إلى أربع وعشرين أميلة زمنية كل أميلة تساوي عمل رجل يوميًّا منذ بداية الحفر حتى نهايته.

ولم يشبه دولابُ الهيئة الدولابَ الذي صنعه **شروفة** الفريج ليحفر بئر "صبّارة" وحده دون شريك أو مساعد، كلُّ من رآه في تلك الأيام قال: "***شروفة*** *يحفر مقبرته*"، إذ كان يحفر بئرًا فوهاء دون أن يبطّن جدرانها بالخشب أو بالحجارة كي لا ينهال عليه ترابها في غمضة عين يردمه في أسفلها، حتى أن عمّه بكر الفريج ترك مراحه وأقام على فوّهة الحفرة حزينًا متعوسًا يتوسّل إليه أن يخرج، فيجيبه إما أن تكون قبري أو نبع مياه يتفجر. ويغادره الفريج وقد أيقن أن مصابه في فقدان **الشاهين** سيتجدد بفقدان **شروفة**.

ينزل **شروفة** البئر قبل إطلالة النهار الأولى بجارورة مياه وكسر خبز وقطعة جبن ويخرج متهدّمًا كأنقاض بناء قديم. سنتان لم يغب يوما عن عمله الدؤوب إلى أن شوهد يجلس على شفر البئر في منتصف النهار.

t.me/qurssan

ظنّه الذين رأوه أنه قد يئس وكفّ عما يفعل، وحين مرّ به بعضهم ونظروا إلى قاع البئر لم يشاهدوا غير الظلام الحالك وأعشاش الحمام التي سكنت الجدران في سلام، ولم يبدِ أيهم دهشة فالحمام وحده يطير عموديًّا مثل دخان يتصاعد. قالوا:

- **ما ربحت غير وجع القلب والبدن!**

فأدلى **شروفة** "سجاية" فخارية بحبل من الليف وأخرجها ممتلئة بالماء الزُلال.

أمّا بئر الهيئة فحفروه في ثلاثة أسابيع، ثلاثة أسابيع لا تزيد باعًا ولا ذراعًا. لكن مياهه جاءت ذات ملوحة لا تخفى على اللسان، قيل إنها تخرج من نفس الحوض الأرضي الذي تخرج منه مياه البئر الحامضة. اندفعت مياهها لتتجمع في موردة أسمنتية ذات هدار ضيّق يحدّ من اندفاعها لتصب في "فكوك" الحقول. اندفعت مياه البئر واندفعت الهيئة خارج الزمام. خرجت بين نهار وليلة مثل هبوة ريح لا أصل لها، بعد أن أرسلوا إلى العاصمة تقاريرهم عن ترصيف الطريق وحفر الآبار وزراعة الحبوب وتعبئة جيوب الناس بالجنيهات الورقية. انسحبتْ فجأة بعد أول حصدة للقمح والذرة، دون أن تغرس فسيلة نخيل واحدة تضطرها إلى انتظار طرحها بعد سنوات، وقبل انسحابها تركت آلاتها وعداتها بأيدي الذين عملوا في مشاريعها، مزدان التوجالي والفخراني وأبناء السنوسي والمرجوشي وبيومي

t.me/qurssan

الوكيل، بمحاضر استلام رسميّة تحمل أسماءهم وبصمات إبهامهم، البِلط والمناشـير والمناجل والكواريك وأفارولات زيتية وكابات تقي الرؤوس الشـمس والحرارة، وعيّنت بعضًا منهـم أمثال الشريف المرتاض وناجح طنبور وبعض السوايسة في محليات ومجالس القلمون وموط والشيخ غريب بوظائف ذات رواتب شهرية لا صفة لها، وانتقل بعضهم إلى هناك وتركوا الدومة وتركوا عيالها يحلمون باللحاق بهم، وعادت الدومة إلى سيرتها عدا أن صار السوس ينخر في أشجار الفاكهة التي لم تعرف آفات الزرع من قبل، وعـدا أن صارت الدراجات تمرح في ضروبها وراديوهات الترانزيسـتور تصـدح خلف جدرانها. وفتـح **المأمون** "دفتر الصايـر" ليدوّن في إحدى صفحاته القليلة الفارغة:

"جـاء ناس الهيئة وجلبـوا معهم أغراب لا يعرفـون عن البراري غير ما نعرفه عن البحر والسفين".

وحاولت الهيئة قبل انسحابها توطين بدو "سليمة" في بعض الواحات الجنوبية فحفرت لهم آبارًا وأقامت بيوتًا، لكنّهم سرعان ما هجروها بجمالهم التي قيل إنها عانت من حشرة "الجفرة" التي تستوطن النخيل فقتلت كثيرًا منهـا، بينما قال آخرون إنهم ما كانوا ليتركـوا صحراءهم المديدة إلى حياة التوطّن والزرع والقلع.

***

t.me/qurssan

لم تعـد الدومة بعد رحيل الهيئة إلى مـا كانت عليه قبل مجيئها، دخلتها مصابيح الغاز ومواتير الرفع التي تعمل بالمازوت وأجهزة ترانزيستور تستقبل بعضًا من إذاعة القرآن وصوت العرب، ومصداح معدني كبير فوق مئذنة المسجد يعمل ببطارية السيارات ينداح عبر أسلاكه أذان الفجر عاليًا متماوجًا تلتقطه آذان النائمين واضحًا بصوت سيدي عبد الله السنوسي أو مكتومًا مختنقًا يخرج من بين الصخور كمياه العين بصوت سيدي حرب، ذلك أن الأخير اعتاد أن يـؤذّن للفجر من تحت غطائه ودون أن ينهض من نومته أو يتوضّأ في الشتاءات والليالي الباردة، وحين يعاتبه أحدهم يقول:

- **لكم الصوت تسمعونه، ما لكم الصورة.**

لا يكاد ينتهي من عبارة التوحيد حتى يمضي المصلون إلى باحة المسجد، أكثرهم شوّاب اعتادوا الاستيقاظ قبل الأذان والسير وئيدًا إلى صلاة الجماعة أو الانتظار حتى موعد الإقامة، وحين دوّت الدانةُ واشـتعلتْ السـقيفة وسقطت مآذن الجامع الأربع لم يكن هناك من غير الأشياخ سوى **الطيب والمدين**. الطيب يمضي خلف الشـيخين **تخلو** والمأمون جنبًا إلى جنب مع "الملك جورج" كي يؤنس كل منهما الآخر حتى بوابة المسجد. فيما يقصد المدين ركعتي الصبح كي يمضي إلى المواكر البعيدة لاصطياد ضباعها.

الذين لا زالوا يحرصون على الخروج للفلاحة في مرابع القصب والحبوب صاروا قليلين. جاءت الهيئة وجلبت معها أحلام السفر إلى عمار الصعيد

t.me/qurssan

والفيوم ومصر والإسكندرية، وذهبت الهيئة ولم تذهب أحلام العيال الذين رأوا رجالها وعملوا بمشاريعها، سنوات طويلة حلموا فيها بالسفر إلى مدن البيوت العالية والطرق المستوية والشمس اللينة والقطارات الهادرة، والبحر ذي الزرقة المتسعة، أو على الأقل إلى "دومة" أخرى في الصحراء المديدة لا تتلاصق منازلها تحت سقف واحد، فترجها بازوكة مدفع أو قذيفة بارود، تؤمُّها الحافلات ويعرفها الناس وتشـيرُ إليها نقطة ضئيلة في خريطة على حائـط أحدهم تقول هنا يعيش ناس، هنـا واحة لا تتعثر في أديمها أقدام الغزاة والمحتلـين والمهربين وقطاع الطـرق والعابرين على طريق الحرب فيتخذ أهلوها مسـالك شـتى للنجاة، ويطلق أحدهم الضباع الجائعة في مضاربها الضيّقة لتدفع عنها الشر المستطير.

***

t.me/qurssan

t.me/qurssan

23

مو دايم في الدنيا والي
يوم فراق ويوم غوالي

بينما كان **الخواجة أرنولد والمرتاض الشريف** يتحدران من قلاية الجبل، يتحسّسان مواضع أقدامهما بين الصخور في طريقهما إلى سيارة الفورد، كان المدين والشيخ **تخلو** يتحسّسان خطواتهما ويتمسحان في جذوع الشجر وجدران الدور في طريقهما إلى شونة الطحين لتطبيب بكر الفريج. قال المدين إنه سقط من "روشنة" السقف فانكسر عظمه. ذهب الطيب ليجلب "المدواة" والأربطة وشراب الكركم والصفصاف الذي سيستخدمه سيده **تخلو** في علاجه، ورغم اضطرار الطيّب إلى الالتفاف حول الملقة والتسلُّل من ضرب إلى ضرب ومن مسرب إلى آخر ليعود إلى شونة الطحين، لكنه

t.me/qurssan

سبق المدين وسيدي **تخلو** إلى الشونة، فألفى بكر الفريج مستلقيًا فوق أجولة الطحين البيضاء وحوله ثلّةٌ من أبناء الدومة مسلحين بالبنادق.

مـا إن ترك **بكر الفريج والمدينُ** أشـياخَ الدومة تحت المظلّة الصخرية، وتسلّلا إلى شونة الطحين، حتى أرسل الفريجُ المدينَ ليجلب إخوانَه الذين مرّسـهم معه على ضرب البارود كما فعل قبل سنين وعلّم آباءهم لمقاومة الإنجليز وغارات البرابرة، عاد إلى شـونة الطحين، يخلع قوالب الطوب الجيري عن أحد جدرانها، لينزع علب ذخيرة ملفوفة بالأقمشـة والجلود كانت تختبئ في فجوة واسعة بداخلها. وجلب المدين البنادق فبدتْ جديدة لامعـة كأنها ما كفّتْ يومًا عن الضرب، ذخّرها الفريج وأعطى كُلًّا منهم واحدة وأشار عليه بموقع مناسب يرى منه المنحدر الذي يجب أن يسلكه الغازون للمرور إلى ضروبهم، بينما صعد هو سطح الشونة.

أطلق أعيرة خَفُتَ على إثرها دوي القصف، لكنّ قدماه زلقتا في "روشنة" السقف التي يتسلل منها الهواء والشمس فسقط داخلها، صاح "يا شرف الدين!" لكن **شروفة** لم يجبه، كان مات، أكلته الضباع. كان يقصدُ المدينَ، وكثيرًا ما فعل، يصيح باسـم **شروفة** بينما يتحدّث إلى المدين حين يحاصره الحنين ويغلِبه الحزن.

جاء **تخلو** وتطلع في وجوه من يحملون البنادق، فتبين بينهم وجه أحد أنساله يحاول التستّر خلف كتف من يجاوره، وكان من يجاوره حفيد الشيخ

t.me/qurssan

عبد رب النبي، تصنّعَ الجهل وتغافل عنه بقدم الفريج المكسـورة، وبادر يقول:

- **زندك لا يشيل عودي برسيم يالفريج، وتضرِب البارود؟**

نزع عن زجاجة صغيرة سـائل الصمغ الذي جمعه من أشجار السنط ودهن به قدمه المكسورة وكساها بنتف من الصوف وشعر المعيز، فانتزعها الفريج متأوهًا يقول:

- **يمين بالله ما تجبرها!**

- **نجبرها أو تتعفّن ونقطعها غصبًا عنك...**

- **تقطعوها ولا أتعذّب بالهرشة كما صار.**

وذَكّـره الفريج بيوم وضع له جبيرة ليده اليسرى حين انكسرت وهم يحاولون رفع فناطيس المياه على حوامل الخشـب، فضحك **تخلو** ضحكته المتخابثة، وتذكّر صرخات بكر الفريج التي كانت تتعالى كل ليلة من مراح جمالـه يلعن الجبيرة ويلعن مَن وضعها، يريد أن يحكّ جلده تحتها متحرّقًا مثل ناموسـة وقعت في وجاء حطب مشتعل، يقسم لمن يراه أن **تخلو** ربط الجبيرة فوق نملة تسرح في شـعر ذراعه، بينما يقسـم **تخلو** "**أنك يا الفريج أجرب.. تحت جلدك جراد الكلاب**".

يومها أمسك الفريج بـ"**قادوم**" صغير ونزل به على الجبيرة فكسرها قبل

t.me/qurssan

التئـام عظامه. وحين أصرّ الفريج ألا يربطوا لـه جبيرة جديدة تحول بينه وبين حكّ جلده، طلب **تخلو** أن يأتوا له بلوفة نخيل ومَحَمّة زيتون ودعك له قدمه المتورّمة قبل تجبيرها، وأعاد دهنها بصمغ السنط وبطّنها بالصوف والشعر وأحاطها بقطع صغيرة من الجريد ولفّها بخرق من النسيج المُنشّى، وأمر الطيب والمدين أن يحملاه فوق مقعد ويجلباه إلى المظلة الصخرية قبل أن تنهدم قبة الشونة فوق رأسه، فعادوا مرة أخرى إلى هناك.

وهناك اقترح الشـيخ السنوسي أن يخرج أشياخ الدومة إلى المجاهدين بالراية الخضراء التي يحملها التوجالي فيعرضون عليهم قراريط أرض يقيمون بها ومعايش يقتاتون عليها حتى يرحلوا، كما فعل سـيدي **الشـاهين** حين سمح للإخوان السنوسيين بالبقاء، فقال الشيخ حرب:

- السنوسية كانوا يحاربون الإنجليز والطليان، هؤلاء المعارير يحاربون مَن؟

وأكّد **المأمون** أن **الشـاهين** ما كان ليعطيهم مسـطاحًا للبهائم يأويهم، وعاد يحكي كيف ذهب إلى قادة الإنجليز وأمرهم أن يسحبوا رجالهم من "الدومة" حين احتلوها أو يجعل نهارهم أسود كسُخام الكانون. لكن أحدًا من الدوايمة لا يذكر أن خرج **الشاهين** يومًا محاربًا فوق مطيّة. **المأمون** وحده -بقصـد أو بغـيره- ذرع في الرؤوس هذه الذكرى بعدما نبتت في رأسـه

t.me/qurssan

وأثمرت، فصاروا يتذكرونه عملاقًا بجسد مدرّع لا يصيبه الأذى، يداه كحجري المرانة يطحنان ما يسقطُ بينهما وصرخته رعد السماء وغضبها. **الشاهين** الذي يذكره الشيخ مفلح وسعد المرجوشي وتخلو وبكر الفريج كان لسانه حلوًا وكلامه يدخل الرأس ويقعد ويقر، كان يقول نحن أبناء المَيّ والخضار لا أبناء البارود وحصد الأرواح. لو كان **الشاهين** حيًّا لكان تفاهم مع كبيرهم كرجل حرٍّ لا يخشى، ولأخذه تحت إبطه كصديق يستنصح صديقًا. **الشاهين** كانت له هيبة، يده بلا سيف وجنبه بلا غمد لا يمتطِي فرسًا لسفر ولا يركب جملًا لمسيرة تقل عن يوم، وحين يسأله أحدهم لماذا لا تركب مطيتك يقول:

- **وماذا تقول نسائي، ذهبت عافيته فركب مطية؟**

علّم الناس الصبر بصبره والجَلد بجلده. حين تسمّم طعامُه صام أربعة أيام في رحلة إلى الفرفرون ليجلب ترياقًا لداء أصاب الدواب حتى نَزّ جسده الماء والدمَ لكنه لم يذبح من إبِلِه كي لا يُقال ذبح **الشاهين** حلاله من الجوع، **الشاهين** لم يخاطب الدراويش السودانية وهم مدجّجون بالسيوف والرماح والبارود وقال لهم بفم ملئان بالعظمة وهامة عالية لا تنحني:

- **أكلم كبيركم!**

الشاهين لم يطأطئ للإنجليز حين حاصروا الدومة وقال لهم بملء فمه: **أكلم كبيركم!** يوم أخذوه إلى الخواجة الكبير يتحدثان نظيرًا لنظير

t.me/qurssan

ورئيسًا لرئيس، وحين جاء السنوسيون احتال عليهم حتى أخرجهم كما جاءوا. **الشاهين** بَصَرَ الموت ولم يتخوفه، يقول:

- أخذتُ من دنيا الله ملء الكفوف فعلام أخاف؟

- تخاف على ما أعطاك!

- لـه ما أعطى وله ما أخذ. نشتهي كلَّ بعيد حتى تطاله اليد. عندي الأرض والماء والنساء وعندي الذرية والعافية، لا أريد غير السلام.

***

أطال **المأمون** النظر إلى السقيفة المشتعلة ومآذن المسجد المنهارة، نظرة ساهمة غير عابئة، يقول:

- هذه المرة نبنيها بالحديد والزلط ونعمل قبّة كبيرة وهلالًا نحاسيًّا.

عبد رب النبي:

- يعملها أولاد سعد، ويعمل التوجالي هلال النحاس.

التوجالي:

- أنا ما أعمل بالنحاس يا شيخ عبد ربه، النحاس يعمله السويسي.

حرب:

t.me/qurssan

- والله ما نبني أربع مـآذن.. مئذنة واحدة عالية نرفع عليها المصداح، ليسمع الناس آذان ربنا.

بكر الفريج:

- رأيتـم! وقعت برجاية الحمام.. الحين جود امـرأة ولدك عتيق تلطم يا تخلو!

التفـت **تخلو** يتحـدث إلى عوض الفخراني الـذي كان ما زال مأخوذًا مرتعبًا منذ انضم إليهم مع مزدان التوجالي:

- دائمـًا تبيض في حجـرك يا واد يا عوض، تنكسر الفواخير فتضمن شغلك.. والله الفخرانية يكسبون يا إخوانّا

عبد رب النبي:

- لا تضعوا جريدًا في عريشة السقيفة، كأنه يبخ النار.

حرب:

- لا، نضع خشبًا أبيض ونعزله بالدهان. الخشب الأبيض معتبر.

عبد رب النبي:

- الخشـب الأبيض يجلبه أولاد إبراهيم ظوراتة.. أبالسة يجلبونه بثمن الترابة، عملوا لي خشبة النعش بعشرة جنيهات.

t.me/qurssan

قال عبد رب النبي عبارته مغتبِطا مفاخرًا وانتظر حتى يضيف أحدهم كلمةً فيعطي له متسعًا ليحكي كيف سُوّيتْ مشكلة تشييعه إلى مدفنه بعد عمر قصير، حيث أخذ بنصيحة **تخلو** فأوكل لأولاد إبراهيم الجريجي الذين تمرّدوا على مهنة أبيهم حلّاق الدومة وأقاموا "مستودعًا" للخشب، أوكل إليهم صناعة نعش خشبي كبير ذي نتوءات بارزة يقبض عليها المشيعون ويتسع لجسده الثقيل. لكن ما قاله مرّ على مسامعهم دون أن يثير اهتمام أحدهم. فعاد يسأل أقرب الواقفين إلى جواره:

- لِمَ لا تصدقني يا شيخ تخلو، يمين بالله عملوا نعشي بعشرة جنيهات.

ولم يرد الشيخ **تخلو**، بل أخذ يتفرّس الراية التي ما زال يقبض على يدها مزدانُ التوجالي، كأنه يقبض على مجداف قارب يكابد الموج، ثم قال بجدية من اكتشف أمرًا جللًا:

- هذي راية التشادوة يا شيخ مأمون.. كأنها هي؟

- تلك كانت ثلاثة ألوان ولا يكتبون فوقها الله. هذي ما لها لون!

- التشادوة مسلمون يا مأمون، كيف تقول لا يعرفون الله؟

- أنا قلت لا يعرفون الله يا بهيمة الأنعام؟ أنا أقول رايتهم ملونة لا يكتبون عليها الله.

t.me/qurssan

ولم يكن التشادوة الذين يقصدهم الشيخ **تخلو** سوى كتيبة عسكرية ضربت الدومة قبل ثلاث سنوات بطريق الخطأ، كتيبة جيش تشادية تعطّلت أجهزة التوجيه التي يحملها عساكرها فاسترشدوا بأدلاء جاءوا بهم إلى الدومة. كانت الكتيبة يقودها رجل طيب يدعونه "حسن جاموس" أرسله قائد حكومته لتدمير قاعدة طيران حربية في وادي الدوم، وادي دوم آخر غير هذا الوادي الطيب، هناك بعيد في الشطر الليبي. أنشأ فيه القذافي قاعدة طيران كبيرة ليشن منها غاراته على أراضي تشاد التي تسيطر عليها حكومة يكرهها ويناصر أعداءها. كانت الكتيبة التي يقودها "حسن جاموس" هذا، تمضي عبر الوديان والجبال مقسـمّة إلى فصائل صغيرة متناثرة حتى لا ترصدها أجهزة استطلاع القذافي. تسير بتوجيهات الأمريكان والفرنساوية، لكن أعطالًا أصابتْ أجهزة الاتصال وأعطبتها فضلّ جزء من أفراد الكتيبة بين الجبال حتى عثروا على دليل سوداني من أدلاء الصحراء أتى بهم إلى الدومة ليطلقوا دانات وقذائف مدافع خفيفة تقنصُ بعض الآدميين والدواب. ثم اكتشف "جاموس" خطأ ما فعلوا فعادوا أدراجهم إلى الغرب تطاردهم لعنات من فقدوا أقارب وأحباء وبهائم. يقولون إنه لولا وساطة الأمريكان والفرنسيين لأرسل "حسني مبارك" خلفهم طائرات الجيش تقطع دابرهم، لكنه كان جديدًا في مركزه لم يملأه بعد. تركهم بعد أن عرفوا خطأهم وتركوا للدوايمة سفاتج ورزمًا من الفرنكات الفرنسية. كانت رايتهم ملونة ما بين أصفر وأزرق ولون آخر لا أحد يتذكره، **المأمون** يقول إنه كان لونًا أحمر أو

t.me/qurssan

برتقاليًّا. كانت الرايات مُثبتة فوق مقدمات سياراتهم العالية لا يحملونها في أيديهم، ولم يرها من الدوايمة إلا قليلون.

أما الراية التي يحملها **مزدان التوجالي** فذات لون واحد قاتم أكلته الشمس، قال **تخلو** حين احتدم النقاش حولها:

- **يا إخواننا.. أحلف لكم أني رأيت هذه الراية من قبل!**

فأجاب مزدان التوجالي:

- **البربر.. هذي راية البربر!**

قال الفريج:

- **لا.. أنا أعرف رايات البربر، لا تشبه واحدة منها. تذكرون راية الطليان؟**

- **كانت تقبض الروح، كأنه الشيطان خاطها.**

تفحّص **المأمون** راية التوجالي مرة أخرى وتحسّس ملمسها محاولًا أن يتبين لونها الباهت، يقول بنبرة متردّدة غير واثقة:

- **الإنجليز كانت رايتهم مثلها.**

وضع **تخلو** كفّه فوق صدره ليهدئ قفزاته بين ضلوعه من أثر الضحك. يسأله أية واشجة بين راية الإنجليز التي تملؤها الصلبان وهذي الراية التي تحمل اسم الله أكبر. ليجيبه **المأمون** متأثرًا:

t.me/qurssan

- أنا أسأل يا صالح. أسأل!

هدأت ضحكات **تخلو** حتى تلاشت، ذابت قشرتها وبدا تحتها وجه يصطبغ بالهلع وأمارات الحزن، ترقرقت عيناه بدموع جافة ساخنة مسحها بطرف كمّه، نهض يتساند على عكازته الخيزران كأنه يقف بنصف قامته، كبُر فجأة وبانت كهولته المتهدمة. خطا إلى **المأمون** متجاوزًا المفلح والفريج وحرب وجابر الوكيل، جلس تحت قدمي **المأمون**. تطلّع إلى عينيه، كانتا زائغتين غير واثقتين تبحثان عن هُدًى في الوجوه المحيطة، بدا **المأمون** كالمستيقظ من حلم طويل لا يعي ما حوله. قال **تخلو** بصوت مختنق:

- عليك سلام الله يا مأمون، مالك يا غالي؟

- أنا عال الحمد لله.

- أنا حبيبك تخلو، أخوك صالح مات منذ سنين، نسيتني وتذكرته؟

- لا ما نسيتك، أنت تخلو زوج توتة أم السيّد وحافظ ونعمان، ما نسيتك والله. أين أبناء ولدي حرب؟

علا نشيج **تخلو**، جلس تحت قدمي **المأمون** يدفس وجهه بين كفيه، ربّت الأخير فوق ظهره، يقول:

- سأموت قبل أن تمتلئ جرتي بالحصى يا تخلو؟

- تسبقنا جميعًا إلى الفردوس لتفتح لنا يا سيدي.

t.me/qurssan

بسطتْ غيمةٌ حزينة أطرافها فوق سمائهم، واغرورقت مآقيهم بالدموع لفراقٍ وشيك، هكذا يفارق الشيخُ الدومة دائمًا، ينكُص إلى الوراء حتى يغيب عن حاله، ثم لا تألفُ روحُه الشتات بين الأزمنة والتيه في وجوه الناس، فتنسحب إلى السماء راضية مرضيّة. يظل الموتُ حاضرًا في أحاديثهم وأفعالهم كأنه يحيا بينهم ويؤنس ساعاتهم، يعدُّ كل منهم نفسه للقائه كمن ينتظر ضيفًا على عتبة الباب، يطرقع كفيه منبّهًا أصحاب الدار. كلٌّ منهم ينتظره لروحه لا لروح عشيره، وحين يأتي أحدهم يباغتهم جميعًا، فتموت قطعةٌ من أجسادهم وأرواحهم.

***

تباعدت زخّاتُ الخراطيش التي ظلّت تنطلق من طرمات البيوت البعيدة باتجاه "المنزلة" لتمنع اقتحامها، فقال **الفريج** إن في الأمور أمور، الخراطيش نضبت في بنادق العيال أو قنصتهم رشاشات المجاهدين، ورجّح أن يدخلوا سريعًا ليقطعوا رقاب الجميع، وحين رجّح جابر الوكيل أن يسارع الجيش لنجدتهم حين يصل خبرُ الغارة إلى مسامع الحكومة، قال الفريج إنهم سيحظرون الخروج ويحبسون الناس ولن يعلمَ أحدٌ بما صار للدومة، فيما خشي بكر الفريج أن تعلم الحكومة بأمرهم فتخلط الآمِرَ بالمأمور والعاطل بالباطل وتضرب الجميع في نفسٍ واحد، لكن **المأمون** رأى أن يبعث الطمأنينة في نفوسهم قال بنبرة ثقة زائفة:

t.me/qurssan

- لعلّهم، كما يقول التوجالي، يقصدون خيرًا ويرحلون.

صار صوت البارود مكتومًا، كأنها تضرب من براميل مغلقة، بل بدا أن هناك مَن توقّف عن الضرب فصارت الطلقات تخرج من ثلاثة مواضع فقط، أحدها من ضرب السنيورة، والثاني من السوايسة والثالث من شونة الطحين. رجّح **المدين** أن بقية إخوانه يعانون ما يعانيه، حين يحرّك الزنادَ ليضغط بدوره إبرة الصاعق ليشعل بارود الرصاصة فيُطلقها، لا يشتعل البارود بالقدر الذي يصنع انفجارًا كافيًا لإطلاق الرصاصة إلى وجهتها المقصودة، أفسدته الرطوبة وطول الانتظار، فصارت الفوارغ تتطاير معبّأة ببارودها غير المشتعل، بينما تنحشر الرصاصة في ماسورة البندقية أو تسقط عند مسافة قريبة من الفوارغ.

جمع إخوانه وقصدوا سيدي بكر الفريج دون أن يُخفوا الأسلحة عن عيون آبائهم وأسيادهم كما اعتادوا، كأنّها ما عادت سرًّا بعد أن فقدت أثرها. تسلّلوا من الدور التي اعتلوا أسطحها واتخذوا مسرب عين "باجة". لم تبدُ الدومة تحت الضوء المنبعث كومةً مترمّدة ببقايا الأطلال والجثث مثلما بدت في العيون تحت الظلام. وقعت المآذنُ واحترقت سقائف وتهدّمت بِيَعٌ وجدران، وما زالت عواميد دخان تتلوى مع الهواء، لكن الشجر ما زال يانعًا أخضر ينبضُ بالحياة ويتنفّس، والحقول المزروعة تنتح الزلال والخير، وحمام البرجاية عاد إلى أجرعته يحمل "الهاش" في مناسره، وطيور السمان والشحيم وقطعان الضأن على حافة البحيرة ترتوي من ظمأ الليل.

t.me/qurssan

لم يكن من سبيل أمام **المدين** كي يجتاز المساحة الخالية ويتسلّل إلى المسطاح ليطلق الضواري المكبولة، منعته الأعـيرة النارية المتربّصةُ التي تنهال من حين إلى آخر وقطعت عليه الطريق. اتجه بإخوانه إلى الجروف، استقبلتهم أعين الشيوخ بتساؤلات حائرة، ليس من بينها سؤالهم حول البنادق التي يحملون، كيف عثروا عليها وكيف يضربونها، بل كان السؤال لِـمَ أوقفْتم الضرب؟ **المأمون** وحرب وتخلو وعبد رب النبي، المفلح وبيومي الوكيل والسنوسي، ابن المرجوشي وطنبور والجريجي. سمعوا صوت المقاومة في أزيز رصاصهم، في تدفّقـه ردٌّ للأذى وصدٌّ للعدوان، وإرجاء للمواجهة حتى يمر طيرٌ أبابيل يدفع عنهم البلايا، أو تجيء "حكومة" بعساكر ودبابات ترد المعتدين.

هذه المرة لربما يصادرون راديوهات الترانزيستور التي تلتقط إذاعتين أو ثلاثًا لا أكثر. ولابد سيُحرّمون الغابة والمعسّل والشاي الأسود وسجائر البلومونت، سينصحون -في البداية- من يتناولها بالحكمة والموعظة الحسنة وسـينذرونه إن عاود المعصية، ثم سيجعلونه عبرة للناس إن أصرّ عليها. ولربما أطاروا رأس عوض الفخراني إن ضبطوه يلوك "المُضغة" التي أعطبت لثته ونخرت أسنانه.

يقول الشيخ حرب إن هؤلاء الناس حياتهم يابسة مثل أعواد الحطب، وهم يصعّبونها على أنفسهم بكيفهم، يلعبون في المضمون حتى ينالوا المكافأة الكبرى، مكافأة الآخرة، النعيم المقيم والحور العين والملذات الأبدية. هذي

t.me/qurssan

الدنيا قصيرة وحياةُ الآخرة أبقى، والله لا يعطي من حرّم على نفســه متع الدنيا كمن عاشــها طولًا وعرضًا، هــذا شيء بالعقل، ولا يغضب أحدًا. يناصر مزدان التوجالي رأي الشيخ حرب ويضيف:

– الواحد منا يتعشّى من ثلاثة صحون ويناكح مرة ومرتين، ويرقد في فراشٍ تدفئُه امرأةٌ ممتلئة. لكن هؤلاء يأكلون التراب، أيامهم صيام ولياليهم قيام، ويسعون لوجه الله يرتدون أكفانهم من أجل الجنة.

لكن حرب سرعان ما يضيف، وقد ظنّ أنه قد صار ومزدان التوجالي في دفة واحدة:

– ويأخذوننا في أقدامهم شيء لا يرضي ربَّنا أيضًا يا توجالي.

يقول بكر الفريج بأسى بالغ:

– هــؤلاء دراويــش معاتيه، ينتحــرون زُهــدًا في الحياة، ويســعون في خرابها.

– نواياهم طيبة يا سيدي، والأعمال بالنيات.

– يا توجالي، أريدك تسمع الكلام، الأبالسة يرون نواياهم طيبة، تفتح مخّك وتفهم، أنت ما عدتَ صغيرًا ينضحك عليه براية وتكبيرة.

يســارع عوض الفخراني يُدلي برأيه متأثرًا بما بدا حديثًا عميقًا يشــارك به صاحبه التوجالي بدونه:

t.me/qurssan

- أي والله يا شيخ، ما يحقُّ لهم يسيروننا كالبهائم!

- انـت بالـذات يحق لهم يسـدّون دُبرك يا فخـراني، لتكفّ عن مضغ القطران هذا..

- والله سأتركه وأحرق زرعته، وأزرع القراريط زيتون وموالح.

قال عبد رب النبي:

- أنا سمعتُ الضباع تزمجر يا إخوانّنا!

ثم تلفّت يمينًا ويسارًا فلم يجد مَن يسمعه فكرّر عبارته التي لم تسترع انتباه أحدهم فصاح في وجه **تخلو**، قال:

- لماذا لا تصدقني يا شيخ تخلو، يمين بالله سمعت الضباع تزمجر! قال **تخلو:**

- يا أخي قلتُ لك أنا ابن كلب لا أصدق أحدًا.

لكن المفلح سريعًا ما يتلقّف سـؤاله ليجيب: **أنا سـمعت يا عبد ربه، الضباع فكّت المغالق.**

الفريج:

- لا ما فكّت المغالق، أطلقها المدين تخوّفهم.

المأمون:

t.me/qurssan

- معهم مدافع رشاشة وسيارات تايّوتا!

الفريج:

- عليّ الحرام هؤلاء يخافون كالفئران.

التوجالي:

- المجاهـدون ليسـوا فئرانًا يا شـيخ بكر، تراهم يعـودون ويقطعون رقابنا.

الفريج:

- فئـران وأولاد كلـب يا ابن الصرمة، ولا يعرفـون عن الجهاد إلا ما تعرف..

أشار جابر الوكيل ناحية المسرب حيث يتسلّل المدين وبقية مَن يحملون البنادق ناحية الجروف، يقول:

- المدين ما أطلق الضباع، هو قادم من بحري الملقة..

فتسـاءل الفريج مدهوشًا، عمن فتح مغالق المحابس وأطلق الضباع، لكن أحدًا لم يُجب. سـادت برهة صمـت سرعان ما كسرها **المأمون** يقول مخمّنًا:

- علّها صبرنا!

t.me/qurssan

راحـت أنظارهم تبحث في المدى القريب عن ظلال أبنائهم، فماز كلٌّ منهـم من يعرفه، عدا **مـزدان التوجالي**، ظلّ يتفرس وجهـيّ ابنيه اللذين كانا يحملان صناديق الذخيرة فـوق كاهليهم ويتبعان المدين، ثم يضعان الصناديق حيث وضع البنادق، تحت قدمي بكر الفريج. لم يتبيّن التوجالي وجهيهما إلا بعدما وضعا حمولهما واصطفا بين إخوانهما، لكنه لم يدرك كونهما بين مجموعة الفريج التي تضرب البارود، بل ظنّهما يقدمان المساعدة عابرًا. ابتلع أسئلته وتابع -كغيره- ما يدور، وحين انتهى المدين يُبيّن للفريج كيف فسد الرصاص ففسدت البنادق، أمر الفريج ابني التوجالي -باسميهما- أن يُفرغا صناديق الذخيرة فوق فرشـة نظيفة، فبشّـتْ أسارير التوجالي وقد أيقن أن لابنيه مكانًا ومكانة بين هؤلاء يجعلان الفريج يصطفيهما باسميهما. خلع جلابيته الفضفاضة وبسطها فوق الترابة فشدّ سيدي **تخلو** طرفها من جهة وشد **جابر الوكيل** طرفها من الجانب الآخر، وتبادل كلٌّ منهما نظرة عابثـة إلى وجه الآخر. أفرغ ابنا التوجالي صناديق الذخيرة فوقها، وانكفأ الجميع فوق النحاس المنطفئ.

التقط الفريج بين سبابته وإبهامه رصاصةً يخالط البياض لونها النحاسي الأصفر، رفعها أمام وجوههم، قال:

- الطلقة الرطبانة باردة، تهزونها تحت آذانكم متل البيض المتخمّم، إن سمعتم شخللتها ترمونها!

قسّم العمل بين الجميع، واختص نفسه والمدين بفكّ أجزاء الأسلحة

t.me/qurssan

وتنظيف مواسيرها، بينما جعل ابني التوجالي يعيدان تعبئة الخزائن بالطلقات الصالحة، وعكف بقيتهم ينتقون الصالح من المعطوب، كأنهم يلتفون حول أبراش التمر أيام الحصاد. يحمل الشيخ حرب رصاصة بين أصابعه، لا يميز لونها بدقة، يهزها قريبًا من أذنه فيبدو غير واثق فيما سمع، فيضعها فوق أذن الشيخ مأمون، لكن الأخير لا يعطي قرارًا حاسمًا فيمررها إلى الشيخ مفلح، ومنه إلى الشيخ عبد رب النبي، حتى يخطفها الفريج من بينهم ويلقي بها بعيدًا.

تكتمل إحدى الخزائن فيعيد المدين تبييتها في مشبك البندقية ويطلق رصاصها في الهواء معلنًا استئناف المقاومة، فتنطلق صيحات التوجالي:

- الله أكبر الله أكبر.

يقول بكر الفريج:

- الحين أنت تحارب المجاهدين يا توجالي، ستدخل النار، لعنة الله عليك؟

التوجالي:

- هم يفتحون أرضنا لله، ونحن ندفع عنها لله، الجنة لمن يموت منّا ومنهم يا شيخ.

لكن صياحًا عاليًا وجلبة قادمة من بعيد حالت دون توبيخ سيدي الفريج

t.me/qurssan

لمـزدان التوجالي وقطعـت انهماكهم، التفتوا جميعًـا ناحيتها. كان عدد من أنسالهم شبانًا وصبية يحملون رّشاشا كبيرًا من ذلك النوع الذي يثبتونه فوق السيارات والمرتفعات لإطلاق الرصاص تجاه الأهداف الكبيرة. وآخرون يحملون اثنين من المسلحين "مرابعة"، عشرات الأيدي تقبِض كل منها على طرف من هنداميهما، أحدهما ممتلئ مستدير الوجه ذو لحية ملبدة، والآخر نحيـف يافع لم يلتصق طرفا شـاربه بحافتي لحيته، يرتدون ملابس مموّهة وشدات عسكرية مذخّزة، أقبل أحد أنسال الطنابرة يخبر الشيخ مأمون:

– طاحت عربتهم في ضباع المدين، طحنّاهم وجبناهم من زور المنزلة يا سيدي!

***

بقيت **صبرنا** تطل عبر فتحات السـياج نحو بيوت الدومة ومساربها، تنقل لـ **توتة** ما يلتقطه بصرها الكليل هنا أو هناك. خرجت **عسـلة** وجود وشـامة وبقية النسـاء من مجال رؤيتها القصير. بينما انضوى تحت نظرها مريـدو الطريقة المهودية يحملون صناديق الشـيخ باتجـاه بيت **تخلو** حيث يقيم ولده السيد، خليفة الطريقة المهودية.

لم يكن مقام المهود بعيدًا عن أنظار المجاهدين، لم يكن ثمة شيء بعيدًا عن أنظارهم بطول الدومة وعرضها، وحين دوّت القذائف وأيقظت الناس، كان

t.me/qurssan

من بينهم بعض مريدي الطريقة وأتباعها، ممن اعتادوا المبيت حول المدفن المبروك، وداخل حرم المقام. بلغتهم أصوات الضرب، فدفعت ببعضهم إلى محاولة استجلاء ما يدور، لكن أحدًا منهم لم يُحرّك ساكنًا. ظلوا بانتظار أن يأتي **سيد واد تخلو** خليفة الطريقة **وبيومي ابن جابر الوكيل** خليفة خلفائها، ليعطي أحدهما أمرًا بالسلوك. إلى أن فجاءهم رسول منهما يبلغهم بإخلاء المقام ونقل ما بداخله وستر آثار الشيخ. فسارعوا يطيعون الأمر، جدّوا في تفكيك المقام وعرّوا الشاهد الحجري من أوشحته، ورفعوا العمامة والأعلام الخضراء والحصير، وخُفّ الشيخ وعباءته وعصاته المعقوفة. نقلوها إلى بيت سيد واد **تخلو**، وأقاموا حضرة في حجرته. رأتهم **صبرنا** يدخلون الدار ويغلقون أبوابها، ورأت عواميد البخور تتصاعد من نوافذها، وغابت أصواتهم. لم يتبقَ سوى صوت دفقات الرشاشات جليًّا واضحًا، وزخات الطلقات المكتومة تخرج من طرمات بيوت بعيدة، تشعر بها ولا ترى منابعها.

أسندت **توتة** إلى ذراعها وهبطت بها الدرج فطاوعتها الأخيرة بهمّة وخفة، خرجت عبر مسارب الضرب، وبحّرت إلى جهة بيت **شروفة**، دقت باب **جلا** ففتحت الأخيرة بعد أن سألت مَنْ بالباب وأعادت السؤال وأنصتت للإجابة مرة ومرتين، فوجئت **بصبرنا** وقد غادرت بيتها تحت قصف النار بعد سنوات بعيدة لم تُرَ خارجه، أخبرتها **صبرنا** أنها جاءت لتتخذ من باحة بيتها الخلفية "تخريمة" تختصر الطريق إلى المسطاح الذي يحوي محابس

t.me/qurssan

الضواري. أفسحت لها دون أن تسألها عن العلّة، لكنها تعقّبتها، حتى بلغت **صبرنا** سياج المسطاح واقتربت من الضباع الهائجة داخل محابسها، تجرّ الدبّوس المدبّب بالمسامير خلفها، لا تستطيع ذراعها الواهنة رفعه في وجوهها، تختبئ **توتة** خلفها وتكمش رداءها مرتعبة، وتختبئ **جلا** خلف **توتة** أكثر رعبًا. أدركتا مقصدها فاكتسى وجهاهما بالفزع. تخرج الضباع واحدًا فواحدًا، تتمهّل قليلًا قبل أن تجتاز المغالق كأنها تزن الأمور قبل أن تقبل على مسلكها، لم يكن الدبّوس المدبب في يد **صبرنا** بوسيلة الإقناع الكافية لإثارة خوفها وإبعادها. بل ربما لم تكن أجسادهن المتهالكة هذه بالوليمة التي من أجلها قد تؤخّر سعيها نحو حريّتها والإفلات من محابسها.

أشارتْ **صبرنا** بيسراها نحو بوابة المسطاح وقالت: "**هررررررر!**" كما تخاطب الشياة والمعيز. فانطلقت الضباع نحو المنزلة، مسعورة تنهبُ الأرض لا تلتفت إلى حيٍّ أو جماد، تقصِدُ بريّة تعرفها. بينما كانت أول سيارة "تايّوتا" تدهس تراب المنزلة بعدما كفّت بنادق الدوايمة عن الضرب، وأيقن المهاجمون أن الأمور تسير على البركة والنيّة الصادقة.

زحفت "التايوّتا" متباطئة إلى داخل المنزلة يحيطها أربعة مسلحين يطلقون الرصاص في الهواء تحسُّبًا لخطر لا يرونه. لكن "المنزلة" الضيقة لم تتّسع لعبور القطيعين معًا، "التايّوتا" الهادرة ورجالها المكدسين بأسلحة حديثة كبيرة تثير الإعجاب والفزع. والضباع التي يزن واحدها ثلاث مئة رطل، تلتهم ثلث أوزانها لحمًا حيًّا في وجبة واحدة وتهصر بطونها الغضاريف

t.me/qurssan

والعظام، وتطلق زمجراتها عاليًا ليفسح لها طيرُ السماء حيزًا لائقًا بجلالها. يتباغت أصحاب التايوتا بهول المشهد، فتصطدم السيارة بجذوع النخيل المرصوصة على جانبي المنزلة، ويتخبّط مسلحوها فيفرون بلا هدى، عائدين إلى ظهر الجروف، يطلقون خلفهم الأعيرة النارية عشوائيًّا فتخترق أبدان الضباع لكنها لا تتوقف عن عدوها. يتفلّت سائق التايوتا المعطوبة ومسلح آخر كان يجلس إلى جواره داخل الكابينة مصابين يبحثان عن ساتر يختبئان خلفه. لكن عيال الدومة يظهرون بغتةً كعفاريت الخلاءات يندفعون تجاههما من كل صوب، يطوقونهما ويطبقون عليهما ويحملونهما إلى المظلة الصخرية ليضعوا أمرهما بين يدي الأشياخ.

أعادت **صبرنا** إغلاق المحابس، وأخذت بيد **توتة**، لكن جلّا استمهلتها، تعلقت بثوبها وقالت بعزم:

- **بشرفي ما نبرح المسطاح أحياءً حتى تخمد ناري؟**

- **نارك يوقدها إبليس الرجيم ما تروح إلا بالصلاة.**

استحلفتها بالكعبة، برب الكعبة ونبي الكعبة. قالت إن لعنة الله عليها إن كانت من الكاذبين. سألتها:

- **ما كان بينك وبين شروفة؟**

- **ما بين الإخوة والمحارم.**

t.me/qurssan

- لِـمَ بقيت شامة بكرًا والمدين هوّامًا؟

أشارت إلى صدرها وقالت:

- هذي الرمّة لم يمسسها ذكرٌ غير دليل النبي مرتين بلا ثالثة، يوم أمهرني زيارة الكعبة فأعطيته مشتهاه، ويوم طلّقني لأغرّب إلى أهلي. وقلتُ إني في ذمته كي لا يطمع في رمّتي غيره.

- تحلفين أنّك ما ربطتِ له عملًا مسّه؟

- لا عمل ولا يحزنون، المسّ في عقلك، شُغلتِ بي وهملتيه. الله يرحمه

- لا.. شروفة حي.

- والله لو ما تنعدلي عن طريقك أضرب رأسـك..عندنا همٌّ أكبر من همّك.

أخذتْ **توتة** وسـارت بها عبر التخريمة ذاتها التي تسللت من خلالها إلى المسطاح، تتشهد وتسبّح وتدعو بالهداية للجميع، بينما سارت **توتة** إلى جوارها مستسلمة تضحك، تقول:

- ناكحكِ دليل النبي مرتين يا صبر؟

- بلا ثالثة يا توتة!

***

t.me/qurssan

تفسّخت أنسجةُ الظلمة وانكشفت بعض من ملامح النهار، فتراءت **للمرتاض** ورفيقه الخواجة أرتال الشواهد الحجرية المتناثرة ذات العلامات الجيرية البيضاء، والبراميل المنتصبة تصطفُّ على جانبي الطريق قبيل كمين "الرُميْلة"، أقرب كمائن الجيش إلى الدومة، لكن أحدًا من عساكره لم يخرج من خلف السواتر الرملية ليُشير إلى السيارة كي تبطئ سيرها، ولم يثر هديرها انتباه جندي مسترخٍ فوق برج المراقبة خلف بندقية لم تُختبر صلاحيتُها من قبل، والجندي الذي اعتاد التوضؤ حول جذع شجيرة جازورين حاملًا منشفته فوق كتفيه في مثل هذا التوقيت كل يوم، لم يمارس عادته، كانوا جميعًا قُتلوا وتناثرت جثثُهم خلف السواتر الأسمنتية وأجولة الرمال، وتخَضّب أسفلت الطريق المتهالك بدمائهم الطازجة، بينما ازدانت حواف البراميل وجدران "المبيت" بثقوب عميقة من أثر دفقات رصاص سكنتها دون نظام محدد، فبدت كنقر طيور كاسرة، في لحاء أخضر.

التقطت أعين الخواجة وميضًا بعيدًا يبرق كنجمة آفلة، قفز خارج السيارة وصاح يحثّ المرتاض أن يغادرها، وحين تكاسل المرتاض، تعالى صراخه حتى استجاب. جريا سويًا بعيدًا عن حرم الكمين المضروب، اختبئا بين الصخور البعيدة، يرقبان مروحية أباتشي سوداء تحوم في السماء، بدا لهما أنها تعلّقت بسحابة بطيئة تتحفّز للانقضاض على عَدُوٍّ لا يرونه، وسرعان ما أطلقت صاروخًا أحال سيارة مرتاض الشريف إلى كتلة لهب مشتعلة، واقتربتْ تحوم كعُقاب يتربّص بأرنب برّي، وحين بدا للخواجة

t.me/qurssan

أنها تقترب من مكمنهما، ظهر واضحًا جليًّا يلوّح للطائرة بالصديري الذي خلعه، بينما بقي المرتاض مغمض العينين رافعًا سبابته نحو السماء يردد الشهادة. بدا قائد طائرة الجيش قد تفهّم أن الـمُحاصرين بين الصخور لا علاقة لهما بضرب الكمين، وحين تيقّن الخواجة أنه لا ينتوي قصفه أشار إلى اتجاه الدومة فانطلقت الطائرة على ارتفاع منخفض إلى هناك.

***

التفّت **عسلةُ** حول "ظهر الحوت"، كتلة حجرية كبيرة ملساء تحد الدومة من طرفها الشمالي ولا يطرقها المسافرون لكثرة جنادلها ووعورة مسالكها. اعتادت **عسلة** ارتيادها بقطيع عنزها في أواخر الشتاء لأجل عشبة "شوك الجمل" التي تنمو بين صخور سفحها، تتصل بعِرْقٍ جيري صلب يختصر الطريق إلى "بين الجبلين". قطعتْ **عسلة** وقافلتها الصغيرة شوطًا إلى هناك. كلّت أقدام النساء وتباطأت خطوات الدواب، وتواترت الأصوات التي تطالب بالاستراحة والتقاط الأنفاس، وأجابت **عسلة** في كل مرة:

- **هانت.. حبتين ونصل!**

أرادت أن تقطع المسافة كاملة في سحبة قدم واحدة كي لا يلحق بهن أذى، حين جمعتهن كانت تقصد المظلات الصخرية في بطن الجروف القبلية، لكن احتدام الضرب دفعها لتعدِل عن مقصدها. قادتهن إلى "بين الجبلين".

t.me/qurssan

حين يبلغن جبل الخشب سيزول الخطر، سيغلقن بعد صعودهن إلى الدير والقلايات المسرب الضيّق بالحجارة، ولن يتمكّن جيش عارم من اقتحامه، يكفي أن تقف ثلاثٌ منهن في فم القلاية ليقذفن من يحاول تسلّق الجبل بحصوات تشجّ الرؤوس كحجارة من سجيل، وإن ضُرِبَ حولهن الحصار ستأكل الدواب من عشب الوادي، وسيكفيهن خزينُ القلايات من الطعام والشراب للبقاء حتى ينسحب المعتدون ويأتيهن من ينبئ بزوال الخطر.

ظهر أبونا **الشيخ متاؤس** عند منتصف الطريق، نزل من فوق حمارته واستقبلهن بوجه باش وعاد بهن إلى جبل الخشب. وحين صعدن المسرب الصخري وافترشن أرض الدير، أخرجت **عسلة** حجرًا طباشيريًّا من طياتها، وخطّت رسومًا جديدة على الجدران وكتبت "الله أكبر". ثم أجلستها **شامة** في جوارها وقالت:

- والله إني أحبك يا عسلة، وسأمهرك من إرثي وأذبح لعشيانك مئة زوج "قطاوي"!

وقالت **جود**:

- والله لا أخلي زغلولًا في البرجاية يوم تعرسين.

- سأزوجها بالمدين يا جود.

تبدّلتْ ملامح جود، وغسلت بنظرة مشفقة جسدَ **عسلة** المتدثر بزنار يحبك معالمه ويخفيها. وتذكّرت يوم شاهدت المدين يضع رأسه في حِجْر

t.me/qurssan

أمه **صبرنا** تُفلّيه من قُمّل ذئب أصابه، بينما كان ذكره يتلوّى تحت قميصه وينتصب، فأفلتت شهقتها حتى انتبهت إليها **صبرنا**. تذكرته جود وأشفقتْ أن يعاني جسدُ **عسلة** الضئيل من هذه القدرة الربانية في جسد المدين. ولم تفهم كيف تخطبها شامة بينما ما زالت خطبتها للمرتاض الشريف معقودة على ألسنة الأشياخ، لكنها ابتلعت أسئلتها وهربت من عيون **عسلة** السابرة، وانشغلت تُمشّط شعور البنات.

***

جثا الأسيران المكبلان أمام المظلة الصخرية، في مواجهة الأشياخ المستظلين بالجرف، المنهمكين في تنقية الرصاص المعطوب، وانصرف الشبان يحملون الرشاش المنزوع من سيارة التايوتا لينصبوه خلف حائط من جذوع الدوم في مواجهة المنزلة بحسب ما أشار به سيدي بكر الفريج. نصبوه وأطلقوا رصاصه نحو المنزلة وتعالت الصيحات المبتهجة، كأنها احتفالات النصر، ثم ساد صمت مكين، هنا وهناك وفي كل الأرجاء، لا جعير لضباع أو هدير لسيارة، ولا أزيز لرصاصة، ولا جفجفة هواء.

تحوّلت حالة الصمت المريبة إلى همهمات ونظرات حائرة متبادلة بين الجميع. حاول **بكر الفريج** أن يكسرها، ويحث **المأمون** أن يتحدّث، بينما وشتْ نظرات **المأمون** بحيرة وتردد، لا يعرف من أين يبدأ. حتى أسعفه

t.me/qurssan

الفريج يقول بنبرة حادة توحي بالشدة والعزم:

- **ما ترى في هذين المجرمين يا شيخ مأمون؟**

- **يشوف الإخوان ما نفعل فيهم..**

قلّب الفريج ناظريه في وجوه الجميع بانتظار أن يضيف أحدهم رأيًا، فلم يرَ سوى حيرة تفيض، وتراخٍ ينسدل على الملامح، ومحاولات انسحاب بائسة. ازرورق طرف أنفه واحمرت شحمتا أذنيه، حتى كاد يزعق فيهم، ليظهر أحدهم القساوة ويتحدث. لكن الشيخ **جابر الوكيل** بادر يقول:

- **يخبروننا لماذا جاءوا هذا الزمام؟**

أشار الفريج إلى أكبرهما ليتكلم، فقال:

- **جئنا نخلصكم من الطغمة الكافرة، ما قصدنا إلا الخير!**

سارع **المأمون** يقول:

- **يا بن الكلب أنتم جئتم تضربوننا من الدار للنار، وما قلتم سلام عليكم!**

- **لا، ضربنا الخاوي في بطون الجروف وفوق السقائف، لو أردنا الأذى لضربنا البيوت ودخلنا، وصارت أرضًا لله بحد السيف.**

قال التوجالي:

t.me/qurssan

- حق يا شيخ مأمون، ضربوا في بطن الجرف، ما انقتل عيل أو عنزة.

رمقه الفريج بنظرة أخرسته، خشي أن يناله السباب على مسمع من أبنائه، قال الفريج وقد أحسَّ بأمارات التصديق تتسلل إليهم:

- يضحكون على ذقوننا يا بن الصرمة، أنا انضربت وانكسرت عظامي، وما نعرف ما صار لبقية الخلق. يقول لك، يأخذون بيوتنا بحد السيف! ترى هذي السقائف يا مطعون، ضربتها جيوش ما سمعت بها أنت وأجدادك، الإنجليز والطليان والبربر، وما صارت لأحد بحد السيف.

يضيف الشيخ مفلح مؤمّنًا على ما يقول:

- والمهدية والسنوسية والتشادوة، نسيت يالفريج؟

يجيب عبد رب النبي مستدركًا:

- الفريج جاء بعدهم يا شيخ مفلح.. ما رأى السنوسيين!

يشيح الفريج بكفه، بينا يقول **المأمون**:

- المطعون يقول عنّا طغمة كافرة.

- حاشا يا حاج، أنا أقول جئنا نخلصكم منهم..

ظلّ **تخلو** يربّت فوق كتف **المأمون** بعد كلّ عبارة يلفظها، بشّ لاستعادته وعيه سريعًا، بعد أن غاب عقله برهة وجيزة يعرف أنها ستعاوده بين الفينة

t.me/qurssan

والأخرى حتى تستقر، همس في أذنيه بنبرة مسموعة، يسأله:

- ما الطغمة يا شيخ مأمون؟

- الطغمة؟! تغيب عن بالي!

يلوح شبح ابتسامة تخلو رغمًا عنه، لكن المجاهد يتطوّع بالردّ:

- الحكام وجيوشهم يا حاج، يوالون الكفرة ويناصرونهم علينا.

يقول المأمون:

- ماذا يقول يالفريج؟

- يهرف يا شيخ مأمون، بردعة رأسه محشوة بالبعر والسباخ، إحنا ما عندنا حكام وجيوش يا بني، من أين جئت بهذا الكلام؟

- لا أهرف يا حاج، خرجنا نطلب شرع الله وشريعته، نقاتل لوجه الله، لنطهر أرضنا قطعة قطعة. ألم يقل ربّنا تعالى: "والذين جاهدوا فينا لنهدينهم وإن الله لمع المحسنين". هذا كلام الله يا حاج!

يقول التوجالي مصدقًا:

- صدق الله العظيم، ونعم بالله.

يسأله الفريج:

- ما اسمك يا بني؟

t.me/qurssan

- زكريا المحراب، وأخي هذا عثمان.

- أنت من قبيلة المحراب؟

- لا، اسمي زكريا المحراب باسم النبي زكريا المحراب، عليه السلام؟

يتلفت كل منهم إلى الآخر، يحاولون إدراك ما استعصى على أفهامهم، حتى يسأله الشيخ السنوسي:

- تقصد كما في آية "ودخل عليها زكريا المحراب"؟

- فتح الله عليك يا حاج!

يضرب الفريج كفًّا بكفٍّ، ويربد وجه **المأمون** بالغضب، وتختلط الدهشة بالفجيعة في وجوه الباقين، بينما يتوّج الحزن في جبين التوجالي، ويقول بأسى:

- يا أخي.. ماذا تقول بالله، هل هذا كلام؟

ينهره الشيخ **تخلو**، ليصمت مستسيغًا ما يسمع. يُمسك بطرف الراية التي انتزعها من يد التوجالي، ويفركها بين أصبعين، ويقول:

- هذي راية التشادوة، يا محراب يا بني؟

- لا يا حاج، هذي راية التوحيد، كانت سوداء غامقة، والدايرة هذي متل ختم النبي، النبي كان يختم رسائله لملوك الكفر باسمه وكنيته.

t.me/qurssan

يقول **المأمون** مزهوًّا:

- أنا قلت ما هي راية التشادوة يا تخلو.

- راية مَنْ؟

- رايتنا، نحن جماعة الله.

يميل **عوض الفخراني** على رأس سيدي بكر الفريج ويهمس في أذنه، يحرّضه أن يسأل المجاهد عما يفعلونه فيمن يتعاطون "المضغة" ويسمعون المعازف، فيلكزه الفريج ليعود إلى مكانه. يتفحّص الفريج إحدى بندقيتي الأسيرين بإعجاب، يتحسّس أجزاءها، ويختبر دقتها عند التصويب، ويسأل:

- هذي بندقية إيطالي؟

- بندقية أمريكي، مئة وعشرين طلقة، تضرب من بعيد.

- من أين تجلبونها؟

- الله ييسّر لنا.

ينهمك الفريج في فحص البندقية بإعجاب لا يفلح في إخفائه، فيراها المجاهد فرصة مواتية ليسألهم متوسّلًا:

- بالله عليك يا حاج، ما هذي الضواري التي خرجت علينا؟

يجيبه الفريج:

t.me/qurssan

- هذه الدومة مرصود على حراسـتها مئة ألف ضبع من قديم الأزل. تـأكل من يعتدي ولو تجـاوز منزلتها وقرّ في بيوتها، تمهله حتى يعرف حق الله ثم تهمكه بين ضروسها، احكِ له يا شيخ تخلو!

يلتقط الشيخ **تخلو** خدعة الفريج، فيتبارى في حياكتها، يقول:

- نعم. عندنا ضباع ما تموت، الواحد منها يعمر مئة عام، ويترك خلفه نسلًا ممدودًا، ليست كالضباع التي تسمع عنها، هل سمعت بأسنان تكسر الحجـارة ومعي تهصرها، تلك ضباعنا، لا تـأكل نفرًا من أرضها، أكلت جيوشًا وجماعات وجحافل من الغرباء. ما زالت بريّة، لا أحد يستأنسها، أخشى أن تكون أكلت إخوانك، فكفّوا عن الضرب، ستصدقنا حين نضعك لها وتجرّب أسنانها في عظمك الحي!

- تقتلون نفسًا مؤمنة يا حاج؟

- تبغون علينا يا بن الصرمة وتقول مؤمنة! يمين بالله حلال فيكم أكل الضباع.

- دعونا نرجع إليهم ونمضي إلى حال سبيلنا!

يقول **المأمون** إنهم سيختبرون علمهما وإيمانهما، وسيعفون ويخلون سبيلهما محملين بالخير، إن فتح الله عليهما وأجابا سؤاله، يسأله:

"كيف علم سليمان بغياب الهدهد؟"

t.me/qurssan

يفكّر المجاهدان مليًّا في الإجابة ويردّدان ما يحفظان من آيات سـليمان وما يتذكران من تفاسـير، يجتهد كل منهما بإجابة يقابلها **المأمون** بابتسامة ساخرة. ينادي الشـيخ السـنوسي فيمن فاتتهم صلاة الصبح، ليصطفوا وراءه، فيطلـب المجاهد أن يحلوا وثاقه ليصلي. يشـير الفريج إلى أحدهم أن يفك قيود أيديهما وأن يُبقي على أقدامهما مكبولة في الحبال.

***

صعد قرص الشـمس كاملًا، واتسـعت هالته البرتقالية، حتى كستْ حصير الرمل والحجر. انحسرّ الظلُّ عن بقع واسعة من الضياء. تململوا في جلساتهم، واضطجع بعضهم فوق جنوبهم. أسندوا ظهورهم إلى الصخور وتوسّدوا الحجارة والأحذية. جاء أنسالهم يحملون قعاب الحليب والخبز التـي فتّتها العواجيز من أجلهم، تناولوها ونبضت الحياة في عروقهم من جديد.

جـاء **المدين والطيب** يقولان إنه لم يعد هنـاك أثرٌ للمجاهدين، توقف الضرب وسـكت الرصاص، وعادت طيور الشـحيم تحلق فوق ذؤابات النخيل البعيـد. ورجع "الملك جورج" من بين الجبلـين يرتوي من قناية المـاء ويتجاوز عين باجة والملقة الكبيرة ليصعد إلى صاحبه **المأمون**. أيقنوا أن ثمـة ما يقع، أو ما كان يقع وانتهى، لكنهم آثروا الانتظار حتى يأتيهم شاهد.

t.me/qurssan

أوشكت شمس النهار على الزوال. خرج الرجال عبر المنزلة، وساروا في إثر عربات "التايوتا" فوق المدق الجبلي وعبر النواصب الحجرية، حتى ساحت آثارها واختفت في اتجاهات شتى. وذهب المدين وبعض إخوانه إلى "بين الجبلين" لاستعادة النساء والحلال، وفي طريقهم إلى هناك عثروا على الحاج أرنولد ومرتاض الشريف، يزحفان منهكين على طريق السفر.

***

t.me/qurssan

24

دنيا غرورة ماتدوم لوالي
تعطيك روقة وتنبرم فـ التالي

قال الشـيخ مأمون إنهم ما كانوا ليغدروا بأسير أو مستضعف أو عابر سـبيل، لكن المحراب وجماعته بغاة ظلمة، سفكوا دماء العساكر في كمين "الرميلة". عساكر مساكين، جاءوا من المنيا والفيوم وبني سويف يؤدون الخدمة. أبناء ناس طيبين ينتظرون عودتهم بقلوب مفطورة. يمكث العساكر في الخدمة أربعين يومًا متواصلة لا يرون فيها غير وجوههم تصطبغ بصفرة الرمل وجدبِ الحجر، وعندما تحين إجازاتهم يقفون السـاعات الطويلة على ناصيـة المدق الجبلي ينتظـرون أبناء الدومة الذين يرغبون في السـفر

t.me/qurssan

ليأخذوهم في طريقهم إلى الداخلة في سيارة "الزل" العسكرية، ماتوا. لم ينجُ منهم سوى من كانوا غائبين في إجازاتهم الدورية، وهؤلاء انتقلوا إلى نقاط خدمة جديدة بعيدة عن ذاك الموضع الذي اغتيل فيه زملاؤهم.

قال الشيخ **المأمون** أنه شاور بكر الفريج ليطلقا الأسيرين دون أذى، لم يكن في نيتهم شرٌّ على ما فعلوه بالدومة. حتى جاء المرتاض وأطبق على رقبة زكريا المحراب، أراد أن يخلعها عن كتفيه، هاج كالذئبة المكلومة حين رآهما. روى كيف عثروا على أشلاء العساكر في كمين "الرميلة"، وكيف نجا من قصف "الأباتشي" مع الخواجة أرنولد، ولم تنجُ سيارة الفورد، عزوته ورأس ماله ومصدر رزقه. أرسلوا الأسيرين مكبلين إلى كمين "الشيخ وافي" على طريق الداخلة، وهناك جاءت الحكومة وأخذتهما.

لم يدرِ أيهم بما صار لبقية المجاهدين، جاءوا زمرة للاستيلاء على الدومة ثم هربوا، ذابوا، تبخروا كنتح الصبار في طلوع الشمس. يقول الحاج أرنولد الخواجة إنه أشار إلى قائد الأباتشي برمز يعرفه، أعطاه طريق الدومة بإصبعين وكان عليه أن يصل في غمضة عين، ليدكّ كتيبة المجاهدين دكًّا. لكن الدوايمة يحلفون أن سماءهم لم يقطعها سوى طلقات الرصاص ودوي الدانات، ولم يكن ثمّة غيوم تحجب الرؤية عن طائرات تكمن بين السحب. لم تضرب الطائرات سيارات المجاهدين، ولم يكن من بقايا لسيارات مضروبة، لا حول الدومة أو على الطرق البعيدة.

قال الفريج:

t.me/qurssan

- لا تشغلوا عقولكم بما صار، خرجوا من الظلام وعادوا إليه.

وأجاب سيدي **تخلو**:

- نخشى لو عادوا فأخذونا عن غفلة!

ورد الفريج:

- لو ما عادوا سيجيء غيرهم، ولن يأخذونا عن غفلة، عندنا مئة ألف ضبع مرصودون على أبواب الدومة يا إخوانا.

يقهقه **تخلو** حتى تدمع عيناه، يخبط على كتف الفريج، وينكت الأرض بعصاه، وحين تهدأ عاصفته، يسأل **المأمون** متوسلًا أن يخبرهم بسرّ الهدهد قبل أن تفيض روحه ويُسأل عما أخفى، يبتسم **المأمون** ويأخذ سمت إمام حكيم سيخبر بسرٍّ أعظم، يقول:

- نعم. سأقول لكم كيف علم سليمان بغياب الهدهد حتى لا يقبر السرُّ معي.

يتحلقون حوله بأفواه فاغرة ويرهفون أسماعهم، تشيع أجواء مقدسّة لا يخمشها صوت الحياة التي تدب في أوصال الدومة، كأنهم بلغوا التشُّهد الأخير من صلاة العصر بانتظار كلمة السلام الأخيرة:

- سليمان ما كان ليترك شؤون المملكة من الإنس والجن والعفاريت، ليتمّم على الطير والأباخيش، سليمان كان ملكًا نبيًّا.

t.me/qurssan

- نعم.

- كان سـليمان لا يسـير إلا رفقة جنده من الجن والإنس والعفاريت، موكب مهول تظلله سحابة من الطير، من كل لون وملمس.

- نعم..

- كان الطير يصنع فوق رأس سليمان وجيشه غيمةً تحجب الشمس.

- نعم..

- وحين غاب الهدهد ذاك اليوم تسـللت الشـمس مـن موضع غيابه فصَدَعَتْ رأس سليمان وزغللت عينيه، رفع رأسه يتفقد من أين تسللت، فلم يرَ الهدهد، فعلم بغيابه.

سـاد الوجوم وردّد بعضهم كلمات التسبيح والصلاة على النبي، لكن **تخلو** أخذ يتفرس الوجوه يميناً ويسـارًا، بمزيج من غضبٍ ودهشـة، إلى أن قال:

- ماذا تقول يا المأمون؟

- ماذا؟

- هذا كلام لا يدخل العقل بالله.

- يـا أخي هدهد يتحدث وعرش يطـير، هذه معجزات ربانية، كيف تدخل عقلك؟

t.me/qurssan

- تسللت الشمس من موضع الهدهد؟ هم كانوا ليلًا وكان سليمان يتفقد الطير آخر اليوم ليتمم مبيته، لا شمس بالليل، تضحك علينا سبعين عامًا!

- أنا قلت يا تخلو إنك ابن كلب ولم تصدقني، كيف تعرف أنت يا بعر العنز هذي الربانيات؟

يقول جابر الوكيل:

- الشيخ تخلو يقول الكلام المعقول يا شيخ مأمون.

قال تخلو:

- بارك الله عليك يا شيخ جابر، دوّام بالحق ما تحيد..

- توّك ترى تخلو يقول المعقول يا جابر؟ وأنت تقول عن جابر دوّام بالحق، الحين يموت يهودي غلبان والله.

يخاطب عبدُ رب النبي بكرَ الفريج الذي يجلس إلى جواره:

- رأيت تخلو وجابر الوكيل يتسامحان، لماذا لا تصدق يا شيخ بكر!

- نعم يا عبد ربه، رأيتهما، الله يهدي الجميع..

***

t.me/qurssan

وُضعت السـقيفة من جديد، كما كانت، تمامًا كما كانت، جذوع نخيل وجريد وبوص. بُسطت الحصائر وفرشت الوسائد واتخذ الأشياخ مجالسهم، لينظروا كيـف يرفعون آثار العدوان، ولم تكن جلسـتهم الأولى للنظر في شؤون الدومة، لكن الشيخ حرب أفسح **لمرتاض الشريف** متسعًا ليعرض مسـألته حين جاء يصطحب الحاج أرنولد الخواجة، وقد أحسّ أن وراءه أمرًا جللًا.

وقف المرتاض خاشعًا خجلان يطلب "الرجع" في خطبته، فعلم الشيخ حرب أن خلف مسألته تحريض حريم بيته. تعطّلت زيجته وهلكت عربته ونجا من موت محتوم، فاعتقدن أن قدم النحس خطّت عتبته، وعلى الرغم من حصوله على سـيارة المجاهدين التي تركوهـا معطوبة في زور المنزلة، لم يرَين من تفسـير للخراب العاجل إلا عروسه **عسلة** التي وسوسن إليه أن يرجع في خطبتها، حتى إن دفع ما يحكم به الأشـياخ ترضية لأبيها. لم يتمهّل سيدي حرب كي يتشاور مع **المأمون** وبقية الأشياخ ليعطوا الرأي، فما إن انتهى المرتاض من مطلبه حتى أعلن "الرجع"، أعلنه كي لا يمنحه **المأمون** أجلًا يرجع فيه إلى أبي **عسـلة** ويراجع فيه نفسـه كما تقول العادة. صرفه حرب عن السـقيفة فانـصرف يزف البـشرى إلى عائلته، بينما بقي الخواجة الذي لم يستسـغ يومًا زيجـة القطة البرية بثور الغيطان، بقي تحت السـقيفة يحتفل، فأرسل العيال يبتاعون ما لدى بدير ابن سعد المرجوشي من زجاجات الشربات والسكر احتفالًا بالمناسبة.

t.me/qurssan

خلعت **عسـلة** زنّارها، وفكّت أسر جسدها فكشفت عن بدور نوّارة وأفلاكٍ دوارة. احمرّ أخضرها، واكتملت طراوتها، وسبّح من رآها باسم الله الأعلى وصلى على النبي الأهدى. قالوا، زال نحسها بعد رجعة المرتاض. ثم طلبتها شامة، أهدتها حجلها الذهبي وقرطين وأمهرتها غاليًا.

أُعلنت زيجتها. عرّس بها المدني، وغرس بذرته، فانغرست حتى بحرتْ الأرضَ بحرًا. ماءتْ تحته البنية كقطة في موسمها، أسرته باشتعالها وسباها بدفء صدره. ولم يفارقها إلا لتسديد دينه القديم لزوجته ابنة **شروفة**، وعلى فراش **شامة** رمح كثور بري. دقّ صاريه في بطن سفينتها لا ريح تخلعه ولا نوّة تنزعه. وابنة **شروفة** تلثِمُ يد **عسـلة** وتحب عليها، بعدما فكّت أصفاد رجلها وأطلقت فيضه حتى غمرهما معًا.

ثم أحضر **المأمون** دفتر "الصاير" تحت السقيفة الكبيرة، وجعله في قلب جلستهم، واستدعى **المدين**، وإخوانه، وأعطاه قلم "كوبية" أزرق محفوظ بين دفتيه، وأملى عليه ما يخطّه في صفحة فارغة في آخر الدفتر، يقول:

بسـم الله الإلـه، غافر الذنـب، وقابل التـوب، شـديد العقاب، ذي الطول،

أنه في يوم الاثنين الثالث من "توت" الموافق عربيًّا الثالث والعشرين ربيع أول، الموافق إفرنجيًّا ثلاثين من الشهر التاسع عام 1991 من ميلاد النبي عيسى، عليه وعلى نبينا السلام، جاء زمرة المجاهدين من قبائل وبطون الغرب،

t.me/qurssan

*في سيارات تايّوتا بيضاء، بمدافع وبواريد يضربون البوازيك والخراطيش، أوقفهم الدوايمة قبل دخولهم، حتى عادوا سائحين في البراري، أُسِر منهم زكريا المحراب وأخوه **عثمان**، وتسلمهما رجال الحكومة في "القلامون".*

*وأنه بعد تدوين هذا النبأ، أسـلم الشيخ **المأمون** ابن **الشاهين** رحمه الله -وليدعوا من يقرأ المكتوب لهما بالسلام والرحمة- هذا الدفتر عهدًا وأمانة ووفـاء لدى المدين ابن دليل النبي، يدوّن في رقاعه ما يخص **عباد الله** عظة وعبرة لعباد الله. ولله مبتدا الأمر ومنتهاه. عز في علاه.*

***

جلـس **المدين** بين يدي الشـيخ مفلح في حضور سـيدي **بكر الفريج**، يحكـي له عن منام، رأى فيه جَدْيًا يضارب ناقة ملحاء على حافة البحيرة، وحين انتهى من مضاربتها، نزل المياه حتى غمرت رأسـه، وحين استيقظ كان لباسـه يبتلُّ بمنيه المتكلّس ينطق الشـهادتين. قال له المفلح ستنجب قبيلة من الإنـاث والذكور، وحين ذهب **المدين**، أطـال الفريج النظر إلى الشيخ مفلح، وقال:

- متى توقف تهاويمك وضحكك على الخلق يا شيخ مفلح؟

ارتسمت أمارات الغضب على وجه المفلح، وحين التقت نظراته بأعين الفريج، لانت ملامحه، وانطبعت ابتسامة عطوف على جانبي فمه. قال:

t.me/qurssan

- أقول لكم ما تشتهون سماعه يالفريج. تدري لو ذهب الرجاء كيف يكون ابن آدم؟

***

بيومي الوكيل جاء إلى تعريشة الخواجة **أرنولد** بنصف "مغلج" من الجبس الأبيض والرمل الأحمر. قبّل رأسه واستسمحه وطلب أن يعاونه ليعيد ترميم رؤوس المناحيت التي أسقطها ضرب المجاهدين، حتى إذا أرسلت الحكومة مناديب لمعاينتها، أبقت عليه في وظيفته كأمين آثار منذ عينته هيئة التعمير قبل ثلاثين عامًا.

انهمكا في الترميم حتى كادا ينتهيان، عبر الشيخ حرب، يدثّر شيئًا منتفخًا في "تلفيحته" الصوفية، ويلقي سلامًا حارًّا، بأسارير مبتهجة. سرعان ما احتال غضبًا ونقمة حين تبيّن ما يفعلان، قال:

- تنصبان المناحيت من جديد تجلب الخراب، ربي يلعن بطن أمّك يا ميجور محل ما تكون!

استلفت ما يحمله انتباه الخواجة فنفض يديه سريعًا وسأله بجدية بالغة:

- ماذا تحمل يا شيخ حرب؟

t.me/qurssan

كشف حرب الدثار عن خوذة معدنية صدئة، ذات حواف متآكلة، تناولها الخواجة بحرص، مبهوتًا، وتحسّس تجويفها ودقق في نقوشها. قال:

- هذي خوذة عثمانلية يا شيخ حرب؟

- لا، هـذي خوذة مماليك.. كانوا يلبسـونها الفارون من الصعيد أمام الفرنساوي!

- أي فرنساوي يا شيخ حرب؟

- ذاك، لا أتذكر اسمه!

- نابوليون؟

- نعم، هو ذاك.. كيف عرفت اسمه يا خواجة؟

***

t.me/qurssan

المصادر

1 – صحراء مصر الغربية – كاسندرا فيفيان – ترجمة محمد صبري محسوب – المركز القومي للترجمة.

2 – الواحات الداخلة "دراسة في التاريخ الثقافي والمأثورات الشعبية" – عبد الوهاب حنفي – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

3 – الواحات المصرية "جِنان مصر البعيدة" – محمد التداوي – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

4 – سر الصحراء الكبرى: الكفرة – روزيتا فوربس – ترجمة صبري محمد حسن – المركز القومي للترجمة.

5 – في صحراء ليبيا – أحمد محمد حسنين باشا – مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة.

6 – سحر الواحات – رشيد غمري – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

7 – واحات الفن والجمال – محمد أمين عبد الصمد ـ الهيئة المصرية العامة للكتاب.

8 – أفراح الصعيد الشعبية – جمع وتفسير: درويش الأسيوطي – الهيئة المصرية العامة للكتاب.

9 – الأغنية الشعبية "مدخل إلى دراستها" – د. أحمد علي مرسي – دار المعارف.

10 – المواعظ والاعتبار بذكر الخطط والآثار – المقريزي – تحقيق: محمد زينهم ومديحة الشرقاوي – مكتبة مدبولي.

– وكذلك تم الاطلاع على عدد من الدراسات والإصدارات بمركز بحوث الصحراء التابع لوزارة الزراعة المصرية، إلى جانب الاعتماد على كثير الأفلام الوثائقية، والشهادات الحيّة من إخباريين ورُواة ومُرشدين محليين في واحتي الداخلة والخارجة.

t.me/qurssan

t.me/qurssan

المؤلف في سطور

عــلاء فرغلي (من مواليد 1976)

- روائي، وشاعر، وسيناريست، مقيم في القاهرة، درس اللغات الشرقية (العبرية) في كلية الآداب بجامعة القاهرة، واللغة التشيكية في كلية الألسن بجامعة عين شمس. عمل في المجال الصحفي منذ تخرجه في عام 2000، بالعديد من المؤسسات الصحفية، داخل مصر وخارجها.
- فازت روايته الأولى «خير الله الجبل» (صادرة عن دار العين) بالمركز الأول في جائزة ساويرس الثقافية للرواية، شباب الأدباء، عام 2017.
- البريد الإلكتروني:

alaafarghaly@yahoo.com

t.me/qurssan

t.me/qurssan

t.me/qurssan

t.me/qurssan